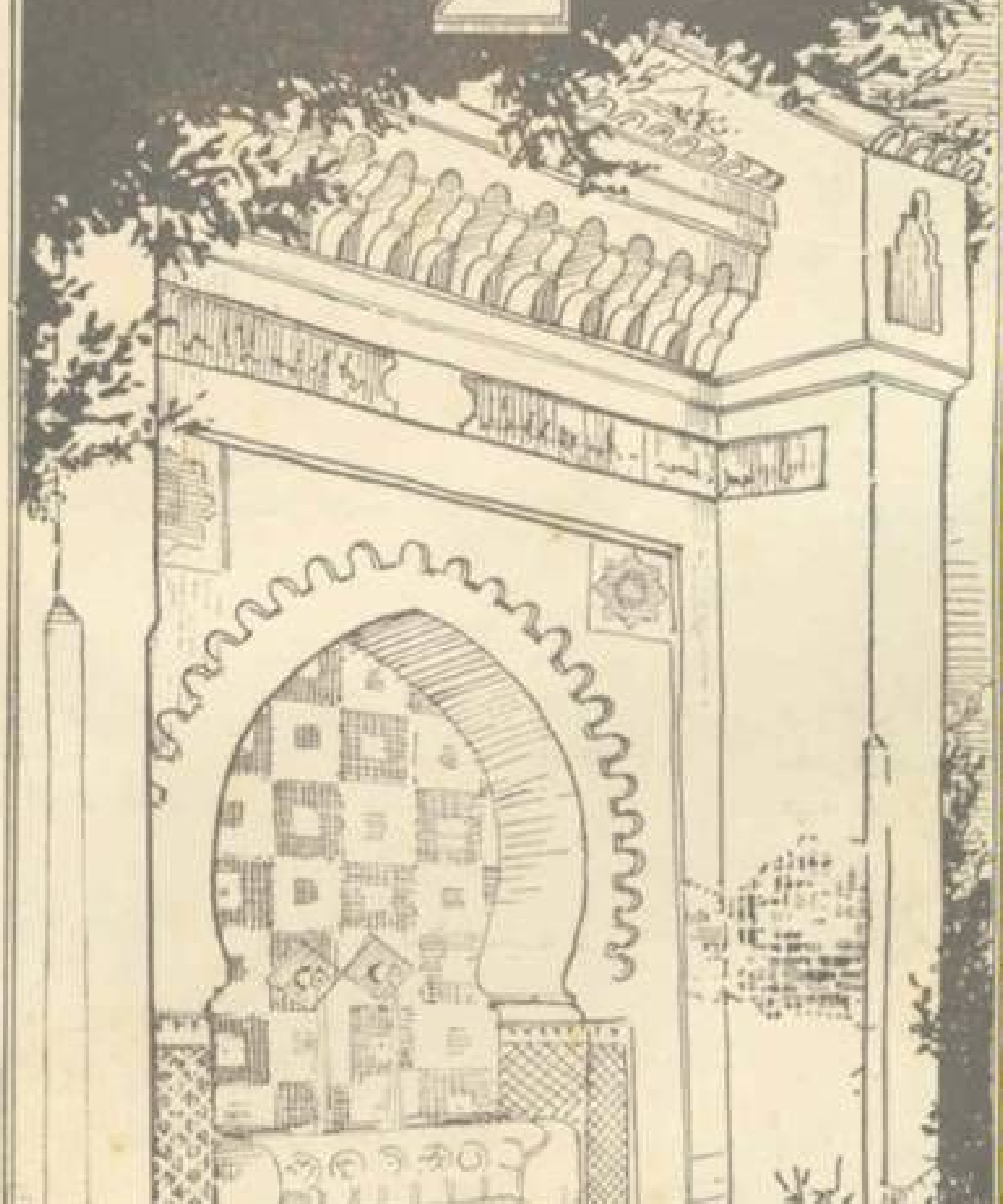
لا غالب الا الله

تطوان



المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

«تطوان»

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تنبيه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة .

المقالات المعروضة لابد ان تمضى بأسماء أصحابها .

يجب على المؤلفين أو الناشرين الذين يرغبون في الاخبار عن مؤلفاتهم فى مجلة «تطوان» ان يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة .

المراسلة الادبية توجه الى السكرتير، وغيرها تبعث الى مدير مجلة «تطوان» : معهد مولاى الحسن – تطوان (المغرب)

ثمن النسخة :

المغرب، اسبانيا وفرنسا : سنة واحدة .... 12،50 درهم

فى باقى البلاد : سنة واحدة .... 4 دولارات

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

منشورات الجامعة المغربية

كلية الآداب

٤

معهد مولاى الحسن

للأبحاث المغربية الأندلسية

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

العدد السادس

السنة 1961

دار كريماديس للطباعة ـ شارع النصر 3 ـ تطوان (المغرب)

محمد الفاسي

الامثال المغربية باللغة العربية العامية (1)

ان دراسة الامثال التى تجرى على ألسنة العامة من المواضيع العلمية التى عني بها اللغويون منذ العصور الاولى وذلك لما تحتوى عليه من التعبيرات الجزلة والايجازات البديعة مع محافظتها على ألفاظ قل استعمالها عند الكاتبين او غمض معناها فبقى المثل يشرحه بسياقه وبما يوحيه فى نفس المتكلم به من معنى حي، ومن واجب علماء الاجتماع ان يهتموا كذلك بالامثال العامية لانها اصدق صورة للمجتمع الذى تستعمل فيه فنرى فيها حياة الفقراء والاغنياء وأهل البدو وأهل الحضر والمهن والصنائع والحياة العملية والدينية والمستوى الفكرى والملابس والمآكل والعلائق العائلية الى غير ذلك من شؤون الحياة العامة والخاصة. وفيها كذلك الحكمة العملية وليدة التجربة ومعاناة الحياة والكد لكل هذه الاعتبارات كانت الامثال العامية مادة مهمة لكل هذه الدراسات.

ومن اقدم ما وصلنا من مجموعات الامثال العامية العربية رسالة الامثال البغدادية التى تجرى بين العامة للقاضى ابى على بن المفضل الطالقانى جمعها سنة 421 هجرية ونشرها الاستاذ ماسينيون وهى تحتوى على أكثر من ستمائة مثلا .

وقد اورد الابشيهى فى المستطرف امثالا عامية وكذلك الموسوى فى فى نزهة الجليس وصاحب سحر العيون. اما بالمغرب فان اهم كتاب ضم مجموعة من الامثال العامية هو كتاب حدائق الازاهر للقاضى ابن عاصم الغرناطى صاحب تحفة الحكام وقد طبع على الحجر بفاس .

واهم كتاب نشر الى حد الآن فى الامثال العامية العربية فى وقتنا على ما اعلم هو الذى جمعه العلامة الكبير المغفور له احمد تيمور باشا رحمه

1) نص المحاضرة التى القاها الاستاذ الفاسى هذه السنة بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولنذكر بهذه المناسبة ان كتابا الف بالانجليزية فى ثلاثة اجزاء جمع ثلاثة آلاف مثل مغربى كلها عربية وتبدو عليها اللهجة الشمالية (محمد بن تاويت)

الله وقد عنيت لجنة نشر المؤلفات التيمورية بنشره واخرجته متقن الطبع والتصحيح. وهو مثال يقتدى فى الترتيب والشرح والمقارنة والتحقيق.

وقد عنيت منذ سنين بجمع الامثال المغربية حتى تحصل لى منها باللغة العربية اكثر من خمسة آلاف مثل ونحو ثلاثة آلاف بمختلف اللهجات البربرية وقد تأتى لى ذلك بسبب ظروف استثنائية ساعدتنى على جمع هذا القدر الكبير من الامثال حيث جمعنى السجن والنفى مرارا مع مواطنين من كل مدن المغرب وقراه وقبائله فكنت اشغل الوقت عند ما تكون ظروف الحراسة مواتية بجمع هذه الامثال العربية اولا ثم لما تعلمت البربرية فى السجن اشتغلت كذلك بجمع امثالها وانى أخصص هذا الحديث بالامثال العربية وان كنت فى الكتاب الذى أعده الآن والذى اسميته مجمع الامثال المغربية أضم اليه الامثال البربرية مع ترجمتها الى العربية .

واريد قبل ان أحدثكم عن امثالنا أن الم هنا ببعض القواعد البسيطة لتفهم اللهجة المغربية فاللغة العربية التى نتكلم بها عربية سليمة من الدخيل الا فى ما قل والاختلاف الاساسى بينها وبين العربية الفصحى اختلاف فى النطق وذلك اننا لا نبتدىء بمتحرك فى الغالب الا اذا كان ممدودا فنقول كْتاب لِكتاب وتقول خْريف لخَريف وغْبار لغُبار، وليس هذا كما يظن البعض تأثيرا للبربرية فالامر بالعكس حيث ان هذه اللغة تلتزم الابتداء دائما فى الاسماء بالخصوص بهمزة مفتوحة فى الغالب او مكسورة او مضمومة حتى اننى أسميت هذه الهمزة فى كتاب نحو وضعته للبربرية بالعربية «أداة الاسمية» كَاكَّديرْ للحصن أو الجدار أو مخزن المحصولات الزراعية وهذه اللفظة قريبة من الجدار العربية وإفرى وهو يجمع على إفْرانْ للكهف، وهذه الظاهرة متمكنة من اللغة البربرية لدرجة أنهم اذا أخذوا كلمة من العربية أو من اية لغة اخرى ادخلوا عليها اداة الاسمية فيقولون للعربى مثلا أعرْبى وبالعكس فاننا اذا اقتبسنا كلمة اجنبية تبتدىء بهمزة حذفناها فكثيرا من عامة المغاربة يقولون : ميركان للأميركان.

وعليه فيجب ان نبحث عن ابتداء المغاربة بالسكون فى طبيعتهم المندفعة المتوثبة التى تجعلهم يحاولون النطق بالكلمة دفعة واحدة وقد تنبه الى هذه هذه الظاهرة وشرحها بهذا التوجيه الفيلسوف جمال الدين الافغانى على ما كان ذكره لى الامير شكيب ارسلان رحمهما الله اذ قال له ان فى طبع المغاربة شدة واندفاعا حتى أنهم اذا أرادوا ان يقولوا طبيعة قالوا طْبِيعة نعة واحدة .

ثم اننا فى ما يرجع للنطق بالحروف العربية فاننا ننطق بها كما وردت عن العرب الا فى ما كان من الثاء فننطقها مثل التاء وهى تحرف كذلك فى اكثر البلاد العربية فتصير فى بعضها سينا كما هو الشأن فى اللهجة المصرية وأحيانا تصير فاء كما ينطق اهل تونس بعض الكلمات مثل ثَمَّ حيث يقولون فَمَّ. وننطق الذال دالا . والظاءَ ضادا . كما فى لهجة مصر (1) .

أما الجيم فانه اذا اقترن فى كلمة مع حرف من حروف الصفير (الزاى والصاد والسين) فاننا ننطقه گافا واحيانا قليلة دالا (2) واليكم امثلة ـ تقول گلَسْ لِجَلَس ونقول الگبْصْ للِجِبْص وتقول داز لجاز ولكن مجاز لمجاز ـ أى ممر ـ وهكذا. ثم ان الجيم ينطق كحرف شمسى فى بعض الكمات فيقال مثلا الجَّمَل بادغام اللام فى الجيم.

اما القاف فان اهل البوادى ينطقونه كذلك گافا معقودة وكذلك بعض المدن كمراكش وبعض الكلمات ينطقها المغاربة كافة بالقاف المعقودة مثل الگمرة للقمر فى تمه والبگرة «البقرة».

أما من حيث النحو فاننا نعبر عن الحاضر بكا أو تا، كما يعبر عنه المصريون بحرف الباء وفى كل اللهجات العربية صيغة لهذا المعنى كأنّ المضارع العربى لاشتراك صيغته فى التعبير عن الحاضر والمستقبل جعل

1) قال تيمور باشا فى كتابه «امثال العامية» ط 2 ص 437 العضمة «بالضاد» القطعة من العظم بقلب الظاء ضادا على عادتهم

2) وكذلك يقع هذا فى بعض لهجات مصر على ما ذكر تيمور رحمه الله فى كتاب الامثال العامية ص 373 وبعضم يروى فيه «ديشها» والمراد جيشها على لغة من يقلب الجيم دالا منهم.

المتكلمين المحدثين يبحثون عن وسيلة للتمييز فنقول مثلا كانكتب اى باكتب ونستعمل للمستقبل ماشي او غادي في محل حا المصرية أو راح فماشي تجي معناها حاتجي وهكذا.

ومن الالفاظ المستعملة كثيرا : بزاف للتعبير عن الكثرة واصلها بجزاف ـ ومعناها : كثير ـ ودابا اى الآن وهي من الداب على الشيء ـ والعجب ان كل اللهجات العربية بحثت عن كلمة للاستعاضة عن لفظة الآن كذى الوقت المصرية التى صارت دروك في الجزائر ويقال بتونس توا وهكذا. والذى صارت عندنا اللى كما هو الشان في اللهجة المصرية ويقال احيانا بفاس دى ـ وبحال ومعناها مثل ـ واخا ومعناها نعم واصلها وخير اى طيب وتستعمل كذلك بمعنى ولو ـ منايين اى عند ما ـ إلا ـ اذا ـ مَصَاب اى «يا ريت» واصلها : من أصاب اى من وجد ؟

لَالَّة ـ سيدتي . مَزْيَانْ ـ حسن ، مُولَى ويخفف بمُولْ ـ صاحب ويجمع على مُوالين او مالين اشكونْ ـ مَن ؟ بَاشْحَال ـ بِكَمْ فُوقَاشْ (في وقت أى شيء) ـ متى .

وبعد هذه التوطئة عن اللهجة المغربية اقدم لكم نماذج من هذه الامثال ومن المعلوم لدى علماء المأثورات الشعبية «فولكور» أن من الدلائل على وحدة الفكر البشرى اتفاق الامثال عند كافة الشعوب بكيفية عامة حتى انها تبدو احيانا وكأنها ترجمة عن بعضها وعلى سبيل المثال يقول المثل الفرنسي :

Les Paroles S'envolent, Les écritsrestent.

ويقول المثل المغربي : تَايَنْسَى الرَّاسْ ما يَنْسَى الْكَرَّاسْ. ومن ذلك قول الفرنسيين . Le Bossu ne voi pas Sabosse, mais il voit celle de son confrère

ونحن نقول : الجَمَلْ ما تَايْشُوفْشي حَدْبَتُه مَا تَايْشُوفْ غِيرْ حَدَبْةْ اخَاه ـ والامثلة في هذا الباب كثيرة.

أما الامثال العربية العامية في مختلف البلاد العربية فكثير منها لا فرق بينها الا في الغنة الصوتية وسأورد في هذا العرض النموذجي الامثال

المصرية الموافقة للامثال المغربية استنادا على مؤلف احمد تيمور باشا رحمه الله ثم اورد امثالا مغربية اخـرى لم أقف على مقابلها في اللهجات العربية الاخـرى .

وهذه مجموعة الامثال مرتبـة على الحروف الابجدية حسب الترتيب المغربي، اما كيفية كتابتها فانني التزم في الغالـب الصورة الفصيحة ولكن بشرط ان لا يقـرأ الا ما ضبـط، وامـا الحروف التـي ليست مضبوطة فانها تدل فقـط علـى الصـورة الاصلية كالف الامر في الاول فانه لا ينطق في اللهجة المغربية فنقول مثلا : اكتـبْ وَاكتبوا بدون ان ننطق الهمزة في الاول ولكن نكتـب الالف علامة عليهـا، وكتـاء التأنيث في آخر الاسماء والصفات المؤنثة فانها لا تنطق الا في حالة الاضافة فنقول مثلا : بْلَغَـة للحذاء ونقـول بْلَغْتـي، وكذلـك الهاء التي هي ضمير الغائب المذكر المفرد المتصل وهي لا تنطق في اللهجة المغربيـة وانما تنقل حركتها الى ما قبلها فنقول مثلا : ضَرْبُـه ــ أي ضَرَبَـهُ ، ونقول ، كْتَابُه ــ اي كِتابُه ، وهكذا، وبما ان الفعل المفرد المتكلم يبدأ بالنـون عندنا كأنه جمع تزيد في آخر الجمع المتكلم واواً كما هو الشأن في المخاطب والغائب فنقول : نْكْتَبْ ــ أكْتُبُ ، نْكَتْبُوا ــ نَكتب واحيانا ننطق بعض الكلمات بمد على الفتحة او الضمة او الكسرة ولا يوجد في الفصحى فنثبته لصحة النطق وذلك نحو قولنا بِيـهْ ــ أي بِـه ــ تحت تأثير فيه، ويقـع بالعكس ان يسقط المد فـي العاميـة فلا نثبته في الكتابة كذلك ومثاله اننا نقول : هَاذْ ونعني به هذا، ثم إنني اكتب القـاف المعقودة أي الجيم القاهرية بقاف عليه ثلاث نقط ان كان اصلها قافا وبجيم تحته ثلاث نقط ان كان اصلها جيما وبكاف عليه ثلاث نقط ان كانت الكلمة غير عربية، وامثلة هذه الصور الثـلاث : القَرْبَـة ــ أي القربة، الجْنَازَة ــ أي الجنازة ــ آكَـادِيـرْ .

وأكثر هذه الامثال فاسية، لذلك فان كل مثل لا انبه على اصله فهو من أمثال أهل فاس، وقد وقفت بعد كتابة هذا الحديث على القسم الاول من كتاب

الامثال العامية في نجد لمحمد العبودي فوجدت ان بعض الامثال التي اوردتها هنا لها مقابل في امثال نجد فنبهت عليها جاعلا بعد ذكرها عدد ترتيبها في مؤلف العبودي بين قوسين .

1 ـ أَبَـا احْلِبْـه لي. أُوليدي ثُـورْ ـ يَا أَبَتي احْلبْهُ لي. يا بني إنه ثور . اي لا يمكن ان يحلب. يقابله في الامثال المصرية ما ورد في كتاب تيمور تحت العدد 202 وهو : أقول له طور يقول احلبه . الا انه يضرب عندنا للدلالة على البساطة والبله. واما بمصر فانه يضرب للمتعنت الذي يامر بالمحال .

2 ـ ابْنَادَمْ يَا اكْحَلْ الرَّاسْ كُلّهُ يَابَسْ لا تْبَلْبْلَه ـ يا ابن آدم يا اسود الراس كله جافا ولا تبلله ـ هذا المثل يجعل على لسان الاسد ويحكى لشرحه قصة وهي ان اسدا خرج في انسان واراد اكله فتوجه اليه الانسان بهذا الخطاب قائلا ، أيها الملك انني لا محالة ماكول وما دمت لا مناص لي من هذا المصير المحتم فانني أرى لك رأيا إن اتبعته كان لك فيه الخير. وذلك اننا معشر البشر اذا بلل جسمنا بالماء كان شهيا لذيذا. فلو اخذتني الى طرف نهر وتركتني ابتل فيه جيدا ثم اكلتني بعد ذلك تتمتع بلحمي متعة عظيمة قلما احسست بها من قبل. فلما سمع الاسد هذا الحديث سال لعابه على ذقنه وامر ذلك الشخص ان يركب فوق ظهره ثم قصد به نهرا ورماه فيه. فما ان سقط في الماء حتى اخذ يعوم نحو الشاطىء الآخر وافلت من قبضة الاسد. فعند ذلك تيقن ملك الغاب أنه استهزىء به فقال هذه الكلمة. وتستعمل في معرض الكلام على مكر الانسان وغدره والتجائه الى الحيل. وفي هذا المثل شبه التفات اي انتقال من مخاطبة شخص الى شخص آخر.

وقد ذكر تيمور تحت عدد 2375 مثلا اشار فيه الى صاحب الراس الاسود وهو كل شيء تزرعه تقلعه الا ابو راس سودة تزرعه يقلعك . ولنا مثل مثله سنورده بعد هذا مع مثل مصري آخر يشابهه .

3 — إلاَ جَاتْ كَاتْجِيبها سْبِيبَــة والاَ مْشَاتْ مَقْطَعَة السْنَاسَل. اى اذا اقبلت الدنيا تقودها لك شعرة رقيقة من سبيب الخيل وان ادبرت تنفك منك بشدة وقوة ولو كانت مربوطة بالسلاسل .

وقد اورد تيمور هذا المثل تحت عدد 567 هكذا : ان جت تسحب على شعرة وان ولت تقطع السلاسل واورد قصة تشرح هذا المثل وهى ولا شك موضوعة الا انها تطابق المثل قال : «وله قصة يروونها عن السلطان حسن بن محمد بن قــلاوون احد ملــوك الدولة التركية بمصر خلاصتنا انه لما خلع من الملك هرب مــع غــلام له واوقر بغلا بوقر من المال علقه على ظهره بسلاسل من ذهب، فلمــا عبر النيل تقطعت السلاسل وغرق المال ثم طوف فى البلاد ما طــوف وعــاد يتحسس الامور فمر بذلك المكان الذى كان عبر منه وقعد يصطاد فعلق الشص يحمل المال واخرجه من الماء فنطق السلطان بهذا المثل واستدل بذلك على الاقبال بعد الادبار، وقد تضمن هذا المثل البيت المشهور:

اذا اقبلــت كــادت تقــاد بشعــرة وان ادبــرت كــادت تقد السلاسل

4 — إلا احبـَكْ القَمـَر بهلاله اشغَليتَكْ فى النّجُومْ إلاَ مَالُوا — اذا أحبك القمــر بهالتــه فــلا تكتــرث بالنجــوم اذا هى مالت عنك وغابت ولا يستعمل فــى العاميــة القمــر الا فى المثل وانما نقول القمرة وكذلك الهلال فانه يسمى الشهر — ولعل معناه هنا الهالة التى تحيط بالقمر فى تمه .

ويقابلــه فى الامثــال المصرية اللى معاه القمر ما يباليش بالنجوم — (عدد 398 مــن امثال تيمور) — والمعنى واضح اى من كان يرتكز على رئيس او صاحب نفوذ كبير فانه لا يبالى بمن كان دونه.

5 — إلاَ كَـانْ الكْذُوبْ انْجَى الصّدْق انْجَى وَانْجَى — اى اذا كانت النجاة فــى الكــذب فانهــا أولــى ان تكون فى الصدق ويقابله من الامثال المصرية : ان كان الكذب حجــة يكــون الصدق انجى (عدد 641).

6 ـ إلاَ كَانْ الَمْحَدّثْ أحْمَق يْكُونْ الَمْصَنّتْ بْعَقْلُه ـ اى اذا كان المتحدث أحمق يكون المصنت عاقلا . ويقابله من الامثال المصرية ، ان كان اللى بيكلم مجنون يكون المستمع عاقل (عدد 622) .

7 ـ إلاَ ما اصْلاَحْ قَرْبَة يْصَلْح دْلُو ـ اى اذا لم يكن صالحا لاتخاذه قربة فانه يصلح كدلو ـ وفى اللهجة المغربية توجد صيغة للتعبير عن الافعال الدالة على الصفات الذاتية التى يستعمل لها فى الفصحى صيغة فَعل وفَعُل وافْعَلّ فيقال اصْلاَحْ بمعنى صَلُح واكْبَارْ بمعنى كَبر وابياض بمعنى ابيَضّ . ويضمرون فى هذا المثل لفظة جلد. ويقابله من الامثال المصرية : اللى ما ينفع طبلة ينفع طار (عدد 394) . والمضمر هنا ايضا لفظة جلد لان الطار وكذلك الطبلة تجلد بقطعة من الاديم . ويضرب المثل فى اشياء يراد الاستغناء عنها لكونها بالية او متقطعة فيرد ذلك بانها مع ذلك صالحة فان لم تصلح لشىء صلحت لغيره ويستعمل للمعانى المجازية كذلك .

8 ـ إلاَ شَتّ لَحْيَة اخَاكْ مَنْتُوفَة بَلّلْ دْيَالَك. وهو مثل مكناسى ومعناه اذا رايت لحية اخيك تنتف فبلل لحيتك وشت هى شفت وفى اللهجة المغربية يخاطب المذكر بصيغة التأنيث يقال دْخَلْت وخْرَجْت اى دخلت وخرجت. وديالك معناه ما هو لك كما يقال بمصر بتاعك وتستعمل كذلك ببوادى المغرب لكن بالصورة العربية الفصيحة اى متاع بالميم فى اوله لا بالباء

ويقابل هذا المثل ما ورد عند تيمور تحت عدد 570 وهو: ان حلق جارك بل انت والمثل الذى ذكره تحت عدد 593 : ان شفت المزين بيحلق لحية جارك صبن لحيتك ـ والعجب ان اهل مصر لا يستعملون لفظة لحية فى كلامهم وانما يقولون ذقن وفى المثل يتفقون مع اهل المغرب .

واهل فاس يستعملون أيضا هذا المثل لكنّ بخلاف بسيط وهو قولهم :
إلاَ شَتّ لَحْيَة اخَاكْ انْتَقْت اعْرَفْ دْيَالَكْ فَى الرّادُوجْ . والرادوج مشط كبير للصوف .

واتْنَتْقَتْ معناه تُتقَتْ لان فـي اللهجة المغربية صيغةً للمبنى للمجهول خاصة وهى اتفعل للمذكر المفرد واتفعل للمؤنث المفرد وللجمع مطلقا .

ومعنـى هذا المثـل انه يجب عليك ان تستعد لمقابلة المكاره اذا اخذت تنزل بمن هو قريب منك او من كانت ظروفه تشابه ظروفك .

9 ـ اللهْ يَجْعَـلْ الْغفلـةْ مَا بِيـنْ البَايَعْ وَالشارِى ـ والمعنى انه لا ينبغى التدخل فـى شـؤون الناس واصله حديث قـال عليه السلام : دعوا الناس في غفلاتهـم يرزق الله بعضهم من بعض. ويقابله من الامثال المصرية : بين البايع والشارى يفتح الله (859)

10 ـ اللهْ يَهْـرَسْ مَدّ الغْـلَا ـ كسر الله مد الغلاء ـ يقابله من امثال تيمور : الله لا يرجع الغلا ولا كياله ـ والمعنى واضح وفى كلا المثلين استعملت صيغة الدعاء.

11 ـ الّى بَاطَلْ كَثّرْ مَنّـه ـ الباطل معنـاه الذى لا يساوى شيئا . ويقابله من الامثال المصرية : البلاش كتر منه (821) ومعناه واضح .

12 ـ الّى تَعَرْفُه احْسَنْ مَنْ الّى مَا تْعَرْفُوشْ ـ معناه واضح ويقابله من الامثال المصرية مثل يتفق معه فى كل الفاظه وهو قولهم اللى تعرفه احسن مـن اللى مـا تـعرفـوش (274)

13 ـ الّى خَيـْرَكْ خَيّـرَكْ ـ ويقابله : اللى عاوز تحيره خيره (عدد 304) . ويقال بالمغرب ايضا : خَيرُه حَيرُه والمعنى واضح والمثل العربى يقول قَتَلُ مَا نَفْس مُخَيرها .

14 ـ الّـى لَابُدْ مَنّـه لَا غْنَى عَنّهُ ـ يقابله المثل المصرى : اللى لابد منه لا غنى عنه (332) ويتفق معه لفظا ومعنى.

15 ـ الّى مَا عَشَقْ وْلَا اتّعْشَقْ مَنْ الْحْمَارْ اخْلَاقْ ـ اى من لم يَعْشَقْ اوْ يُعْشَقْ فانه خلق من الحمار . والمعنى ان من لم يؤثر فيه الجمال ويحس بعاطفة المحبـة أو لم يعطه الله من الملاحة والصباحة ما يجعل النفوس تميل

اليه فهذا والحمار سـواء . ويقابلـه ما ورد عند تيمور تحت عدد (719) من قولهم : ايش قلتم فى جـدع لا عشق ولا اتعشق قالوا يعيش حمار ويموت حـمـار .

16ـ الّى عَمَلْ رَاسُه مْعَ النّخّالَة كَايْنَقْبُوهْ الدّجَاجْ ـ معناه من أقحم نفسه فى وسط النخالة نقرتـه الدجاج لانها للبحث عن طعاما تضطر لنهش كل ما تقع عليها مناقيرها. والمعنى مجـازى اى من خالط الذين لا كرامة لهم اهين مثل ما يهانـون. ويقابلـه من الامثال المصرية اللى يعمل نفسه نخالة تبعتـره الفـراخ (489) والفراخ عندهم الدجاج. وقريـب منه مثل مغربى آخر وهـو : فَايْنْ مَا عْمَلْتْ رَاسَكْ كَاتْصِيبُه اى اين ما جعلت نفسك وجدتها اى ان جعلتها فى محل الكرامـة وجدتا مكرمـة وان جعلتها فى محل الاهانة وجدتهـا مهانـة .

17 ـ الّى عَضُّـه الْحَنَشْ كَايْخَافْ مْنَ الشّرِيطْ ـ الشريط حبل من دوم والمعنى ان من عضه حنش يخـاف من الحبل لشبهه بالحية ويقابله المثل المصرى . اللى قرصه الثعبان يخاف من الحبل (328) والمعنى ان من اصابته مصيبة له تمام العذر ان يتجنب ما يوقعه فيها ولو بأبعد احتمال .

18 ـ الّى فَـاتْ مَـاتْ ـ مثله باللفـظ عند تيمور تحت عدد 315 ـ ومعناه انه لا ينبغى التشبث بالاشياء التى مرت وانما يجب التفكير فى ما هو حاضر وفى التوقـى ممـا يتوقع . ويوجد هذا المثل بلفظه فـى الامثال النجدية (انظـر الامثـال العامية فى نجد لمحمد العبـودى فى القسم الاول عـدد 70)

وهذا المثل كثيرا ما كنا نسمعه من مستعربى رجال الادارة الفرنسية فى المغرب بعد ان يضطروا الى اطلاق سراحنا من السجون معبرين بذلك على انه ينبغـى ان ننسى مـا أذاقونا من عـذاب لنهتم بالمستقبل فكنا نجيبهم : بأن ما فات مات بالنسبة اليكم واما بالنسبة الينا فلن يمـوت حتى تتحقق اهدافنا الوطنية .

19 ـ أَنَا اميــرْ وَانْتَ أميرْ وَاشكُونْ يسُوقْ هَاذ الْحْمِير ـ ويقابله عند تيمور مثلان اورد احدهما تحـت عدد 353 وهــو : أنا كبير وانت كبير ومين يسوق الحمير . والثانى تحت عدد 2537 وهو : لما انا امير وانت امير مين يسوق الحمير، وذكر ان هذه الصيغة اصح من الاخرى وهى المتفقة مع الصيغة المغربية، ويستعمل هذا المثل فى مـن يأنف من القيام بأعمال يراها دون مقامه والحالة أنه ان لم يقم بها هو وغيره مكلف بما هو أهم منها فانها تبقــى معطلــة .

20 ـ أنَا فى هَمُّه كَانْدَادِي وْهُوَ فى تَقْلِيعْ اوْتَادِي، همه معناه شؤونه ودادى فعل لا يستعمــل الا فى هــذا المثل ومعناه عالج بكل رفق وحنان كما تفعل المربية التى يطلــق عليها اسم الدادة عندنا، ويقابله من امثال تيمور : أنا فيك بدادي وانت بتقطع اوتادي (552) وهو من اعجب الموافقات فى الالفاظ والمعانى بين الامثــال المغربيــة والمصريــة، ويستعمل فى توبيخ من يقابلك بالاساءة وانت تحسن اليه.

21 ـ بْحَالْ الْبَرَابَرْ تَسْعْدْ كَايْهَدْرُوا وْوَاحَدْ كَايْتْصَنْتْ ـ اى ـ مثل البرابرة تسعة يتكلمون وواحد ينصــت، وهدر معناه تكلم بالمغربية وتسعد معناه تسعة ـ وقد عدل المغاربة عن لفظة تسعة الى تسعد ابتعادا من مواجهة المخاطب بما يكره لان سعى عندنا معناه تسول، فاذا قلت تسعة فكأنك تقول تتسول ـ ويقابله من الامثال المصرية : «زى البرابرة يتكلموا وواحد يسمع (1375) وهو كناية عــن كثــرة الهــذر واللغط وهو كذلك من أعجب الامثال المتفقة لفظا ومعنى .

ومن العجب ان لفظة البرابر لا يقصد بها نفس المعنى بمصر والمغرب فان البرابرة عندنا اسم لسكان المغرب الاولين وهو اصطلاح علمى ويطلق عند اهل فاس على بعض قبائل الاطلس المتوسط، اما البرابرة بكيفية عامة فيسمون بالمغرب الشلوح، اما البرابرة بمصر فهم اهل النوبة .

22 ـ بْحَالْ الثُّـورْ الاَبْلَقْ ـ أى إنه معروف وظاهر لكل واحد، كأنه ثور ابيض وسط قطيع من البقر ـ ويقابله : «زى البقرة البلقة» (1385) قال تيمور «لان البلق قليل فى دواب مصر» اقول وهو كذلك فى بقر المغرب ـ ولكن المثل اصله قديم كما نبه عليه هو نفسه حيث أورد قولهم : أشهر من الفرس الابلق .

23 ـ بْحَالْ الْخَنْفُوسَة فى الشّتَبْ ـ اى ـ مثل الخنفساء فى هشيم ليف الاشجار واوراقها يضرب لمن يرتبك فى شؤونه ويتحير ويكون كأنه حاصل فى وحل لا يستطيع منه خروجا وهذه حالة الخنفساء اذا حصلت فى هشيم الالياف فانا تتعثر فيه ولا تهتدى سبيلا، ويقابله من الامثال المصرية «زى الخنفس يتكعبل فـى المشـاق» (1418) ويتكعبل معناه يعثر ويحصل والمشاق دقـاق الكتـان .

24 ـ بْحَالْ الّـِى تَايَشْطَحْ فـى الدْرُوجْ، وهو مثل مكناسي ـ معناه كمن يرقص فى المـدارج التى تؤدى فى خفـاء الى الطابق الاعلى من الدور، وشطح معنـاه رقـص، ويضرب لمن يقـوم بعمل يظن انه سيجنى منه فائدة ولكنه لاخلاله بشروط النجاح يكون عبثا، ويقابلـه مثل مصرى يتفق واياه لفظا ومعنى مع زيادة شرح وهو قولهم : زى اللى رقص فى السلالم لا اللى فوق شافوه ولا اللى تحت شافوه (1369) .

25 ـ بْحَالْ مَيّتْ الْعَاصَـرْ مَا ادّى اخْبَارْ مَا جَـابْ أخُورْ ـ مثل من يموت فى العصر لا يأخذ معه خبرا ولا يأتى بخبر آخر وذلك أن أعمال اليوم وما يقع فيه من حوادث لا تتم الا فى نهايته وما تم فى وسط النهار لا يبلغ مسامع الناس الا بعد فترة بحيث ان من فارق الدنيا فى وقت العصر لا يأخذ معه الى الآخـرة ما يبلغه عن اعمال اهل الدنيا فى يومه، اما قولهم فى آخر المثل ما جاب اخور فـلا يمكـن ان ينطبـق علـى الميت والمثل الذى يقابله من الامثال المصرية يقول : زى ساعى اليهود ما يودى خبر ولا يجيب خبر (1432) ولا ادرى لماذا يكون ساعى اليهود بهذه المثابة وما زاد احمد تيمور فى شرحه

على قوله «وذلك لاعتقادهم فى اليهود انهم لا يصلحون لشىء» وهو غير كاف ولا مقنع، واظن ان اصل هذا المثل قد ضاع ولم يسمع ولا فهم على حقيقته فقال فيه اهل المغرب ميت العصر، واهل مصر ساعى اليهود والصواب ربما وقفنا عليه فى امثال امة عربيـة اخرى او حتى عند غير العرب من الامم لما تعلمه من وحدة التفكير البشرى واتحاد كثير من الامثال عند كافة الشعوب ويضرب المثل فى من لا يرجـى منـه أن يُفيدَكَ باطلاعك على شىء كان يتوقع ان يعلمـه .

26 ـ بْحَـالْ السّمَـنْ مْعَ الْعْسَلْ ـ الفاظه واضحة، وهو فى امثال تيمور هكـذا : زى السمـن والعسل (1441) الا اننا نستعمله بمعنى الرضى التام بالشىء وتحبيذه ومحبته كما يحب الانسان السمن بالعسل، اما بمصر فيقول تيمور انه «يضرب للمتحدين فى صفاء اى هما فى اختلاطهما كالسمن والعسل فى الامتزاج» .

27 ـ بْديكْ النِّيَّة تَلْقى اللهْ ـ أى بتلك النية تلاقى الله ـ أصل هذا المثل ما يحكى على لسان الحيوانـات من ان قطـا رأى فارا يزلق ويقع الى الارض فصاح به «الله معـك» يدعـو له بالسلامة، فقال له الفار : إن كنت صادقا فى دعائـك لى بالسلامة فأرجو لك ان تلاقى الله بهذه النية الطيبـة فيجازيك عليها ـ يقول له هذا وهو يعلم ان القط يتظاهر بغير ما يبطن لانه ان كان لا يريد له الوقـوع علـى الارض فهو يود ان يودي بحياته ويلتهمه، ويقابله من الامثال المصرية قولهـم : الفار وقع م السقف قال له القط اسم الله عليك، قال سيبنـى وخلى العفاريت تركبنى (2084) سيبنى اى اتركنى وشـأنـــى .

28 ـ اَلْبْكَـا مَـنْ بْعَدْ الْمَيَّتْ خْسَارَة ـ اى البكاء على الانسان بعد وفاته لا فائـدة فيـه لانه لا يرجع من مات، ومعناه انه لا فائدة من التحسر والتفجع على ما مضى وانقضى وفات، واولى من ذلك التفكير فى ما يصلح

الاحوال بعد زوال ما زال منها، ويقابله من الامثال المصرية «العايط فى الفايت نقصان فى العقل» والعايط معناه البكاء

29 — بْسَاطْ حْمَادِي — البساط فى هذه العبارة يطلق عندنا على اجتماع اصدقاء في وقت سرور وانشراح واتفاق تام. وفى اللغة المغربية يطلق على قاعة فسيحة فى الطابق العلوى فى منزل الكبراء تشرف عادة على البساتين وجداول المياه، وتستعمل نفس هذه العبارة بمصر كما وردت في أمثال تيمور هكذا : بُسَاطْ أَحْمَدى (777) وشرحها بقوله «يضرب فى طَرْح التكلف والاحتشام بين الحاضرين» ولم اكن اعرف لهذه الكناية اصلا ولا اشتقاقا لحمادى ولكن احمد تيمور رحمه الله يقول فى ذلك : «والاحمدى نسبة الى السيد احمد البدوى صاحب المقام المعروف بطنطا واصل المثل ما يذكرون فى كتب مناقبه انه كان له بساط صغير على قدر جلوسه يسع من أرادوا الجلوس معه ولو كانوا الفا، قال الشيخ على الحلبى الشافعى فى النصيحة العلوية فى بيان حسن طريقة السادة الاحمدية : «ومن هنا صار الناس يقولون فى المثل : البساط الاحمدى «كأنهم يريدون يجلس عليه من شاء كما يشاء» ويوجد بعض الفرق فى الاستعمال لان المعنى انتقل عندنا من اجتماع العباد الذاكرين ولو بطرح التكلف والاحتشام الى اجتماع للانبساط واللهو والانشراح، وعلى كل حال فان هذا التوافق بين عبارة مصرية وأخرى فاسية بهذه الدقة لا يستبعد اذا علمنا أن سيدى أحمد البدوى أصله من مدينة فاس حيث ولد سنة 596 هجرية .

30 — تَعْلَى الْعَيْنْ حَتَّى تَعْلَى وَالْحَاجَبْ اَعْلَى وَاَعْلَى — اى ان العين وان علت ما علت فان الحاجب اعلى منها مطلقا — ويقابله المثل المصرى : العين ما تعلاش ع الحاجب (2023) ويضرب هذا المثل فى الرجل ذى المقام الرفيع بعلمه او جاهه او غير ذلك من مؤهلات السؤدد لا يمكن ان يلحقه من هو دونه فى تلك المؤهلات .

31 ـ تَعَلْمُوا يا الْحَجَّامَة فى رُوسْ الْيَتَامَى ـ معناه واضح ويقابله فى الامثال المصرية إتعلم الْحجامة فى روس اليتامى (54) ويضرب مثلا لمن يستعمل الضعيف سلما للوصول لاغراضه.

32 ـ تَشرفُوا فى بْلَادْ الَّا تَعَرْفُوا ـ اى ادعوا الشرف فى بلد لا تعرفون فيه ـ ويقابله المثل المصرى «إشرفوا عند اللى ما يعرفوا (128) والمعنى انه يصعب ادعاء مزايا باطلة خصوصا عند الذين يعلمون أن هذه المزايا لا أصل لها .

33 ـ ثُوبْ الْعِيرِيَّة مَا يْدُومْ ـ اى ان اللباس الذى اعرته من غيرك لابد ان ترجعه له فهو لا يدوم لك ومثله قول المصريين : ثوب العيرة مايدفى (916) ويضرب فى الشخص يباهى بما ليس له وانما جعلته الظروف موقتا تحت تصرفه ـ ومثله من الامثال النجديّة : ثوب العارية ما يدفى (153).

34 ـ جَا يْطَبَّه اَعْمَاهْ ـ اى قصد ان يعالجه فأعماه ـ ومثله المثال المصرى : جايكحلها عماها (941) يضرب لمن يزيد المشاكل تعقيدا وهو يريد حلها، وفى نجد : داواها واعماها (240)

35 ـ جَا يْعَاوْنُه فى قْبُورْ بَابَاهْ هْرَبْ لُه بَالْفَاسْ ـ أى ان شخصا جاء بفاسه ليعاون يتيما فى حفر قبر والده ولكن اليتيم عمد للفاس فسرقها وهرب بها، ولفظ قبور مفرد فى اللهجة المغربية وان كان على صيغة الجمع وهناك عدة ألفاظ يستعمل جمعها بمعنى المفرد نحو رياض لروضة ويجمع على رياضات واعلام لعلم ويجمع على اعلامات وآفات لآفة ويجمع على آفاتات وجنان لجنة ويجمع على جنانات واخبار لخبر ويجمع على اخبارات ، وقبور لقبر ويجمع على مقابر، واحواض لحوض ويجمع على احواضات ـ وهذا المثل يقابله المثل المصرى : جينا نساعده فى دفن ابوه فات لنا الفاس ومشى ـ يضرب لمن لا يهتم بشؤونه بل ويعرقل مساعى من يسعون فى مساعدته .

36 ـ الجَنَازَة حَامْيَة وَالْمَيِّتْ فَارْ ـ وهو واضح ويقابله من الامثال المصرية الجنازة حارة والميت كلب (973) يضرب في الاحتفال الكبير والاستعداد العظيم لشيء حقير جدا في حد ذاته .

37 ـ حَتَّى اكَلْ وَاتْكَى عَادْ قَالْ خُبْزْكُمْ مَا فِيهْ مَسْكَة ـ والمعنى انه حتى اكل واتكأ إذاك فقط صرح بقوله : ان خبزكم ليس فيه مصطكى، ويقابله من امثال تيمور : «بعد ما اكل واتكى قال ده ريحته مستكى» (794) وشرحه المؤلف بقوله : والمسكتي... المصطكى وهو علك رومى معروف طيب الرائحة، أى بعد ان امتلأ شبعا وانقضت شهوته من الطعام أخذ يظهر عيوبه ويدعى ان رائحته لا توافقه «ويظهر لى ان هذا التاويل لا يتفق مع ما ذكر من ان المصطكى طيب الرائحة خصوصا وانه لم يقل إن هذه الرائحة لا توافقه وكونه طيب الرائحة لذلك يجعل في الخبز عند عجنه اذا أريد اصلاحه كل الاصلاح، لذلك في مثلنا نرى الآكل يعيب خبز مضيفه بكونه لا مصطكى فيه ولكنه لم يقل ذلك حتى انتهى من الاكل، ومثله المثل السلوى : «حتى شبع صالح عاد قال عشاكم مالح»، يضرب في الذى يستغل خيرات غيره ويقضى منها وطره ثم يعيبها حتى يقلل من قيمتها.

38 ـ حَتَّى قَطّ مَا تَايْهَرَّبْ مَنْ دَارْ الْعَرْسْ ـ المعنى واضح ويقابله المثل المصرى «القطة ما تهربش من بيت الفرح» (2260) والفرح بمعنى العرس ويستعمل عندنا كذلك بهذا المعنى. ويضرب عندنا للشخص الذى ينتقد عليه انه فارق خدمة او عملا فيقول لو كنت وجدت ما ابتغيه في ذلك العمل لما فارقته وهل رأيتم قطا يهرب من منزل يحتفل فيه بعرس حيث تكثر الخيرات والمآكل التى يحصل له منها نصيب، اما احمد تيمور فقد قال : «يضرب لمن يحمله الطمع على لزوم مكان فيه غنم غير مبال بالطرد والاهانة» ـ وان كان الامر هكذا فهذا مثال لمثلين اتحدت الفاظهما تماما ولكنهما يستعملان في اطلاقين مختلفين بل متضادين لاننا نستعمله في من يفارق منزل العرس وبمصر في من يلزمه ولا يغادره .

39 ــ حَجّ وْحَاجَة وْتَقَرُّبْ لله ــ يقابله المثل المصرى «حاجة وحاجة» (1028) وعرب ناحية يتزر بالمغرب يقولون : حاجة وزيارة، ويضرب فى الانسان ينتهز فرصة القيام بواجب من الواجبات ليقضى فى نفس الوقت اغراضه الشخصية ومع ذلك فانه لا يستعمل عندنا فى معرض الذم وانما لتقرير الواقع بل ربما احيانا للحث على انتهاز الفرص فى ما هو طيب حلال، اما بمصر فقد اوله احمد تيمور رحمه الله بقوله : «يضرب لمن يتوسل بأمر يتظاهر به لقضاء غرض آخر لا علاقة به»، وفى نجد : حج بقضيان حاجه (177) .

40 ــ الحُرّ بَالْغَمْزَة وَالْعَبْدْ بَالْدَّبْزَة ــ الدبزة هى ضربة باليد مجموعة ويقابله من الامثال المصرية : «العاقل من غمزة والجاهل من رفصه» (1845) والمثل المغربى اقرب للبيت العربى المشهور :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الاشارة

والغمزة هى الاشارة بالعين، وعرب ناحية يتزر يقولون الحر بالغمزة والحمار بالدبزة، وفى نجد : الحر تكفيه الاشارة (183) .

41 ــ حَسَّنْ لِي بَالطَّبَّالِينْ ــ اى احلق لحيتى بكيفية علنية يشهرها الطبالون، يقول هذا من يعاند شخصا فى شيء ويدعى انه قادر على القيام بعمل او على دفعه وان لم ينجز ما يقول يمكن حلق لحيته وهى كانت علامة الرجولة ومن حلقت لحيته فيعتبر كانه امرأة، ويزيدون بمكناس والغياطين، ويقابل هذا المثل ما ورد فى قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية لاحمد أمين رحمه الله ص 426 احلق شنبى لو حصل ده، والشنب هو شعر الشارب وشرحه المؤلف بقوله : «حلق الشنب كناية عن ان يكون امرأة لا شنب لها، اى اذا حصل هذا فانا امرأة لا رجل .

42 ــ الْحَيُوطْ بْوَذْنِيهَا ــ أى للحيطان آذان وهي مبالغة فى وجوب التكتم وعدم افشاء الاخبار التى يراد حفظها، ويقابله المثل المصرى : الحيطة لها وذان (1109) .

43 ـ خَالَفْ تَعْرَافْ ـ يقابله المثل المصرى : خالف تعرف (2118) ومعناه واضح ويضرب للتنديد بمن يخرجون عن الاحوال المعتادة لا لشيء الا للظهور والتميز وإلفات الانظار، وفى نجد : خالف تذكر (207).

44 ـ الْخِيرْ مَا عْمَلْتَه وَالشَّرْ مَتَايَنْ ـ وهو نفس المثل المصرى : خير ما عملنا والشر جانا منين (1198) وهو مبالغة فى اعتقاد ان الانسان مجبول على مقابلة من يحسن اليه بالاساءة حتى انك اذا أردت أن تنجو من الوقوع فى الشر فلا تحسن الى أحد ولا تعمل خيرا أبدا ـ ويقول عرب ناحية يترز : ما تدير حسنة ما ترى شر .

45 ـ دْمُوعْ الْفَاجْرَاتْ حَاضْرَاتْ ـ وهو نفس المثل المصرى : دموع الفواجر حواضر (1239) والمعنى ان المخادع الذى لا ذمة له يسهل عليه ان يظهر بالمظهر المؤثر فى من يريد خداعه .

46 ـ دُودُه مَنْ عُودُه ـ ويقصدون بذلك الدود الصغير الذى يكون احيانا داخل بعض الفواكه كالتفاح والاجاص وكأنه من أصل عود الشجرة وليس اجنبيا عنها ويقابله من الامثال المصرية : دود المش منه فيه (1251) والمش عندهم الجبن القديم ويكون فيه عادة دود صغير، ويضرب هذا المثل فى الاقارب الذين يسعون فى ضرر بعضهم وهم منهم واليهم كما يضر الدود بالتفاحة وهو منها .

47 ـ دِى تَخْدْمُه طِيعُه، وْدِى تْرَهْنُه بِيعُه، ودى تْعَيَّطْ لُه اجْرِيهْ ـ أى من تخدمه اطعه وما ترهنه بعه وما تقضيه بالنداء على من يقوم لك به سر له بنفسك وهى حكم واضحة المعنى وتقابلها ثلاث حكم مثلها فى الامثال المصرية الا انها مرتبة ترتيبا معكوسا وهى قولهم : اللِّى بدَّك تقضيه امضيه، واللِّى بدك ترهنه بِيعه، واللِّى بدك تخدمه طيعه (246) «واللِّى بدك» معناها ما تريد واصلها بودك .

48 ـ دى خْرَتْ الْجْمَلْ دَكُّه ـ يقابله : زى الجمل اللى بحر... (1399) اى يفسده ـ ولا شك ان الذين وضعوا هذا المثل ممن ليس عندهم

ابل ولا يستعملونها للجر وقد كنت وانا صغير اظن عند سماع هذا المثل ان الجمل لا يصلح للحرث وانه ان عمد احمق الى استعماله لذلك فانه لا يستفيد منه شيئا وذلك ان ناحية فاس بلدى ليس بها ابل ولما زرت لاول مرة ناحية تادلة بوسط المغرب وهى من اخصب الاقاليم ويكون انتاجها من القمح والشعير فى السنين الممطرة اعظم انتاج رأيتهم يستعملون الابل فى الحرث فتعجبت من ذلك وعلمت ان المثل يجب ان لا يوخذ بمعناه الظاهرى اللفظى، وهو يضرب لمن يتعب فى القيام بعمل ثم يفسده بنفسه لجهله .

49 ـ دى كَايَشْطَحْ مَا كَايْغَطِّى وَجْهُه ـ يقابله : اللّى يْزَمَّرْ مَا يْغَطِّيش دَقْنُه (465) ويشطح قدمنا انه يرقص، يضرب فى ان من يضطر للقيام بعمل يقتضى اشياء ربما كانت لا تعجبه او لا تناسب فليس عليه من عيب ان يأتيها .

50 ـ ديما للّورا بْحَال بُولْةْ الجْمَلْ ـ اى دائما الى وراء مثل بولة الجمل ويقابله : زَىْ شْخَاخْ الجمال تَمَلّى لورا (1444) شخاخ معناه بول وتملّى دائما . يضرب مثلا لمن تكون حالته سائرة من سىء الى أسوأ فهو دائما يتراجع ويتأخر .

51 ـ ارْبطْ حْمَارَكْ مَعَ الحْمِيرْ يْتعَلَّمْ الشّهِيقْ اَوْ النّهِيقْ، اَوْ خَرْجَانْ الطريق ـ والمعنى واضح ويقابله من الامثال المصرية : ربط الحمار جنب رفيقه ان ما تعلم من شهيقه يتعلم من نهيقه (100) ـ ولا يزيدون الخروج عن الطريق كما هى عادة الحمير ويستعمل فى معرض مخالطة قرناء السوء وان الرفيق يؤثر على مرافقه خصوصا فى الشر .

52 ـ طْرِيقْ السّلَامَةْ وَلُو دَارَتْ ـ اى عليك بالطريق المأمونة التى لا تخشى ان يصيبك فيها شىء ولو اضطررت لترك الطريق القصيرة اذا كانت محفوفة بالمخاطر. ويقابله المثل المصرى : الجادة ولو طالت (925) والمعنى واحد فى المثلين ولو كان يظهر بينهما تناقض. وهو الحث على

اتباع الطرق الواضحة التي يسلم فيها الانسان من العثار او الوقوع في المهالك. وفي نجد : عليك بالجادة ولو طالت وبنت العم ولو بارت (483) .

53 — كَايْقْرَا الْبْرَاة مَنْ ظْهَرْهَا — البراة الرسالة وهي البراءة ومن ظهرها اي مما كتب في عنوانها ويقابله المثل المصري : الجواب ينقرى من عنوانه (979) — الا اننا نضربه للشخص الذكي الذي يستطيع ان يستدل على الاشياء من ظواهرها ويستكنه حقيقتها من بعض ملابساتها. واما بمصر فانه يضرب الاشياء التي يدل ظاهرها على باطنها ونحن نقول في هذا المعنى علامة الدار على باب الدار .

54 — كَايْشَيّْشْ الدّْبّانْ — أي يطرد الذباب ومثله المثل المصري : قاعد ينش (2145) وهو كناية عن البطالة والفراغ واذا استعمل بالنسبة للتجار اصحاب الدكاكين الصغيرة فيعني به الكساد .

55 — الْكْلَامْ لِلسّارْيَة وَالْمَعْنَى لِلْجَارْيَة . السارية هي العمود من الفصيح والمعنى واضح ويقابله من الامثال المصرية : الكلام لكي ياجارة وانت حمارة (2428) واصله المثل العربي اياكِ اعني واسمعي يا جارة .

56 — كُلْ بْشَهْوتَكْ وَالْبَسْ بْشَهْوَةْ النّاسْ — المعنى واضح ويقابه قول المصريين: كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس (2402) وهو نصيحة اذا عمم معناها صار ان ما تفعله ولا يعود نفعه او ضرره الا عليك فتصرف فيه كما تشاء واما ما يمكن ان يعود نفعه الى غيرك او يمسه بضرر فلا تتصرف فيه بنظرك بل راع فيه مصلحة غيرك.

57 — كُلْ تُوخِيرَة فِيهَا خِيرَة — مثله : كل تاخيرة وفيها خيرة (2356) والمعنى ان التأني ممدوح وانه لا ينتج عنه الا الخير. وكثيرا ما يستعمل هذا المثل في التأسي عند فوات بعض الحاجات.

58 — كُلْ خَنْفُوسْ عَنْدْ أُمّهْ عْرُوسْ — وهو مثل مكناسي يقابله من الامثال المصرية الخنفسة عند أمها عروسة (1184) والمعنى واضح وهو ان محبة الآباء للابناء تجعل الولد كيف ما كان في اعين والديه جميلا .

59 ـ كُلّ طْوِيلْ خَاوِي غِيرْ النّخْلَة وَالْمَغْرَاوِي ـ والمغراوى هذا هو سيدى عبد العزيز المغراوى من اهل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر) وكان من كبار شعرء الملحون اى الازجال واصله من سجلماسة المسماة اليوم تافلالت. ولا شك ان المثل كذلك اصله من هذه الناحية التى يكثر فيها النخيل ويجود فيها التمر. ويقابل هذا المثل قول المصريين : الطويل اهبل ولو كان حكيم (1822) وأهل نجد يقولون : الطُّولْ طُولْ النَّخْلَة والعَقَلْ عقل الصخلة (435) (أى السخلة وهى الصغيرة من الغنم) . وبما انه توجد كذلك امثال فى ذم القصار فلا شك ان المقصود ليس هو الطول ولا القصر وانما يريدون بذلك مدح الاعتدال فى كل شيء وذم الافراط والتفريط .

60 ـ كُلّ مَا زَمّرْنَا لله ـ أى كل الاعمال التى عملناها كانت بدون جدوى ولا طائل تحتها ويقابله من الامثال المصرية : اللّى زَمّرْنَا رَاحْ لله (2296)

61 ـ كُلّ فُولَة خَامْجَة كَايْجِيبْ لْهَا الله فَرُّوجْ اعْوَرْ ـ اى كل فولة متعفنة يأتى لها الله بديك اعور فيأخذها. والحكمة فى عوره انه لا يتبين حالتها. ويقابله من امثال مصر: كل فولة ولها كيال (2391) قال تيمور: وقد يزيدون فيه اعور.. ومن يزيد لفظ اعور عليه فلابد له من ان يزيد لفظ مسوسة بعد فولة وهو المناسب والاوفق للمعنى كما فى المثل المغربى وقد تنبه لذلك تيمور حيث قال : «والظاهر انه كان كذلك فاختصره بعضهم ولم ينظر للمعنى. «ويضرب فى ان الله تبارك وتعالى لا يستثنى احدا من فضله ويعطى لكل أحد على قدره

62 ـ كُلّ شِيء اغْرَسْه يَنْفَعَكْ الاّ ابْنَادَمْ اغْرَسْه يَقْلَعَكْ ـ واضح ويقابله من الامثال المصرية ازرع ابن آدم يقلعك (112) وانظر المثل الذى أوردناه تحت عدد 2 من هذا البحث .

63 ـ كِيدْ النّسَا كِيدْ بَنْ كِيدْ : كِيدْ الرّجَالْ غِيرْ كِيدْ، وهو مثال رباطى ومعناه ان كيد النساء كيد متأصل فهو يفوق كيد الرجال. وهذا ما

يعبر عنه المثل المصرى : كيد النساء غلب كيد الرجال (2467) ولسيدى عبد الرحمن المجذوب فى اقواله المشهورة وهو من أكابر الاولياء كان حيا فى القرن العاشر الهجرى وضريحه بمكناس قال رحمه الله :

كِيدَ النّسَا كِيدْ وَمَنْ كِيدْهُمْ جِيتْ هَارَبْ

يَحَزْمُوا بَالْحَنُوشَة وِيَتْخَلّلُوا بَالْعَقَارَبْ

البيت الاول واضح والثانى معناه انهن يتمنطقن بالافاعى ويتخذن العقارب لربط ازرهن .

64 ـ لَا دُنْيَا لَا اخْرَى بْحَالْ مَزْلُوطْ الْيهُودْ ـ والْمَزْلُوطْ هو المفلس المدقع . يقابله المثل المصرى : زى فقرا اليهود لا دنيا ولا اخرى (1492)

65 ـ لَا شْفَايَة فِى الْمُوتْ يَا الْعْدَى ! مَنْ لَا مَاتْ الْيُومْ يْمُوتْ غَدًا ـ أى لا شماتة فى الموت ايها الاعداء فان من لم يمت اليوم سيموت غدا. ويقابله من الامثال المصرية : اللى ما يموت اليوم يموت بكرة (392) .

66 ـ اللّحَمْ إلَا خْنَزْ كَايَرْفَدُوهْ مَّالِيهْ ـ أى اللحم اذا انتن يرفعه اصحابه وهو فى الامثال المصرية العضمة النتنة لاهلها (1909) قال تيمور : «ويرويه بعضهم اللحم ان نتن له اهله» وهى نفس العبارة المغربية والمراد ان من حلت به مصيبة من إفلاس او فضيحة فلا يفكه الا اهله.

67 ـ مَا كَايَمْشى عْلَى كَرْشُه غِيرْ الْحَنَشْ ـ أى لا يمشى على بطنه (وفيه تورية أى من أجل بطنه) سوى الحنش وفى الامثال المصرية : زى التعابين كل منهو يجرى على بطنه (1392) .

68 ـ مَا كَايْنَة شِى الشَّجْرَة دِى مَا هَزْهَاشِى الرِّيحْ ـ وهو فى الامثال المصرية : كل شجرة الا وهزها الريح (2369) ومعناه ان كل انسان اصابته مصيبة ما، أو وقع له فى صباه انحراف خلقى او ما شابه ذلك.

69 ـ مَا كَايْعَمَّرْ عَيْنْ ابْنَادَمْ غِيرْ التّرَابْ ـ اصله حديث ويقابله فى الامثال المصرية : ما يملا عين ابن آدم الا التراب (2696) وقد اورد تيمور

قبله مثلا آخر في هذا المعنى ولكن بصيغة اخرى هي : جفن العين جراب ما يملاه الا التراب (963) . وهو يضرب في شره الانسان وعدم قناعته وانه «لا يملأ عينه» أي لا يكفيه شيء مما يحصل عليه ويستصغره حتى يموت ويقبر واذاك يملأ عينه التراب .

70 ــ ما كايولد الفَارْ غيرْ الْحَفَّار ــ يقابله بَنْتْ الفَارَة حَفَّارَة (832) اورده احمد امين كذلك في قاموسه ص (65) . ومعناه ان للوراثة والبيئة أثرا كبيرا في الطبائع وهو يستعمل عندنا خصوصا في معرض الذم لمن ورث عن آبائه اخلاقا سيئة .

71 ــ مَالِينْ الدَّارْ صَبْروا وْالْمعَزِّيينْ كَفْرُوا ــ أي اهل المنزل صبروا والمعزون اضاعوا وعيهم كمن يكفر بالله لشدة المهم ، ويقابله من الامثال المصرية : اهل الميت سكتوا والمعزيين كفروا (683) قال تيمور : «وفي رواية أهل الميت صبروا الخ» وهي الرواية المغربية وهي انسب للشجعة ويضرب مثلا للمنافقين والمتملقين والذين يتعصبون لافكار وقضايا ليست افكارهم ولا قضاياهم وانما يفعلون ذلك توصلا لقضاء اغراضهم الشخصية .

72 ــ مَالِينْ الْعقُولْ في رَاحَة ــ يقابله تماما من الامثال المصرية : أصحاب العقول في راحة (137) ومعناه ان العقلاء الذين يعرفون كيف يتصرفون في شؤون الدنيا والذين يعرفون أسباب الاشياء ومقتضياتها فلا يفاجئون بشيء يعيشون في راحة بال . ولا يعارضه ما يرد في امثال أخرى من نحو قولهم : مَا فِي الْهَمّ غيرْ الّي تَايفهمْ . فهذا وجه آخر من الحقيقة وذلك أن الجاهل أو الغبي لا يقدر عواقب الامور الضارة فلا يهتم لها بخلاف الذي له من الذكاء والفهم ما يجعله يحسب لكل شيء حسابه فانه يهتم ويتالم .

73 ــ مَاشي بْحَالْ دْخُول الْحَمَّامْ بْحَالْ خْرُوجُه ــ يقابله من الامثال المصرية : دخول الحمام موش زي طلوعه (1219) وذلك أن الدخول سهل

من سائر الوجوه فهو لا يحتاج الى دفع اجرة ولا الى تحفظ ليلا يتعرض الانسان للبرد وتيارات الهواء ولا الى استراحة بعد مشقة الغسل بالماء الحار في جو حار . ويضرب مثلا للصعوبات التي تعترض من يقدم على شيء سهل في اوائله ولكنه صعب في عواقبه .

74 ـ مْحَبَّةْ الدّجَاجَة بْلَا بْزَازَلْ ـ اى حنان الدجاجة بدون اثداء . ومفرد بزازل بزولة اى الثدى يقابله من الامثال المصرية : زى الوز حنية بلا بز (1552) يضرب لمن يظهر العطف والرافة ولكن لا يساعد بعطائه.

75 ـ مْنَايَنْ كَاتْطِيحْ الْبَقْرَة كَايْقَوْا سْكَاكْنْهَا ـ اى عند ما تسقط البقرة تكثر السكاكين المعدة لتقطيع لحمها ويقابله تماما من الامثال المصرية : ان وقعت البقرة تكثر سكاكينها (675) وكرره تحت عدد 2542 هكذا : لما تقع البقرة تكثر سكاكينها. ويضرب. مثلا للشخص عند ما يكون فى عزه وقوته لا يجرؤ احد على ذمه او التشهير به فاذا هو حلت به مصيبة تالب عليه من كانوا يخشونه وسعوا فى اذايته والحاق الضرر به.

76 ـ مَنْ طَاقْ طَاقْ حَتَّى لَلسّلَامْ عْلَيْكُمْ ـ هو نفسه هكذا : من طقطق للسلام عليكم (2837) اى منذ قرع باب الدار للاستئذان فى الدخول الى مفارقة اهل المنزل ـ يضرب لمن حضر على مسالة او حكى امرا من بدايته الى نهايته، ويستعمل عندنا كذلك بمعنى ان الاستعدادات تامة جاهزة كلها من أولها الى آخرها.

77 ـ مَنْ بَعْدْ رَاسِي لَا اخْضَارَتْ ـ أى اذا غبت انا فلا نزل المطر ولا نبت العشب ويقابله من الامثال المصرية : «بعد راسى ما طلعت شمس (789) وهو كناية عن الانانية المحضة ويستعمل اليوم لهذا المعنى ترجمة مثل فرنسي هي قولهم من بعدى الطوفان .

ومثله شطر البيت المشهور : اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

78 ـ انْفَقْ مَا فِي الْجِيبْ يَاتِيكْ مَا فِي الْغِيبْ ـ واضح ويقابله من الامثال المصرية : اصرف ما فى الجيب ياتيك ما فى الغيب (138) ويضرب

للحث على الكرم والتوسيع على العائلة. وفي نجد انفق ما بالجيب ياتي ما بالغيب (100) .

79 ــ صَامْ عَامْ وَافْطَرْ عْلَى جْرَادَة ــ واضح ويقابله من الامثال المصرية: صام وفطر على بصلة (1722) والمثل المصرى ناقص لان المقصود ليس مجرد الصيام وانما الانقطاع عن الاكل مدة طويلة تبرر ان يكون الافطار على شيء شهي مغذ. ويظهر ان اختصاره وقع ممن لا يتذوق المعنى لان هذا المثل كما قاله تيمور» نفسه عند ايراده قديم فى العامية ذكره الابشيهى فى المستطرف هكذا : «صام سنة وافطر على بصلة ويضرب فى الشخص يتكبد المشاق فى سبيل غاية ولكن النتائج التى يحصل عليها تكون تافهة لم تكن لتستدعى كل تلك المتاعب.

80 ــ صُدْقَة خِيرْ مَنْ مِيعَادْ ــ واضح. ويقابله من الامثال المصرية : كل صدفة خير من ميعاد (2385) ويظهر لى ان كل هنا تفسد المعنى لانه فى الواقع ليست كل صدفة صدفة احسن من كل موعد وانما كثيرا ما تكون المصادفة أفيد من الاتصالات التى تنتج عن ضرب المواعد.

81 ــ قال له : الصَّلاَةْ خِيرٌ من النَّوْمْ . قال له : حَتَّى النُّعَاسْ مَا عَنْدَكْ مَا تْقُولْ فِيهْ. اى حتى النوم ليس فيه ما يمكنك ان تنتقده. ويقابله من الامثال المصرية : الصلاة اخير من النوم . قال جربنا ده وجربنا ده (1738) وهو يضرب فى الامرين يفضل احدهما على الآخر، مع ان لكل احد منهما مزايا. وفى نجد يقولون : الصلاة خير من النوم (402) انما يستعملونه كناية عن الشيء الواضح بعكس مضربه عند المغاربة والمصريين .

82 ــ الضَّحْكْ بْلاَ عْجَبْ مَنْ قَلَّةْ الْحَسَبْ، اى الضحك من شيء لا عجب فيه يمكن ان يثير الضحك دليل على سوء الادب وقلة الحسب ــ يقابله المثل المصرى . ضحك من غير سبب قلة أدب (1753)

83 ــ الضَّرْبْ بَالطُّوبْ وْلاَ الْهْرُوبْ ــ ويقابله المثل المصرى ضرب الطوب ولا الهروب (1759) وتقدم له قبل ذلك بهذه العبارة «الزقل بالطوب

ولا الهروب» (1355) والزقل عندهم هو الرمي وفيه حث على الشجاعة وعدم الصبر على الاهانة.

84 — ضَرْبَةٌ فِي الْوَجْهْ وْلَا غَشَّةْ فِي الْقَلْبْ — اى الصراحة افضل من الكيد ويقابله عند المصريين ما ورد في قاموس احمد امين وهو قل له في وشه ولا تغشه (ص 461) والوش عندهم هو الوجه .

85 — ضْرَبْنِي وْبْكَى وْسْبَقْنِي وْشْكَى — مثله بالضبط في الامثال المصرية ، ضرب وبكى وسبق واشتكى (1760) وكذلك في امثال نجد : ضربني وبكى وسبقني شكى (414) وهو يضرب مثلا للظالم المعتدى لا تكون له من القوة ما يسند به ذلك الظلم فيتخذ وسائل للظهور بمظهر المظلوم.

86 — الْعَرْيَانْ فِي الْقَافْلَةْ قَلْبُهْ مْسَامَلْ — مسامل معناه مستأمل اى مطمئن، ويقابله من الامثال المصرية العريان في القفلة مرتاح (1891) يقول هذا المثل من يرى غيره يحسب الف حساب خوفا على ماله او منصبه ويكون هو ليس له ما يخاف عليه من الضياع فلا يكترث لما عسى ان يحل به كالمسافر في قافلة وهو فقير ولا يحمل معه شيئا فاذا تعرض اللصوص للقافلة لا يخشى أن يصيبه مكروه، فهو دائما في راحة بال.

87 — عْلَى رَاسْ لْسَانِي وْلَا تْنْسَانِي — يقابله من الامثال المصرية، على لساني ولا تنساني (1947) وهو واضح ويضرب في ان الذى يهم في سلوك الناس مع بعضهم ليس ما يتحفك به صديقك او قريبك من الهدايا الثمينة وانما مجرد الالتفات ولو باعطائك من طعام ما تذوقه بلسانك فالعبرة بكونه فكر فيك واهتم بموادتك لا بما اعطاك .

88 — عْلَى مَا احْتَالَتْ الْعَمْشَا فْرَقْ سُوقْ الْغْزَلْ — احتالت اى استعدت ويقابله من الامثال المصرية على ما تتكحل العمشة يكون السوق خرب (1938) وسوق الغزل بالمغرب يعقد في الصباح المبكر اى في الفجر وتبيع فيه النساء الصوف المغزول، ويضرب عندنا للكسول بطيء الحركة

الذى لا يستعد للاشياء المهمة فى وقتها اما حسب أحمد تيمور رحمه الله فانه يضرب فى مصر «للسيء الحظ لا يفارقه حظه فى كل ما يحاول .

89 ـ عْلَى مَنْ كَاتَقْرا زَابُورَكْ يَا دَاوُدْ ، يقابله المثل المصرى تقرا مزاميرك على مين يا داود (899) قال تيمور ويروى (زبورك) بدل مزاميرك «وأنت ترى انها الرواية المغربية ويضرب للذين لا ينتصحون ولا يلتفتون لما يلقى عليهم من الموعظة .

90 ـ عمرْ كَرْشكْ بالتّبنْ، وادهَنْ فمكْ بالسّمنْ، وَدوزْ عْلَى عْدوكْ مْصَبّنْ . اى امـلاْ بطنـك تبنـا (والمقصود كل أرخص المـآكل) وادهن فمك بالسمن لتوهم انك تناولت فى طعامك منه شيئـا كثيرا حتى بقي أثره على فمك ـ ومر أمام عدوك بملابس نظيفة بيضاء ، واهل مكناس يكتفون بقولهم دوز علـى عدوك جيعان لا تدوز عليـه عريان وهو الذى يقابل المثل المصرى فى معناه ولفظه : امشى علـى عدوك جيعـان ولا تمشى عليه عريان (533) والمعنى فـى هـذه الصيـغ كلها انك بمظهرك الخارجى الذى يدل على عدم احتياجك يمكنك ان تخفى علـى عـدوك حقيقـة أمرك فيها بك او بالاقل لا يحتقرك ـ وفى نجد : مر على عدوك مكتسى ولا تمر عليه شبعان (811).

91 ـ عنْـدْ الكْـرُوش كَاتفهـى العْقُولْ ـ كـاتفهى معناه : تذهل وتندهش، ويقابله مـن الامثـال المصرية عند البطون تضيع العقول (1975) ، ويقال كذلك بفاس : عنـدْ البْطُونْ كَاتسهـى العْقُولْ ـ أى تنسى كـل شيء وبمكناس وسلا يقولون : كاتزهى اى يحصل لها زهو وانشراح وليس هذا هو المقصود ويظهر لى ان لفظة فهـى لم تفهم فجعل عوضها زهى، ويضرب مثلا لقيمـة الطعـام فى بعض الاوساط وعند بعـض الناس، حتـى يجعلهم الاقبال على الاكل يذهلـون عن كل شيء سواه ويتحملون فى سبيل التمتع بالمآكل ان يتصرفوا فى اقوالهم وافعالهم تصرفات لا يقرها العقل والصواب وبنجد يقولون : «عند البطون تذهل العقول (490) .

92 ـ عَنْدُه سَبْعْ ارواح بْحَالْ القط ـ يقابله من الامثال المصرية : زى القطط بسبع ترواح (والمراد بسبعة ارواح) (1503) يضرب مثلا للشخص الذى لا يرجو له أحد نجاة من مرض، ولكنه يفلت من كل ما يصيبه، فيشبهونه بالقطط التى ينسبون لها عدة ارواح بمعنى انها يصيبها ما يقتل غيرها من الحيوانـات فـلا يضرها، كالسقوط من اعلى السطح الى الارض بدون ان تنكسر او يقع لها ادنى ضرر وهكذا.

93 ـ عَيْنْ مَا رَاتْ قَلْب لا وْجَعْ ـ يقابله من الامثال المصرية : «عين ما تنظر قلب ما يحـزن (2025) ـ ويضـرب تسلية عن النفس عند ما ترى غيرك يتحسر على فقدان مباهج وملذات تمتع بهـا حينا ثم جار عليه الزمان فأفقده اياها، فيحمد الله من لم يذق شيئا ويقول ليس لقلبى ان يتوجع ولا لنفسى ان تحزن لشىء لم تره عينى من قبل .

94 ـ عِينِـي فِيهْ مَا قَدِّيـتْ عْلِيـهْ ـ قَدِّيتْ : قدرت، ويقابله المثل المصرى : عينا فيه وتقول اخيه (2026) وَاخيهْ معناه انه يشمئز منه وانه كريه الرائحـة كما نقـول فى اللهجة المغربية إيخْ منهُ، ومعنى هذا المثل ان الطعام الفلانى اشتهيه ولكننى اظهر التأفـف والاشمئـزاز منه ويضرب لكل شىء توده نفســه وهـى حريصة عليه ولكن لاسباب مختلفة لا تقدم على المطالبة به بل تظهر عكس ما تبطن من محبته والرغبة فيه بالتعبير عن كراهيتها له والاشمئزاز منه .

95 ـ غَدًّا نَسْقِيكْ يَا الْكَامُونْ ـ أى غدا اسقيك ايها الكمون، ومثله المثل المصرى : بالوعد اسقيك ياكمون (841) ويضرب مثلا للتسويف وارجاء ما يجب فعله اليوم الى الغد، وصل هذا المثل أن الكمون لا يحتاج الى كثير سقى فيستعد الزارع لسقيـه ثم تصده مشـاغل اخرى عن ذلك فيقول غدا اسقيه وهكذا حتى تمر ايام وهو لا ينفذ ما اعتزمه .

96 ـ الْفَارْ الْمَقَلَّقْ مَـنْ سَعْـدْ الـقَطّ ـ الْمقلق معناه المتهور الذى يتسارع الى عمـل شىء ولا يتأنى وفيه عجلة، ويقابله من الامثال المصرية : الفار المدفلق من نصيب القط (2083) ويضرب مثلا لذم التهور وعدم الاناة .

97 ــ فَايْنَ يِمَّاكْ يَا جْحَا ؟ مْشَاتْ تْصَبَّنْ مْعَ النَّاسْ وْدْيَالْهَا كْرَاتْ عْلِيهْ معناه أين والدتك يا جحا ؟ ذهبت تساعد غيرها في غسل ثيابهم واستأجرت من يغسل لها ثيابها، يقابله من الامثال المصرية : قالوا يا جحا فين مراتك ؟ قال : بتطحن بالكرا ــ وطحينك ؟ قال : كريت عليه، قالوا : كنت خلي مراتك تطحنه (2198) ويلاحظ ان حكايات جحا عندنا لا تتعرض قط لامرأته وانما لوالدته، ويضرب مثلا لمن يهتم بشؤون الناس ويتهاون في شؤونه الخاصة.

98 ــ فَلْسْ فِي الْكَفّْ وْلَا عَشْرَةْ فِي التّْلَفْ ــ الفلس معروف وقد كان يطلق في النظام النقدي بالمغرب على اصغر قطعة وجمعه فلوس يطلق الى الآن على الدراهم والمال، ويقابله من الامثال المصرية : جرادة في الكف ولا الف في الهوا (956) ويضرب لتفضيل القليل الحاصل على الكثير الموعود به ولذي ربما يحصل وربما لا يحصل، ويقولون بنجد : جرادة بيدي ولا عشرة طيارة، والمثل المصري فيه مبالغة كبيرة .

99 ــ الْفَمّْ الْمَسْدُودْ مَا تَدْخُلْ لُهْ دَبَّانَةْ ــ الفم المقفل لا تدخله ذبابة، ويقابله من الامثال المصرية البق المقفول ما يخشوش الدبان (810) البق هو الفم وخش معناه دخل، ويضرب لمدح السكوت وذم كثرة الكلام الذي يجر على الانسان المصائب .

100 ــ قَالْ لُهْ : اشْحَالْ خَمْسَةْ وْخَمْسَةْ ؟ قَالْ لُهْ : عَشْرَةْ دَ الْخُبْزْ يقابله من الامثال المصرية : قالوا للجعان : الواحد في واحد بكام ؟ قال برغيف (2173) والمعنى انه يسأل في المثلين عن عملية مجردة ولكنه لجوعه يجعلها في عد الخبز، ويضرب لاتجاه فكر كل واحد الى ما هو متوقف عليه اوما يهتم به .

101 ــ قَالْ لُهْ الزَّرْدَةْ فِي بَغْدَادْ، قَالْ لُهْ : قْرِيبَةْ إلَا تُوجَدْ ــ أي اذا كانت موجودة والزردة هي وليمة كبيرة فيها طعام كثير، ويقابله من الامثال

المصرية : غدوه فــي الصعيــد ما هيــاش بعيد (2043) والغدوة عندهم اكلة الظهر ـ يضــرب لاستسهــال المصاعب فى سبيل شىء تميــل اليه النفس وتشتهيــه .

102 ـ قال له : اشْنُــه صَنعة اباك ؟ قال له تفــار ، قال له : الحَمْدُ لله عْلَى رَمضــان تقاضى ـ معنــاه قال له : ما صنعة والدك ؟ قال له: تفار، قال له : نحمد الله على كون رمضــان انتهى ـ وذلك ان فى رمضان بالمغرب يقوم النفارون والغياطـون بتانيس الناس فى الليل من اعلى مآذن المساجد، ويقابله من الامثــال المصريــة : عملــوك مسحر، قال : فرغ رمضان (1966) والمسحر هو الذى يوقظ الناس لتناول طعــام السحــور ونسميه فى المغرب الدقــاق ـ يضرب مثلا عندنا فى من يكون يفتخر باشياء لا تدوم وإنما تكون لاوقات معينة أو لظروف خاصة، أما بمصر فيضرب حسب تيمور لسىء الحظ

103 ـ قــال لــه : فاينْ وَذْنَكْ آجْحَا ؟ قالْ له : هَا ... هِيَ ـ وعند ذكر هــذا المثــل يشير المتلفظ به الى اذنه اليسرى يرفع يده اليمنى على راسه وكان فى متناولــه ان يشير الى اذنه اليمنى وهى اقرب اليه ويقابله من الامثال المصرية ما ورد فى قاموس العادات والتقاليــد والتعابير المصرية لاحمد امين ص 475 وهو ودنك منين ؟ قال من هنا ـ يضرب مثلا لمن يستعمل طرقا ملتوية بعيدة للوصول الى غايات سهلة متناولها قريب، ويقولون بنجد، قال : وين اذنك يا حبشى ؟ قال : من هنا (537) .

104 ـ قَــدُه قــدّ الفُولَــة حسُّه حَسّ الغُولَة ـ مثلٌ من مدينة سلا، ويقابله تماما المثل المصرى : القــد قد الفولــة والحس حس الغولة (2229) يضرب للحقير ياتى من الجلبة وكثرة الهرج ما يلفت اليه الانظار .

105 اقطعْهَا عادَة تعَادَى ـ وبمكناس يقولون : ولَّف عَادَة وَاقطَعْ عَادَة عْليهَا تعَادَى ـ اى اذا عودت شخصا عادة ثم قطعتها عنه يعاديك، ويقابله من الامثال المصرية : قطع الورايد ولا قطع العوايد (2254)

106 ـ اقْلَبْ الْقَدِيرَة عَلَى فَمِيمّتْهَا تَشْبَهْ الْبَنِيتَة لَمِيمّتْهَا ـ أى اقلب القديرة على فميمها تشبه البنية لاميمها، ويقابه من الامثال المصرية : اكفى القدرة على فمها البنت تطلع لامها (208) والمعنى واضح وذلك ان البنت تشبه لامها فى خاتها وخلقهـا لانهـا تربيها على شاكلتها وهى نفسها تشب على تقليد امها لانها تراها المثل الاعلى .

107 ـ سَالْ الْمَجَرَّبْ وَلَا تْسَالْ الطْبِيبْ ـ واضح، ويقابله من الامثال المصرية : اسـال مجرب ولا تسال طبيب (115) وهو تمجيد للتجربة والمبالغة فى تفضيلها علـى المعارف النظرية، واهل نجد يقولون، كل مجرب خير من طبيب (627) .

108 ـ سُبْحَانْ مَنْ اعْرَانَا وْرَخّصْ الصَّابُونْ ـ لما كانت عندنا ملابس وثياب تحتـاج الـى «التصبين» كان الصابون غاليا والآن وقد رخص فقد صرنا فقراء لا نملك ما نشتـرى به الثياب، ويقابله من الامثال المصرية: ربنا ريح العريان من غسيل الصـابون (1297) ويضرب مثلا لمن ليست له حاجات كثيرة فهو لا يهتم بغلاء الاشياء او رخصها فالكل عنده سواء .

109 ـ سَبْـعْ صْنَايَـعْ وَالْـرّزَقْ ضَايَعْ ـ واضح ويقابله من الامثال المصرية : سبع صنع فى اديه والهم جاير عليه (1578) يضرب مثلا لمـن لا يحسن الاستقرار فى حالة او مهنة واحدة حتى يستطيع ان يتفوق فيها وتدر عليه الربح فهو يتنقل من مهنة الى اخرى ولا يدوم على حالة فيصاحبه طبعا الفقر والفاقة.

110 ـ السّرّ فَـي اَلّـي سْكَنْ مَاشِـي فَى الْمَسْكَنْ، واضح ويقابله من الامثـال المصريـة : السر فـى السكان لا فى المكان (1592) والسر فى اللهجة المغربية هو الرونـق والبهاء والطلاوة، يقال ما عْلِيهْ سَرّ ـ اى طلاوة عليه، ويستعمـل هـذا المثـل فى معنى ان العبرة ليست بضخامة المنـازل والاحتفال فى بنائها وتزويقها وزخرفتها وانما العبرة بما هو من شان السكان كالنظافه وحسن الذوق فى اختيار الاثاث وترتيبه وفى النظام الذى يسود

البيت وفي كيفية استقبال اصحاب المنزل للضيوف، فهذه الاشياء هي التي تضفي على المنزل حلة البهاء والرونق ولو كان صغيرا بسيطا في بنائه وزخرفته .

111 ـ شَايِبْ وْعَايَبْ ـ مثله في الامثال المصرية : شايب وعايب (1642) وفي امثال نجد : شايب وعايب (353)، يضرب مثلا للشخص لا تصده سنه وشيخوخته من الوقوع في ما هو معيب مطلقا فاحرى اذا صدر عن شيخ عجوز .

112 ـ الشَّهَرْ اِلْـى مَا تَقْبَـضْ كْـرَاهْ آشْ عْلِيَّتِي فِي حْسَابُه، آش عليتي اي ليس علي ولا يهمني، ومثله من الامثال المصرية: «الشهر اللى مالكش فيه ما تعدش ايامه (1695) وهو نهي عن الفضول والاشتغال بما لا يعود بفائدة .

113 ـ شْوِيَّشْ لْرَبِّي وَشْوِيَّشْ لْقَلْبِي-شويش اي شيء قليل ويقال شوية كما في اللهجة المصرية ويقابله من الامثال المصرية : «ساعة لقلبك وساعة لربك (1570) والمعنى انه ينبغي للانسان ان لا ينسى نصيبه من الدنيا وأن يوزع أوقاته بين واجباته نحو ربه ونحو غيره ونحو نفسه ومن واجبه نحو نفسه أن يرفه عنها بشيء من اللهو المباح .

114 ـ الوْلَـدْ مُولُـودْ وَالرَّجَـلْ مُوجُودْ وَالْخَا مَفْقُودْ ـ الرجل معناه البعل والخا هو الاخ، ويقابله من الامثال المصرية : الجوز موجود والابن مولود والاخ مفقود (987) وذلك أن المرأة اذا فقدت ولدها فيمكنها ان تلد ولداً آخر واذا فقدت بعلها يمكنها ان تتزوج رجلا ثانيا ولكنها اذا فقدت أخاها فلا يمكن تعويضه لان من عادة المرأة المتزوجة التي لها ابناء ان يكون والداها أما قد فارقا الدنيا أو بلغا من السن ما لا يبقى معه إمكان للولادة ويضرب للحث على محبة الاخوة والتعلق بهم لانهم لا يعوضون، وقد اورد أحمد تيمور بمناسبة ذكر هذا المثل حكاية ملخصها ان ملكا قبض شخصا وولده واخا زوجه واراد قتلهم، انما قبل العفو عن واحد منهم تختاره الزوج

وكان يظن انها ستختار ولدها ولكنها اختارت ان يعفى عن اخيها فلما سألها اجابته بالمثل فعند ذلك عفا عنهم جميعا .

115 ـ وَلْدُه فُوقْ رَاسُه وْهُوَ كَايْفَتَّشْ عْلِيهْ ـ ومثله فى الامثال المصرية ابنه على كتفه ويدور عليـه (35) وفـى المثل المغربى يقال كذلك «قفاته» اى على قفاه وهو الاكثر يضرب مثلا لمن يبحث بعيدا عن اشياء قريبة منه لذهوله

116 ـ وَلُـو طَارَتْ مْعَزَة ـ ينسب هذا المثل عندنا لاهل سجلماسة المسماة اليوم تافلالت فى صحراء المغرب الجنوبية الشرقية لما يوصفون به من العناد ويحكى ان احدهم كـان جـالسا مع رفيـق له فشاهدا شيئا يتحرك فى المزرعة بين اعشاب الزرع فقـال تلك عنـزة، فقال له صاحبه : بل تلك حدأة فعانده واصر على انها عنزة، وعند وذلك ارتفع طائر فى السماء فقال من كان يؤكـد انها حدأة : ألا تـرى ما قلت لـك، فأجابه: «ولو طارت فانها ماعزة» ويقابلـه من الامثـال المصرية : «عنزة ولو طـارت» (1983) ويضرب للعناد القوى وعدم الرضوخ للحق ولو كان ظاهرا واضحا .

117 ـ وَصَّـلْ الكَـذَّابْ لْبَابْ الدَّارْ ـ واضح ويقابله : اتبع الكداب لحد باب الدار (50) وقال تيمور فى معناه « لا تكذبه حتى يكذبه الواقع» والمعنى عندنا : سايره حتى توقفه بالحجة على كذبه .

118 ـ الْيَدْ اَلّى مَا تَقْدَرْ عْلَى قْطِيعْهَا بُوسْهَا ـ واضح ويقابله بالحرف الايد اللّي ما تقدر قطعها بوسها (702) والمعنى أنك اذا واجهت ظالما لا تستطيع صد ظلمه عنك لانه اقوى منك فخير لك ان تجامله وتعامله بالصبر واللين

119 ـ يَدَّكْ مَنَّكْ وَلُو تْكُونْ مْجَدَامَة ـ ويقابله : انفك منك ولو كان اجـدم وصباعـك صباعـك ولو كان اقطم يضرب مثلا فى انه يجب حفظ ود من كان منتميا اليك بقرابة او نحـوها ولو كانـت له مساوىء من شأنها ان تجعلك تبتعد عنـه وتقطع علائقك به وذلك كمن اصاب الجذام احد اعضائه فانه لا يقطعه وانما يحاول معالجته ويصبر على اذاه .

120 ـ يَدُّه خْفِيفَة ـ مثلـه بالضبط فى قاموس احمد امين : ايده خفيفة ص 430 وهى كناية عن كونه نَشّالاً وسارقا بارعا.

120 ـ يَـدْ وَاحْـدَة مَا تْكَفْكَـفْ ـ كذلـك يقال بمصر : ايد واحدة مـا تسقفش (703) وتسقـف معناه تصفق بالقلب ونطق الصاد سينا، وبنجد يقولون : اليد الوحدة ما تصفق (995) ويضرب فى كون الانسان لا يستطيع ان يضطلع وحده بمهام يحتاج فيها الى التعاون والمساعدة .

122 ـ يْدُورْ الزَّرَعْ حَتَّى يَعْيَا وْيرجَعْ لْعَيْنْ الرّحا، الزرع بفاس معناه القمح لانه أهم ما يزرع بنواحى فاس وفى جل بوادى المغرب يطلق عى الشعير ويقابله من الامثال المصرية : القمح يـدور ويجـى الطاحون (2282) ويضرب مثلا للشخص يتبـاعد عن اهله فمرده فى النهاية حتما اليهم كما تدور حبات القمح فى الظـرف المعلق فـوق الرحى وفى النهاية تضطر للوصول الى عين الرحى أى الثقبة التى يتسرب القمح منها الى ما بين الفلقين الطاحنين .

نورد بعد هذا قائمة من الامثال المغربية لم أقف لها الآن على مقابل فى البلاد العربية الاخرى ونكتفى بارجاعها للصيغة العربية الفصحى بدون شرح الا فى النادر، واحيانا تكون الصيغة فصيحة من اصلها فنتركها كما هى :

1 ـ آشْ خَصَّـكْ يا الْعَرْيَـانْ ؛ الْخَاتَمْ يَا مُولاَىْ. ماذا ينقصك ايها العريان ؟ الخاتم يا سيدى .

2 ـ آشْ يَعْمَـلْ الْمَيَّتْ قُدَّامْ غَسَّالُـه ؟ ماذا يستطيع ان يفعل الميت أمـام غاسلـه ؟

3 ـ اَجِى يَايمَّا نُورِيكْ دَارْ اخْوَالِـى ـ تعالى يا أماه أدلك على منزل اخـوالـى .

4 ـ إلاَ تْعَانْـدُوا الْحَصَّـادَة مَـنْ سَعْـدْ مُولَى الْفَدَانْ ـ اذا تنافس الحصادون فذلك من حسن حظ صاحب الفدان .

5 ـ إلا طَلَّقْتِهَا لَا تُورِيهَاشِى بَابْ الدَّارْ ـ اذا طلقتها فليست فى حاجة الى ان تدلها علـى بـاب المنزل .

6 ـ إلا مَاتْ الْبُو تُوسّدْ الرّكْبَة والا مَاتتْ الْيَمّ تُوسّدْ الْعَتْبَة ـ اذا مات الاب تجد ركبة امك وسادة واذا ماتت الام تتوسد عتبة البيت.

7 ـ الله يرزقنا السّعْدْ الّي يْخَدْمُونَا بِهْ مَالِينْ الْعْقُولْ وْلَهْلا يْعْطِينَا الْعَقْلْ الّي نْخَدْمُوا بِهْ مَالِينْ السّعُودْ، رزقنا الله السعد فيخدمنا من اجله أصحاب العقول ولا أعطانا العقل فنخدم به أصحاب السعود.

8 ـ الّي بْغَى الصّحْ يَمْشي لَلْقَرْوِيِينْ ـ من اراد الحقيقة فليذهب لجامعة القرويين ـ تجيب بهذا عمن يسالك هل صحيح ما تقول ولا تكون متاكدا كل التاكد منه فتقول له اذا اردت المسائل الصحيحة التى لا تقبل شكا فعليك بالعلماء الذين ينشرون العلم بالقرويين وهذا المثل دليل على مكانة هذه الجامعة من نفوس المغاربة .

9 ـ لِي حَوْلْ عْلَى حْمَارَة كَايْحَجّ عْلِيهْ ـ من رفق بحمارة حج عليه .

10 ـ الّي دَرْقَكْ بْخَيْطْ دَرْقُه بْحَيْطْ ـ من جعل خيطا كستار بينك وبينه اجعل انت حائطا بينك وبينه .

11 ـ الّي رَاحْةْ النّاسْ فِيهْ مَا عَنْدُه رَاحَة ـ من كانت راحة الناس متوقفة عليه لا راحة له.

12 ـ الّي مَا فِيهْ سَمّ الْعَقْرَبْ فِيهْ سَمّ الْوَزْغَة ـ من ليس فيه سم العقرب فيه سم الوزغة .

13 ـ الّي صَابْ مَا احْلَى مَنْ الْعْسَلْ يَلْعَقْهَا ـ من وجد شيئا أحلى من العسل فعليه بلعقه.

14 ـ الّي يْصَحْبْ بْلا تْخَمُومْ فِي تَالِيهْ يُورَثْ الْهْمُومْ ـ من يصاحب الناس بدون ان يفكر في العواقب يرث الهم في الاخير .

15 ـ الّي يْفَهْمْنِي أحْسَنْ مَنْ الّي يْعْطِينِي ـ إنّ من يفهمني أفضل عندى ممن يقدم لى هدية.

16 ـ اشْكُونْ غـدُوكْ الفولَـة ؟ الّي معَاى فى الغْلاَفْ، من عدوك أيتها الفولة ؟ الـذى معى داخـل قشرتى (اى السوسة، مثل مكناسى يقال لمن يصاحبك وهو يغدرك) .

17 ـ اشْكُـونْ يقدّ يْقول للسّبعْ فمُّه خَانَزْ ـ من يستطيـع ان يقول للاسد ان فمـه منتن ؟

18 ـ بْحـالْ دى كَايدفـعْ اليهُودى لَلْجّامَـعْ ـ مثل من يدفع يهوديا نحـو المسجد .

19 ـ بْحَالْ دى كَايدَقّ المَا فى المهْرَازْ ـ مثل من يدق الماء فى المهراس

20 ـ بْحالْ دى كَايقْرا يَاسينْ على قْلوبْ الكافرِينْ ـ مثل من يقرأ سورة ياسين على قلوب الكافرين .

21 ـ بْحَالْ دى كَايْشتتْ الجوهرْ للدّجَاجْ ـ مثـل من ينشر الجوهر أمام الدجاج ـ (لا تستطيع ان تقدر قيمته) .

22 ـ براسْ الاحْمـقْ كايتقـاس الوادْ ـ يقاس عمق النهر بمن كان أحمق (متهورا) .

23 ـ تحرّكُوا ترْزقُوا ـ يقال هذا المثل بهذه الصيغة الفصحى.

24 ـ تْزُولْ الجبَالْ مْنَ رْحَابيها وْمَا تْزُولْ شى الطّبَاعْ مْنَ مْوَاليهَا ـ يمكن أن تزول الجبال من مواضعها ولا يمكن أن تزول الطبائع من اصحابها.

25 ـ حْبيبْ قْبَالَة يَا وْعْدُو مْتْبيّنْ ـ صديق صداقته متمكنة او عدو عداوته بينة واضحة .

26 ـ حْتى شَابْ عَادْ علّـقْ الحْجَـابْ ـ إنما علق له الحجاب بعد ان صـار شيخـا.

27 ـ الحْسَابْ وْقلّةْ القْبْضْ ـ العد وقلة القبض .

28 ـ الخَابْيَة مَـا كاتْمشى عَنْدْ الغْرّافْ ـ تقصد الجرة «الغراف» وهو اناء صغير يملأ من الجرة بالماء .

29 ـ خْرجْ مْنَ الحْبسْ وْجْلسْ فى بَابُـه ـ خرج من السجن وجلس

30 ـ دَارِى يَـا دَارِى يَا سَتَّـارَةْ اعْوَارِى ـ بيتى يا بيتى يا ستارة معـايبـى .

31 ـ ادْهَـنْ لُه حَلْقُـه يَنْسَى الّـى خَلْقُه ـ ادهن له حلقه ينسى الـذى خلقـه .

32 ـ دى كَايَتْسَحَّـرْ مْـعَ الدَّرَارِى كَايَصْبَحْ فَاطَرْ ـ من تناول طعام السحور مع الصبيان يصبح وهو مفطر.

33 ـ دى كَايَزْرَعْ السَّدْرَة كَايَحْصَدْ الشُّوكْ ـ من زرع السدر حصد الشـــوك .

34 ـ دى قَالْ الجَّبْلِى : وَاللهْ وْمَا حْـنّ وَرْحَـمْ لَبْقَاتْ جَنّتُه غَا خَاوْيَة تصفر ـ مثل ما قال الجبلى: والله ان لم يحن ويرحم لبقيت جنته فارغة مصفرة

35 ـ رَامِى تَلْمْسَانْ جَا يَضْرَبْ الْبَاكُورَة اخْطَا الجَّنَانْ ـ مثل رامى تلمسان عمد الى ضرب التينة فأخطأ البستان (ولم يؤت بتلمسان الا للسجعة)

36 ـ رَقْ مَنْ شَعْرَة وَامْضَى مَنْ سِيفْ، هَذى عَلَامَاتْ الطّيُوحْ ـ ارق من شعرة واحد من سيف (المقصود السراط) قال : هذه علامات السقوط.

37 ـ زَوّلْ لَوْ كَانْ وَارَا مَا كَانْ ـ ازل «لو كان» وانظر الى ما كان (أى العبرة بالواقع) .

38 ـ الطّمَعْ طَاعُونْ يَا مَنْ لَا يَرُدّ بَالُه ـ ان الطمع طاعون أيها الغافل.

39 ـ كَايْخَمّمْ فَى تْرَابْ الْوَتَدْ ـ يفكر فى تراب الوتد (أى يتساءل أين ذهب التراب الذى حل محله داخل الارض الوتد (كناية عن تفكير طويل فـى شـىء فـارغ)

40 ـ كَايْقَتْلُه وْيَمْشى فَى جْنَازْتُه ـ يقتله ويسير فى جنازته .

41 ـ كَايْسْوَى مَـا يَسْوَى الْقَنْدِيلْ فَى النّهَارْ ـ يساوى ما يساوى السراج فى النهار.

42 ـ كُلّ مَحْنَة كَاتْزِيدْ فَي الرّاسْ عَقَلْ ـ كل محنة تزيد الرأس عقلا

43 — كُلّ شَاة كَاتتعَلّقْ مَنْ كُرَعْهَا — كل شاة تتعلق من كرعها (أى لا يؤخذ أحد بذنب غيره).

44 — كُنْ ذِيب قبلْ مَا يَاكْلُوكْ الذّيابْ — كـن ذئبا قبل ان ياكلك الـذئـاب .

45 — لَا تْصَدّقْ حَتّـى تْعَنّـقْ — لا تصدقى حتى تعانقى (أصله مخاطبة لفتاة تمت خطبتها على شاب فيقـال لها لا تعتبرى أمر زواجك تاما حتـى تدخلـى وتعـانقى زوجك)

46 — لالّـة زْبيـدَة بَنْـتْ الْملكْ عَضّتْ فَـى الزّبْدَة طَاحُوا اسْنَانْهَا وْعَثْرَتْ فَى القطْنْ طَارُوا بْنَانْهَا — السيدة زبيدة بنت الملك عضت فى الزبدة فسقطت أسنـانها وعثرت فـى القطن فانفصلت أصـابع رجلها — كناية عن المبالغة فى ادعاء النعومة واللين والرقة .

47 — لالّـة مَزْيَانَـة وْزَادْهَـا نُورْ الْحَمّامْ — سيدتى جميلة (من أصل الامر) وزادها بهاء ما يكسبه الحمام للبشرة من استنارة وبهاء .

48 — لمَنْ صْدَقْ لا لمَنْ سْبَقْ — يتمتـع بالنتائج الطيبة للشىء من صلح بين يديه لا من سبـق اليـه.

49 — ما كَايْخْرجْ مَنْ الجْمَاعَـة غيرْ الشّيطَانْ — لا يخرج من الجماعة الا الشيطان (إشارة الى موقفه من بين الملائكة ازاء سيدنا آدم عليه صلوات الله)

50 — مَا كَاينْطـقْ السّفيـهْ غيرْ بْمَا فِيهْ — لا ينطق السفيه (أى قليل الادب) الا بما فيه .

51 — ما فى الهَمّ غيرْ اللّى تَايَفْهَمْ — لا يحس بالالم ويحزن سوى من يفهم (تقدمت الاشارة اليه فى مجموعة الامثال الاولى تحت عدد 72)

52 — ماشِى كُلّ مَرّة كَاتَسْلَمْ الجَرّة — ليس كل مرة تسلم الجرة، لا تستعمل الجرة عندنا الا فى المثل وفيه تورية لان الجرة معناها عندنا ايضا القضيـــة

53 — مَاشى كُلّ مَرّة وْليّـدْ — لا يكون المولود كل مرة ولدا ذكرا.

54 مَنْ أقدَامَكْ السّعيدَةَ فَاضْ بْحَرْ النّيلْ ـ بسبب أقدامك السعيدة فاض نهر النيــل ـ يقال تهكما لشخص ينسب لنفسه كل ما يقع من أشياء ســارة. .

55 ـ مشى لابَن السّبْكى وْخلى الاجرّومِيّة كَاتبْكى ـ قصد الحضور فى دروس ابن السبكى وتـرك دروس الاجرومية (فارغة) تبكى، أى ترك ما يناسبه وما يجب الابتداء به وتعلـق بالمطـولات الصعبة التى ينبغى الانتهاء بـهــا.

65 ـ النّهَارْ الّى يْوَاتيكْ وَاحَدْ يْغَديـكْ وْوَاحَدْ يْعشّيكْ وَالنّهَارْ الّى مَا يْواتيكْ واحَدْ يدْعيكْ وْواحَدْ يَشْهَدْ فيكْ ـ اليوم الذى تكون السعود فيه مواتية لــك يستدعيــك شخـص للغداء على مائدته وشخص ثان للعشاء عنده واليوم الــذى يكون معــاكسا لك يقدمــك شخص الى المحكمة وشخص ثان يشهد له ضدك .

57 ـ الصّمتْ حكمَة وْمَنّه تفرّقتْ الحْكَايَمْ كُونْ مَا قَرْقَرْ وَلْدْ الحْمَامَة مَا يْجيه الحنش هايَمْ ـ الصمت حكمة وعنه تفرقت الحكم فلو ان فرخ الحمامة لم يقرقر لما قصدته الحية وقد كانت هائمة (لا تدرى أين تقصد حتى دلها صوته عليه) هذا المثل بدوى سمعته من عرب تادلة .

58 ـ عَانَدْ لا تْحَسَدْ

59 ـ عْلـى وْجَهْ الكْتَابْ كاتتْباسْ الجْلدَة ـ انما يقبل الجلد مراعاة للكتاب العزيز الــذى يضمه.

60 ـ عمْــره ما حْبَا وْمْنَايَنْ حْبَا طَاحْ فى البيرْ ـ بقى طول أيامه لا يحبو وعند ما حبا لاول مرة سقط فى البئر.

61 ـ عَنْدْ رْخْصه تْخَلّى نْصّه ـ عند رخصه تضيع فى نصفه.

62 ـ غيرْ الشّيحْ والرّيحْ ـ كناية عن الفراغ التام كما هو الشأن فى الفيافى والقفار التى لا ينبت فيها الا الشيح ولا يتردد فى أرجائها الا الريح.

63 ـ قَـالْ لُه : كَاتَعْرَفْ الْعِلْمْ ؟ قَالْ لُه : كَاتَعْرَفْ نْزِيدْ فِيهْ ـ قال له : أتعرف العلم ؟ قال اعـرف أن أزيـد فيه، كناية عن الجاهل يدعى فوق علـم العـالميـن .

64 ـ قَالْ لُه : يَالله نْصَيْدُوا، قَالْ لُه : خَفْنَا مَا نْقَبْضُوا شَايْ ـ قال له : تعال نصد، قال له : نخاف أن لا نقبض شيئا.

65 ـ قَدّ السَّلْكَة قَدّ طْلُوعْ الْفَجْرْ بمجرد الانتهاء من تلاوة المصحف كله (وهي السلكة) طلع الفجر .

66 ـ قَسْمَةْ ابنْ دْغَلْ : وَاحَد عَبّى احْـلَاسْ وْوَاحَـدْ عَبّى الْبَغَلْ ـ هذه قسمـة ابن دغـل أعطى الواحد الحلس والآخر البغل (وابن دغل اسم شخص وهمى جيء به للسجعة مع البغل)

67 ـ السَّنّ يَضْحَكْ لَلسَّنْ وَالْقَلْبْ فِيهْ الْخْدِيعَة

68 ـ شَارْيَةْ الْهَمّ بْدْرَهْـمْ ـ يضرب بمعنى يبحث عن حتفه بظلفه

69 ـ شَافْ الرّبِيعْ مَا شَافْ الْحَافَةْ ـ راى الحشيش ولم يتنبه للهوة (فتردى فيها)

70 ـ شُوكْتُه عْلَى ظَهْرُه بْحَالْ الْعَقْرَبْ ـ أى مستعد دائما للشر مثل العقرب ترفع شوكتها على ظهرها استعدادا للسع

71 ـ هُوَ بَاقِي مَا وْصَلْ لَلارْحَامْ وَاحْنَـا فَصّلْنَـا لُه قَفْطَانْ ـ انه لم يصل بعد الرحم ونحن هيئنا له قفطانا للباسه عند ما يولد .

72 ـ الْوَرْدَة كَاتْوَلَدْ الشُّوكَة وَالشُّوكَـة كَاتْوَلَدْ الْوَرْدَة ـ الوردة تلد الشوكة والشوكـة تلد الوردة .

73 ـ اوْلَـدْ وَلْـدَكْ مْزِيَانْ مَا تْعَـدَمْ مِنْ يْبُوسُه ـ ضعى ولدك جميلا فلا تعد مين من يقبلـه

74 ـ يَا هَنْدَة قُلْ لْـوَرْدَة تْقُـولْ لَلسَّايَـلْ الله يْفَتَحْ ـ يا هندة قولى لوردة أن تقول للسائل الله يفتح (كناية عن استعمال الوسائط فى ما يمكن للانسان ان يقضيه بنفسه) ويزيدون فى هذا المثل تفكها ان السائل لما سمع

صاحبة البيت تقول ما تقدم توجه الى الله قائلا : يا رب قل لجبرائيل يقول لميكائيل يقول لعزرائيل يقبض لها روحها .

75 — يتحمال الحجاج قدام ابنه — يحتمل الحجاج بالنسبة لابنه.

76 — يمارة الـدار على باب الدار — أمارة المنزل ظاهرة على بابه .

77 — يمكن هي النص في كاتكذب — يمكن نصف تكذب .

78 — ينسى الـراس ومـا ينسى الكـراس — اى الشيء المفيد في الدفتر لا ينسى بخلاف ما لا يفيـد ويتكـل على الذاكرة لحفظه.

أيهـا السادة الكرام

يتضح من هذا العرض الوجيز — حيث انني لم أورد لكم سوى مائتين من الثمانمائة آلاف مثل التي جمعتها انه ان كانت الامثال كما قلنا تدل على وحدة التفكير البشري بكيفية عامة فانها بالنسبة الينا معشر العرب برهان على أننا أمة واحدة في كل مناحي الحياة ودقائق جزئياتها مما ظهر واضحا في الامثلـة التـي سردتهـا عليكم وان كانت طرأت على هذه الوحدة عوامل خارجية حاولت ان تباعد بين اجزائها فان مصيرنا اليوم بأيدينا والحمد لله وعلينا أن نمتن أواصر وحدتنا وأن نسعى في تثبيتها وتوثيق عراها وفقنا الله جميعا لما فيه خير الامة العربية والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد المنوني

مظاهر يقظة المغرب الحديث

كانت الفترة الممتدة من عام 1276 حتى عام 1317 لامعة فى تاريخ المغرب الحديث، فبعد حرب تطوان التى وقعت على رأس هذه الفترة، وبعد مشاكل كل هذه الحرب، شاهد المغرب تباشير نهضة وطنية حديثة، وبوادر حركة اصلاحية مباركة، قام بها الملكان محمد الرابع وابنه المولى الحسن، وقد شملت هذه الاصلاحات الحكومة والديبلوماسية والجيش والاسطول والتعليم والاقتصاد... (1)

وقد كان لبعض هذه الاصلاحات وما سبقها من حرب تطوان ومشاكها، وما صار اليه المغرب فى هذا الطور من مزيد الاحتكاك باوربا : كان لكل ذلك صدى عميق، واثر بليغ، لدى بعض اوساط الشعب المغربى، فقد نشأت طبقة من المغاربة يتوفرون على ثقافة حديثة، وظهر بعض علماء مغاربة – وان كانوا قلائل جدا – تاثروا بالنهضة الغربية الحديثة، وقام علماء آخرون بمقاومة الامتيازات الاجنبية، وكان لفريق آخر منهم آراء تقدمية فى تنظيم الجيش المغربى، وفى توجيه السياسة المغربية بصفة عامة، ودخلت المطبعة العربية للمغرب، ونشأ ناشرون مغاربة (2) وظهرت الصحافة العربية بالمغرب وازدهر من جديد الادب الوطنى المغربى.

ان هذه الصورة من يقظة المغرب الشعبية، هى التى ستحاول هذه الرسالة استخراجها من هنا وهناك، وتعمل على جمعها ودراستها، ثم تقدمها للقراء، لنرى جميعا بعض مظاهر الوطنية المغربية فى نشأتها الاولى، ولنتعرف الى طائفة من قادة هذه النهضة المباركة، ولنقتبس من افكارهم ما يحتاج له حاضرنا، والله سبحانه ولى التوفيق .

---

1) انظر مجلة «تطوان» العدد 2 سنة 1957 – البحث الاول

2) كان حديث المطبعة المغربية، والناشرين المغاربة فى هذا الطور : من بين مواضيع هذا البحث، ثم فرز منه حتى ينشر – ان شاء الله – فى بحث على حدة

1 ـ مغاربة مثقون ثقافة حديثة

ولندخل الموضوع لنتحدث اولا عن مظاهر هذه اليقظة الشعبية فى الروح الجديدة التى خلقها بالمغرب ـ ولو فى اطار ضيق ـ فئة من افراد البعثات المغربية المتخرجين من اوربا والشرق، فبالرغم من الجمود الذى قوبلت به هذه البعثات فى كثير من الاوساط، استطاع افراد منها ـ ولو كانوا قلائل ـ أن يبدوا نشاطا ملموسا، ويقوموا بأعمال دلت على استعداد هؤلاء لبذر البذور الاولى لمغرب جديد لو وجدوا جوا مواتيا .

وبغض النظر عن النشاط الادارى الذى سنتحدث عنه بعد، فاننا سنعثر لهؤلاء المثقفين الجدد على آثار علمية وادبية، وحتى بعض مبتكرات علمية وصناعية، وهذه الآثار هى التى نتحدث عنها وعن اصحابها فيما يلى :

1) عبد السلام العلمى

لا شك انه يوجد فى طليعة هؤلاء العالم الميقاتى الطبيب : عبد السلام بن محمد بن احمد الحسنى العلمى الفاسى المولود بها عام بضع وخمسين ومائتين والف والمتوفى بها ـ أيضا ـ عام 1313 = 1895

كان نبوغ هذا العالم المغربى فى ناحيتين : الاولى علم الميقات الذى درسه ـ بالمغرب ـ على اشياخ لا نزال لم نظفر بأسمائهم، والثانية علم الطب الحديث الذى درسه بالشرق، فلنحاول ان نتعرف على مدى نشاطه فى كلتا الناحيتين، ولنبدأ بعلم الميقات الذى نجد له فيه الآثار التالية :

أ) اختراع آلة شعاعية سماها باسمين : «جعبة العالم» و «اسطوانة العالم» (3)، وقدمها هدية للملك محمد الرابع.

ب) اختراع آلة شعاعية اخرى سماها : «ربع الشعاع والظل».

واذا كان الاختراع الاول : «جعبة العالم» لا يعرف الا اسمه، ويجهل عنه كل شىء آخر ـ فان الاختراع الثانى نجد للمؤلف فى توضيحه..

ج) رسالة سماها : «ارشاد الخل، لتحقيق الساعة بربع الشعاع والظل» وقد ضمنها صورة هذه الآلة، وكيفية استعمالها، وتاريخ اختراعها الذى هو عام 1283 = 1866، وصدرها بذكر الملك محمد الرابع الذى قدم هذه الآلة هدية لحضرته عام 1284 = 1867، وهذه الرسالة طبعها مؤلفها بمصر لما كان يدرس بها فى صحائف «12» حجم صغير .

3) ذكر اختراعه لهذه الالة أوائل مؤلفه «ابدع اليواقيت» الآتى الذكر

وسوى هـذه المبتكـرات نجد لعالمنا هذا مؤلفا تناول فيه مبادىء علوم الرياضيات والهيأة، وسماه :

د) «دستور ابـدع اليواقيت، على تحرير المواقيت» ضمنه عيون الفنون المبتكرة في العصور الاخيرة، وجعله جامعا لمبادىء عدة فنون، واستمد فيه كثيرا مـن الكتـب المترجمـة في زمانه، وهذه هي الفنون التي تناولها هـذا الدستـور :

الفن الاول فـي علـم الحسـاب، الفن الثاني في فن النسبة العشارية اللوغريتموية، الفن الثالث في النسبة الستينيـة، الفـن الرابع نبذة من فن الترجمة فيما يتعلق بهذا الفن، الفن الخامس مقدمات من فن الجبر بالاصطلاح الغربي، الفـن السـادس في الهندسـة، السابع المساحة، الثامن علم المرءاة وانعكاس الاشعة المعروف الآن بعلم الضوء، التاسع علم الطبيعة، العاشر علم الهيئة، الحادي عشر علم التنجيم، الثاني عشر علم الجغرافيا، الثالث عشر علم تسطيح الكرة، الرابع عشر فن الرسم : يعنـي تخطيط الآلات الميقاتية، الخامس عشر فـي حسـاب التواريـخ، السادس عشر علم التعديل، السابع عشر علم الميقـات .

وهذا الكتاب لا يزال مخطوطـا، ومنـه نسخـة بمكتبة كاتب السطور تقف عند الفن العاشر الذي هو علم الهيئة، يقع الموجود منها في صحائف 64 مسطرة 23، حجم متوسط، ونسخة اخرى ـ قريبة من التمام ـ بمكتبة موقت مراكش الحمراء العلامة الفلكي الجليل محمد بن عبد الوهاب ابن عبد الرزاق

ومن موضوعات المترجم في الميقات ايضا :

هـ) «حاشية على الرسالة الفتحية، في الاعمال الجيبية» للمارديني، أحال عليها في ابدع اليواقيت الآتي الذكر، ونقل عنها تلميذه محمد بن علي الاغزاوي الفاسي في مواضع من شرحه على رجز ابن عاشر في الربع المجيب صحائف 36 ـ 50 ـ 51 ـ 62 ثم صارت إلي نسخة من هذه الحاشية فوجدتها تشتمل على صحائف 59 مسطرة 24 حجم متوسط .

و ـ) «أبدع اليواقيت، علـى تحرير المواقيت» اسم شرحه على رجز الوزكاني في التوقيت، ألفه عام 1285 = 1868، طبع بفاس عام 1326 = 1908، على هامش شرح البعقيلي على روضة الجادري، وهو ايضا من مصادر مؤلف الاغـزاوي الآنـف الذكـر، نقل عنه ص 67 ـ ولهذا الشرح مقدمة مطولة افردها بالتاليف علـى حـدة، وهـي «دستـور ابدع اليواقيت» المار الذكر

ذلك ما توصلت اليه الآن من موضوعات المترجم الميقاتية التي يفيد ما وقفت عليه منها : انه درس علم الميقات دراسة آخذة من آثار المتقدمين وافكار المتاخرين، فتراه في هذه المؤلفات ياتي بدراسات الاقدمين مستقاة من المصادر العربية، كما ياتي بدراسات المتاخرين ماخوذة من كتبهم المترجمة الى العربية .

وقد كان الى جانب اشتغاله بالتاليف يقوم بتدريس هذه العلوم حسبما لمح لهذا اول تاليفه : «ابدع اليواقيت»، ومن المتخرجين عليه فيها الميقاتي المؤلف الشهير محمد بن علي بن عمر الاغزاوي الذي يحليه بشيخه غير مرة في مؤلفه الآنف الذكر، والميقاتي محمد بن ابي بكر الجامعي، بقي السيد العلمي منكبا على اشتغاله في الميدان العلمي بالمغرب حتى بويع السلطان المولى الحسن، حيث حدث حادث جديد في حياة المترجم، ففي عام 90 او 1291 (4) بعثه هذا السلطان ليدرس الطب – على الطريقة الحديثة – بالشرق، في الكلية الطبية الكبرى المعروفة بقصر العيني بالقاهرة، بعد ما كان ابتدأ دراسته الطبية بالمغرب .

والفنون التي درسها بهذه الكلية، مع اسماء اساتذته العرب والاجانب الذين اخذ عنهم : كل هذا يحدثنا عنه المترجم آخر كتابه، «ضياء النبراس» ويقول :

«وحيث ذكرنا في بعض المواضع من هذا الكتاب اشياء غريبة من بعض الفنون التي تلقيناها من اشياخنا بالاسبطار المصري : سنح لي ان نختم هذه الخاتمة بذكر اشياخنا في تلك الفنون ...

الاول شيخنا في علم الجراحة علما وعملا رئيس الاسبطالية المذكورة المعروفة بالقصر العيني العلامة الحكيم المترجم المدرس الفصيح المؤلف سيدي محمد – بفتح الاول – علي باشا البقلي كان الله له امين ...

الثاني شيخنا في العملية الجراحية الحكيم محمود به نجل الرئيس المذكور .

---

4) في «ضياء النبراس» : يذكر المترجم – عند مادة سبستيان – انه كان يدرس الطب بمصر عام 1291، وفي مقدمة «البدر المنير» : يذكر انه درس الطب بمصر بعد السلطان المولى الحسن، وقد بويع هذا اواسط عام 1290، فيستفاد من النصين ان ذهاب المترجم لمصر كان في احد العامين : 90 او 91، وايا ما كان فهو لم يذهب لمصر ايام محمد الرابع خلافا لما جاء في «الدرر الفاخرة»

الثالث شيخنا فى الجراحة بعمل اليد الحكيم محمد – بفتح الاول – فوزى .

الرابع شيخنا فى الامراض الباطنة علما وعملا على أسرة المرضى رئيس اطباء ام أفنديهم وهو العلامة الحكيم المترجم الفصيح الدكتور سالم بـه سالم .

الخامس شيخنا فى الامراض الباطنة على اسرة المرضى عملا الحكيم المترجم القطارى .

السادس شيخنا فى الامراض الباطنة على اسرة المرضى عملا الحكيم ابراهيم أفندى .

السابع شيخنا فى الامراض الباطنة على أسرة المرضى عملا الحكيم موسى عيسى نائبا عن شيخنا سالم به سالم المذكور .

الثامن شيخنا فى عيادة الامراض الباطنة عملا على اسرة المرضى الحكيم محمد – بفتح الاول – أفندى شكرى.

التاسع شيخنا فى علم التشريح الهيكلى والعضلى والمفصلى علما وعملا العلامة الحكيم المترجم محمود به افندى مصطفى .

العاشر شيخنا فى علم التشريح العصبى والعروق الحكيم محمد – بفتح الاول – افندى درى : علما وعملا .

الحادى عشر شيخنا فى علم المواليد الثلاثة : الحيوان، والمعدن، والنبات المعروف بالتاريخ الطبيعى العلامة الحكيم المترجم الفصيح المؤلف محمود افندى ندا المصرى .

الثانى عشر شيخنا فى علم الكيمياء الطبية المعلم كسنتيل الفرنصاوى القائم بالمعمل الكيماوى . بواسطة المترجم العلامة الحكيم الفصيح معلم علم المواليد الثلاثة محمود أفندى ندا المصرى المذكور .

الثالث عشر شيخنا فى علم الاقرباذين علما وعملا الحكيم المترجم المؤلف الاقرباذينى على افندى رياض .

الرابع عشر شيخنا فى علم الرمد الحكيم المترجم المؤلف حسين بيك عوف، مبرىء الرمد بالاسبطالية المذكورة .

الخامس عشر شيخنا فى امراض الجلد الحكيم على افندى رضوان .

السادس عشر شيخنا فى الداء الزهرى والامراض الباطنة على أسرة المرضى الحكيم عبد الرحمان به الهراوى .

السابع عشر شيخنا في مشاهدة الحيوانات المصبرة واحجار المعادن البرية والبحرية الحكيم زهران افندي .

الثامن عشر شيخنا في تشخيص امراض النساء والاطفال في اسبطالية امراض النساء العلامة الحكيم الجرائحي».

هؤلاء أساتذة المترجم الذين تلقى عنهم الطب بالقاهرة، ولا نعلم مقدار المدة التي قضاها في هذه الدراسة، وانما نعلم انه ذهب الى القاهرة عام 90 أو 1291، ثم في أول عام 1297 كان قد أتم تاليفه «البدر المنير» الذي ألفه بالمغرب بعد اتمام دراسته بالشرق .

ومن ثمرات دراسته للطب انه بعد ما عاد الى المغرب وضع في هذا الفن مؤلفات عديدة طرزها بأعمال الطب الحديث، ومنها :

ز ـ «ضياء النبراس» في حل مفردات الانطاكي بلغة اهل فاس شرح فيه ما في تذكرة الانطاكي من الرموز بما شاع من اسمائها بمدينة فاس، وذيله بخاتمة شرح فيها أسماء الادوية التي ذكرها صاحب «كنوز الصحة» حيث كان بعضها من الادوية الجديدة، وبعضها بأسماء كيماوية وافرنجية غير فصيحة على حد تعبير المؤلف

وفي الكتاب ايضا مقدمة وتذييل : بين في المقدمة فعل الادوية في البنية، وذكر في التذييل مجربات «67» مما تلقاه او شاهده وقت دراسته بمصر، فرغ من تبييضه اواسط رجب عام 1302 = 1884، وطبع على الحجر بفاس مرتين الاولى عام 1318 = 1900 والثانية بدون ذكر تاريخ الطبع .

ح ـ «البدر المنير» في علاج البواسير» رتبه على مقدمة ومقالتين وخاتمة، ورصعه باعمال الطب الجديد، حسبما حضره في الكلية الطبية المصرية، فرغ من تبييضه عشية يوم الاثنين 15 محرم عام 1297 = 1879 وهو مطبوع على هامش «ضياء النبراس».

ط ـ منظومة رجزية في علم التشريح سماها : «مفتاح التشريح» تقع في ابيات 78 طبعت بذيل «ضياء النبراس».

ى ـ «الاسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة» فسر فيه اصطلاحات وغريب الكتب المترجمة حديثا الى العربية، اشار له في طالعه «ضياء النبراس» وذكر انه لا يزال لم يتم.

يا ـ «التبصرة» في سهولة الانتفاع بمجربات التذكرة» رتب فيه تذكرة الانطاكي ترتيب الامراض بدلا من الحروف ليسهل الفحص على من

يطلب علاج مرض مخصوص حتى يجده في باب. واحد، عوضا عن البحث في الحروف 28 ذكر في اواخر «الضياء» انه لا يزال في مبيضته.

وهنـا ينتهـي ما وقفت عليه من معلـومات عن المترجم، فلا نعرف بعد هذا شيئا عـن اشتغالـه بالطـب العملـي والتعليمـي بالمغرب، وهل فتح مستشفى للمداوة او اسس معهدا لتلقين هذا العلم (5) .

* * *

وبعد هذه الشخصية المغربية نتابع تعداد المغاربة الآخرين الذين قدموا ـ في دائرة الاعمال الحرة ـ خدمات لهذه النهضة المغربية الحديثة، ولا شك ان من بينهم :

2 ـ احمد شهبون، كان ضمن بعثة محمـد الرابع لمصر على ما في الدرر الفاخرة، ولا يعرف من اخباره سوى موضوعه في الجغرافيا الذى سماه «كتاب الجغرافية المغربية» وهو عبارة عن مصور جغرافي يضم اللوحات التالية:

1) مصور الفلك

2) خريطـة كرة الارض بنصفيها الشرقي والغربي وخطوط الطول والعـرض .

---

5) فـي ص 87 من كتاب «الطب والاطباء بالمغرب» نقلا عن رينو : ان هذا الطبيب اسس مصحة صغيرة قـرب الحرم الادريسي بفاس

وبعد هذا الذكر ـ تذييلا لترجمة السيد العلمي ـ ان مبيضة «تاريخ الطب العربي بالمغرب» بالمكتبة الاحمدية بفاس : تتحدث عن كتب المتـرجم الطبيـة، كما ان «الطب والاطباء بالمغرب» ص 86 ـ 87 يعلق على «ضياء النبراس» في العبارات التالية :

«وهذا الكتاب متين التحليل، ويعتبر ـ في نظري ـ نقطة تحول مهمة في تاريخ الطب المغربي، حيث يحـاول المؤلـف التوفيـق بين الشهور والبروج والادوية وأنواع النباتات المتداولة في الشرق والغرب وفي المغرب، مصححا في بعض الاحيان أغلاط سلفه، ومنظرا بين المصادر المطبوعة ودروسه في مصر وتقاليد اطباء المغرب وصيادلته، وما يسميه بالطب الجديد والكيمياء الجديدة باوربا وامريكا ويأتي احيانا بأسماء الدواء بالعربية ومختلف لهجاتها، ثم باللاتينيـة والافرنجيـة، مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة العامة، كالتصعيد والتقطير، وقد نقل من مصر نمـاذج عديـدة من النباتـات والعقاقير والادوية، ويحكي عن تجارب شيوخه في قصر العيني واسهامه الشخصي فـي هذه التجارب، وقد ذكر انه شاهد زرافة مصبرة بالقصر العيني خلال قراءته علم الحيوانات، وشارك في تحضيرات بالمعمل الكيماوي بمصر»

3) صورة فلك القمر وصورة كرة الارض على وجه واحد

4 ـ 8) خمس لوحات بكل واحدة خريطة قارة من القارات الخمسة مكتوب الى جانب كل خريطة قائمة باسماء بحور القارة وبحيراتها، وجزائرها وانهارها، وجبالها، واجناسها، وعواصمها، وعدد نفوسها، واختلاف ساعاتها

9) صورة البروج، وصفاتها ومنازلها، والكواكب السبع السيارة

10) لوحة بها موافقة السنين : السنة العربية الهجرية، والعجمية الهجرية، والمسيحية، وبيان الكبس.

11) خريطة اقليم المغرب

توجد نسخة من هذا الاثر بالخزانة الزيدانية بمكناس، صحائفها المستطيلة المكتوبة والمخططة بالالوان (18) كتب عليها انها كتبت بفاس سنة 1315 موافق 1898» (6) .

3) محمد ابن كيران الفاسي، هو ايضا من افراد بعثة محمد الرابع لمصر على ما في «الدرر الفاخرة (7) التي ذكرت انه مخترع «ثمن الدائرة» عوضا عن الربع، وان له اختراعات اخرى مهمة ضاعت بموته.

4) محمد بن الكعاب الاودى، من افراد البعثة الحسنية الى فرنسا، له رحلة تقع في مجلد، ومنها نسخة عند الاستاذ المجاهد محمد بن الحسن الوزاني (8) .

5) الطبيب احمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي المتوفى حوالى عام 1347 = 1929 درس الطب في اوربا، واحرز على شهادة فيه، وبعد ما عاد الى المغرب انتصب لمداواة الناس الذين صاروا يقصدونه على اختلاف طبقاتهم (9) .

6) الطاهر بن محمد بن العلامة عبد السلام بن الحاج الاودى الفاسي دارا ومنشئا (10) المتوفى عام 1362 = 1943، احد طلبة البعثة الحسنية الى فرنسا .

---

6) الدرر الفاخرة ص 95 ـ 96
7) ص 96
8) دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص 393
9) تاريخ الطب العربي بالمغرب : مبيضة المؤلف بالمكتبة الاحمدية بفاس
10) هكذا سمى نفسه في مؤلفه «الاستبصار» ص 83 من نسخة كاتب السطور

ستذكر هذه الرسالـة انـه تقلد عدة وظائف في العهد الحسني وبعده، وفوق ذلك فله كتابات في موضوعات مختلفة منها :

أ ـ «الاستبصـار، في عجائـب الامصار، والجبال الانهار، والبحور ومنافيس النار...» موضوعـه فـي الجغرافيا العامة كما يدل عليه اسمه، ولكن مؤلفه ملأه بالاستطـرادات الكثيرة .

استهله بالحديث عـن الحرب العظمى الاولى 1914، ليتخلص من هذا الموضوع الى الحديث ـ في شيء من الايجاز ـ عن جغرافية العالم قارة قارة: اوربا، آسيا، افريقيا، امريكا، جـزر المحـيط، ثم تحدث عن ترجمته وبعض حوادث المغرب قبـل الحمايـة وبعدهـا، وبعد هذا تجد بالكتاب مـراسلات سياسية عديدة تأخذ قسطا مهما منه

وقد همس هـذا المؤلـف بتعليقـات تكـون صافية في بعض الاحيان وتتناول وقائع تاريخية .

والى جانـب استطـرادات الكتاب الكثيرة، فانه يوخذ عليه ايضا عدم مراعاته التنظيم في كثير من مواضيعه، ويوخذ عليه ايضا تحريره بلغة قريبة من الدارجـة المغربيـة، ومع هذا كله فالكتاب مفيد في موضوعاته، وينم على ان لمؤلفه ثقافة حديثـة لا بأس بهـا .

توجد منه نسخة بمكتبة كاتب السطور عدد صحائفها المستطيلة 211، وهي ـ فيمـا يظهـر ـ محررة بخط مؤلفها، ومنه نسخـة اصغر من الاولى بالمكتبـة الاحمديـة بفاس، ونسخة ثالثة بها بعض مخالفة بخزانة الاستاذ العالم ادريس بن الماحي الادريسي بفاس ايضا.

ب ـ «رحلة» الفها مدة الاعوام السبعة التي قضاها بأوربا، واضاف لها

ج ـ «خريطة الكرة الارضية» التي بعـث بنسخـة منها من مدرسة بايز الى السلطـان المولـى الحسن عـام 1300 = 1882 (11) لم أقف على هذه الرحلة، اما الخريطـة فيظهـر انها هي التي اثبتها المؤرخ ابن زيدان في «الـدرر الفاخـرة» (12) .

7 ـ 12) «اعضاء بعثة العرائش الى اوربا»، من بين البعثات المغربية التي عادت الـى المغـرب بنتائج نافعة، أفراد «بعثة العرائش» التي تتالف من (7) المهنـدس السيد عبـد السلام اوزد خريج جامعة المانيا (8) المهندس السيد ادريس الشـرادي خريـج جامعة انجلتـرا (9) المهندس السيد علـى

---

11) الاستبصار ص 31 ـ 96

12) قبـالـة ص 105

السوسى خريج جامعة ايطاليا (10) العلامة السيد الطيب ازطوط (11) العلامة السيد محمد حجاج (12) العلامة سيدى على بن مفضل التالوتى .

لقد نشر هؤلاء العلمـاء روحـا جديدة بالعرائش، ثم كونوا فيها حياة علمية، وشعورا قوميـا، ونشـاطـا اجتماعيا، دفـع بهذه الناحية الى قافلة التقدم العلمى الذى كان يغمر هذه البلاد المغربية منذ نهاية القرن الماضى (13)

13 ـ محمد بن لحبيب الفيلالى المكناسى المتوفى عام 1334 = 1916 درس الميكانيك فى انجلترا ومن آثاره :

أ ـ ساعة كبيرة يزيد طولها على اربعة امتار وعرضها على مترين، وقد كتب بأعلاها هذه العبارات : «ابن لحبيب» ـ «عام 1318» ـ «بمكناس» ولا يزال الهيكل الخارجي لهذه الساعة ينزوى فى بيت بأكدال مولاى الحسن بمراكش، حيث وقفت عليهـا هنـاك غروب يوم الجمعة 5 حجة 1378 = 12 يونيه 1959 صحبـة الاستاذين بكلية ابن يوسف السيدين بوبكر الجرموني وابى النصـر المكنـاسى، وما اجدر هذه الساعة ان لو خرجت من انزوائها بذلك البيت، ونقلت لدار الآثار بمراكش لتعرض هناك .

ب ـ ساعة محفوظة بغرفة التوقيت بمنار جامع ابن يوسف بمراكش وقد رغبت من الاستاذ ابى النصر المذكور ان ينقل لى ما عليها من كتابات، فبعث لى بما يلى «كتب على رخامة الساعة المذكورة : «هذه المجانة مصنوعة بالوندريز، ومخترعها ابـن لحبيـب المجانـى 1308»، ويحيط بالرخامة الى الداخل خمـس دائـرات : اثنـان منها لحساب الشهور العجمية واسمائها، واثنان لحساب الشهور العربيـة واسمائهـا، والخامسة لاسماء الايام، كما تشتمل هذه الساعة فى اعلى رخامتها على دائرة اخرى مكتوب عليها ما يأتى: «تسريح الضرب» ، «ثقاف الضرب».

ج ـ واخبرت بأن هناك ساعـة ثالثة مـن صنع المذكور، توجد بأحد المشاهد القريبة من مراكـش، ولكـن لم يقدر لى الوصول لهذا المشهد حتى اتحقق من صحة الخبر .

14 ـ) مغربـى مجهول الاسم كان يشتغل بترجمة بعض الموضوعات مـن لغة اجنبية .

استفـدت خبـر هـذا المغربى من قطعة قام المذكـور بترجمتها، وهى تتناول مبادىء الطبيعيات وبعـض خواص الاعداد والحيوان والنبات، عربها

13) مجلة المصباح العدد الاول، السنة الاولى ـ تطوان ص 63 ـ 64

من تأليف عجمى على حد تعبيـر المعـرب الذى لم يسم المؤلف المترجم عنه، وانما ورد فـى اثناء القطعة ان هذا المؤلف يحيل على موضوعين له احدهما يسمى «كميات الطب» والثانى «فرجة الطبيعيات» .

يتناول الموجود من هذه القطعة مبادىء الكيمياء والطبيعيات، مع اوائل البحث الذى يتناول خواص بعض الحيوان والنبات، وضاع من هذه الترجمة ما بعد ذلك، عدد صحائفها 55، مسطرة 17، حجم صغير.

والـذى يفيد ان هذا المترجم مغربى هو استعماله اثناء الترجمة كثيرا من التعابير المغربية العامية مثل كلمات : اليطرون ـ المطرب ـ برادة ـ الليان ـ الصابون البلدى ـ الرابوز ـ لكلاطة ـ الطرنبة ـ فكـرون ـ فى اشباه لهذه الكلمات مما يفيد ـ ايضا ـ ان لغة المعرب ليست بالفصيحة الخالصة، وانما يشوبها تعابير عاميـة مغربيـة .

اما عن عصـر المعـرب فيترجـح انـه كان يعيش فى هذه الفترة التى نؤرخها، لانهـا هى الفتـرة التـى توجهت خلالها البعثات المغربية لاوربا ثم عادت للمغرب، ولانها هى الفتـرة التـى ظهر فيها عدد من آثار افراد هذه البعـثـات .

ثم بعـد هذا اذكـر ان هناك قطعة ثانية تتناول التنظيم العسكرى، وتعرب الباب الرابع من كتـاب فى الموضوع لم يسم مؤلفه، ويقول صاحب هذا التعريـب : ان ما قبل الباب المعرب ليس فيه فائدة فلذلك بدأ الترجمة من الباب الـرابع .

ومترجم هذه القطعة الثانية مغربى ايضـا لاستعمالـه بعض الكلمات المغربية العاميـة امثـال : كلاطة ـ تفالة ـ القالة، ولربما كان من فاس لانه ورد فى كلامه ذكر الذراع الفاسى مرتين، عـدد صحائـف هذه القطعة 11 مسطرة 17 حجم صغيـر .

فهـل مؤلف هذه القطعة الثانية (14) هو نفس مؤلف الاولى او غيره ممن كان يعيش فى هذه الفترة ؟ هذا ما لم يترجح لدى فيه شىء.

وان هـذا المغربـى هـو آخر الاربعة عشر من رجال البعثات المغربية الذين استعرضت هذه العجالة آثارهم .

وبعد هذا تفتح هذه الرسالـة صفحة اخرى من نشاط المتخرجين من اوربا فى الميدان الادارى، هذا النشاط الذى كان مزدهرا بصفة خاصة أيام السلطان المولى الحسن .

14) هذه القطعة ـ مع الاولى ـ مخطوطتان بمكتبة جامع هذه الرسالة

فقد وظف عددا من هؤلاء المثقفين ثقافة حديثة في دار السلاح التي انشأها بفاس، ووزعهم على تسيير اقسامها، فكان 15 محمد المنفري رئيس قسم صناعة الزناد، و 16 عباس بن قاسم رئيس قسم الجعاب، والطاهر ابن الحاج الاودي ـ المار الذكر ـ رئيس العملة بهذه الدار (15) .

وهذا الاخير شغل ايضا مناصب اخرى في العهد الحسني وبعده : ففي عام 1298 = 1880 كان ترجمان سفارة الوزير على المسفيوي لفرنسا في شأن ضرب السكة الحسنية، وفي عام 1307 = 1889 كان ترجمان سفارة المعطى بن الكبير لفرنسا، وفي عام 1324 = 1906 كان ترجمانا في مؤتمر فاس الذي انعقد بين نائب فرنسا من جهة، والوزراء المغاربة واعضاء مجلس الاعيان المغربي من جهة اخرى، وفي نفس العام كان ترجمان الوفد المغربي في مؤتمر الجزيرة الخضراء (16) .

ومن بين المثقفين الآخرين الذين استعان بهم السلطان المولى الحسن يوجد «17» الحاج ادريس الشاوي الذي صار في قيادة المدفعية المغربية (17) و «18» المهندس المغربي الزبير سكيرج الذي ساعد المهندس الانجليزي في اصلاح ابراج طنجة حيث نال من رئيسه الانجليزي تنويها مكتوبا، كما ساعد المهندس الالماني في بناء برج الرباط الكبير عام 1303 = 1885 وفي عام 1307 = 1889 توجه ضمن بعثة فنية الى المانيا، ثم عاد اليها ضمن بعثة اخرى عام 1308 = 1890 وسكيرج هذا كان ايضا ترجمان الوفد المغربي في مؤتمر مدريد الشهير (18) .

ومن الذين استعان بهم الملك محمد الرابع من المثقفين ثقافة حديثة «19» محمد الدكالي الرباطي : اسند اليه تنمية مؤسسات الاشغال العمومية بالمغرب، وهو الذي ابرم مع ميكانيكي انجليزي اتفاقية في شأن معمل السكر المغربي (19) .

ويلحق بهؤلاء «20» الحاج محمد بن العربي القباج الفاسي العارف ببعض اللغات الاوربية البصير بعوائد اهلها : أوفده الملك محمد الرابع على رأس البعثة التي شاركت في معرض باريس عام 1285 = 1868 (20) .

15) الاتحاف ج 2 ص 468
16) الاستبصار للطاهر الاودي المذكور ص 95 ـ 96
17) الاتحاف ج 2 ص 466
18) المصدر الاخير ج 2 ص 489 ـ 488 ـ 466
19) المصدر ج 3 ص 561
20) الاستقصا ج 4 ص 232

فهؤلاء عشرون شخصية، وهم اهم من وقفت عليه من رجال البعثات المغربية الذين خدموا المغرب - في هذا الطور - في ميداني التثقيف والتوظيف ومن المحقق ان عددهم يرتفع الى ارقام اعلى من المذكور هنا، ولكن هذا ما طالت اليه اليد الآن .

2 - علماء مغاربة تأثروا بالنهضة الغربية الحديثة

وهذا لون آخر من تأثر المغرب - في هذه الفترة - بالنهضة الغربية الحديثة، وسنجده في هذه المرة يلج صفوف كبار العلماء المغاربة ليؤثر في تفكير طبقة منهم وان كانوا قلائل جدا، وليبرز في بعض مؤلفاتهم، ولا يزال عدد الذين وقفت عليهم من هذا الصنف لا يتجاوز اثنين :

21 - ابو اسحاق التادلي

ابراهيم بن محمد بن عبد القادر التادلي الرباطي المتوفى بها عام 1311 = 1893 .

هذا من علماء المغرب الكبار المشاركين مشاركة واسعة في العلوم التي كانت موجودة بالمغرب في وقته : دينية، وادبية، ورياضية، قرأ هذه العلوم واقرأها بالمغرب والمشرق، والف فيها تآليف مهمة، وهذا كله مبسوط في ترجمته (21) وليس من موضوع بحثنا، وانما الذي يهم هذه الرسالة من حياته انه من علماء المغرب الذين تأثروا - بعض التأثر - بالثقافة الغربية في هذا الطور، اكتسب هذا من اقامته ببعض جهات اوربا المجاورة للمغرب، ومن جولاته الواسعة برا وبحرا في الشرق الاسلامي : الحجاز، ومصر، وفلسطين، ولبنان، وسوريا، وتركيا، ومن اطلاعه على بعض العلوم والكتب الحديثة، ووقوفه على كثير من المخترعات التي درس بعضها دراسة دقيقة .

وان كل هذا كيف نفسية الرجل تكييفا خاصا، فعلى خلاف الشائع بين كثير من اهل طبقته، كان هذا يستطيع التحدث بعدد من اللغات الاوربية الحية : الانكليزية، والفرنسية، والاسبانية، تعلمها بجبل طارق، الذي تلقى فيه ايضا بعض علوم البحر والبوصلة، واطلع فيه - لاول مرة - على صورة الكرة الارضية وعرق اصطلاحها .

كذلك تعلم عددا من اللغات الاسيوية : التركية، والفارسية، والهندية، اخذها عن بعض اهل بغداد.

---

(21) من مراجع ترجمته «الاغتباط بتراجم اعلام الرباط» للمؤرخ محمد بو جندار، منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالرباط رقم D. 1287

وقد ساق تلقيه لهذه اللغات الاسيوية والاوربية فى بعض مؤلفاته (22) مساقا لا يخلو من فائدة فى الموضوع، وهذا ما يهمنا منه :

«هذا وقد كنا قبل رحلتنا الاولى أخذنا بعض اللغات عن بعض أهل بغداد، وكان عارفا بالسن، خصوصا التركى، والفارسى، والهندى، فقيدت عنه منها ما لا بد منه فى تاليف مرتبا لها، اذ هذه اللغات هى المعروفة بالمشرق اليوم عام 1285، خصوصا بالحجاز، اذ سكن به جمهور هذه الامم لما استولى الكفر على بلادهم، خصوصا لسانا لترك، فقد كان يعرفه جميع اهل مكة حتى نساؤهم وصبيانهم، لان الدولة منهم، وعمال الحجاز منهم ...

كما قيدنا بجبل الطر (23) من بلاد الروم ايام اقامتنا به بعض السن الروم كاللنكليزية، والفرانصيصية، والاصبنيولية، وقيدتها عن بعض المسلمين هناك، لاضطرارنا الى السفر مع النصارى ومخالطتهم، فيعرف الانسان لا اقل أسماء الماء للوضوء، والحجر للتيمم، والماء البارد، والحار، والنار، والفحم، والطبخ، ونحو ذلك من ضروريات الانسان، فقد ندب لذلك عليه السلام سيدنا زيد بن ثابت لما كثرت عليه الوفود من كل جهة بالسن مختلفة، قال له : تاتينى كتب لم يعلمها احد، فهل تستطيع ان تتعلم السريانية فقلت نعم، فتعلمتها فى سبع عشرة ليلة، فكان يترجم عنه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بحضرته بالفارسية والرومية، والقبطية، والحبشية وتعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الالسن، وكان يكتب الى الملوك، وكان من اشهر كتاب الوحى، ولذا اختاره ابو بكر رضى الله لجمع القرآن اولا، وعثمان لجمعه ثانيا، فكان هو رئيس الجمع مع الصحابة مع فرط ذكائه رضى الله تعالى عنه .

وقد اشار شراح خليل لحكم التكلم بالعجمية لكن مع القدرة، كما لو كان فى بلاد الاسلام، كبلادنا، كالرباط وفاس، فى قوله فى كتاب الصلاة : او بعجمية لقادر، فان اللسان العربى افضل الالسن اليوم، كيف وهو لغته عليه السلام، ولغة القرآن اشرف الكتب، فمن أكرمه الله تعالى بمعرفة العربى ـ ولا ضرورة تحوجه لغيره ـ لا يتكلم بغيره، ادبا مع كتاب المسلمين: «القرآن العظيم» وقد قيل : من علم لسان قوم امن من مكرهم، وكان شيخنا الفقيه المرنيسى يقول : لا اقل فى البربرية لمن خالطهم : ان يعرف آلة حربهم كالمكحلة والسكين، خوفا منهم ...»

---

22) بمكتبة العلامة البحاثة الجليل محمد بن بوبكر التطوانى بسلا

23) جبل طارق

بعد هذا نذكر ان تأثر المترجم بهذه النهضة ظهر أيضا في عدد من مؤلفاته ومنها :

أ ــ تاليف في تفسير بعض اللغات مثل لغة الفرس، والترك، والفرنسية، والانكليزية، والبربرية.

ب ــ اختصار اقوم المسالك، في معرفة احوال الممالك لخير الدين التونسي .

ج ــ رسالة في علم الجغرافيا .

د ــ رسالة في البوصلة التي تكون في السفن .

هـ ــ زينة النحر، بعلوم البحر .

والمؤلفات الاربعة الاولى لم اقف على واحد منها. ووقفت على آخرها «زينة النحر، بعلوم البحر» قال في خطبته :

« ... لما من الله علي بالتوفيق لاداء فرض الحج» وزيارة بيت المقدس والشام وارض الروم، فاضطررت الى ركوب البحر مرارا، تارة في سفن الشراع، وتارة في سفن النار المسماة بالبابورات، وتلاقيت مع اهل العلم والخبرة بسفر البحر من المسلمين والنصارى، فاقتطفت منهم ما امكنني من حكم سفره لما ورد «الحكمة ضالة المومن يلتقطها ولو من كافر»، كما اشار له ما ورد «اطلبوا العلم ولو بالصين»، مع ان الصين في ذلك الوقت للكفار، قيدت ذلك في هذه الرسالة لينتفع بها من اضطر لركوب البحر ان شاء الله تعالى .

وقد رتب هذه الرسالة على مقدمة وبابين : الباب الاول في سفينة النار المسماة بالبابور وهي الحديثة، تكلم فيه على انواع هذا البابور. وآلاته وادواته، وقدم بعض الارشادات لركابه، ثم اتى بمسائل من الجغرافية، واخيرا تحدث عن التلغراف

اما الباب الثاني الذي موضوعه سفينة الريح القديمة، فقد ذكر فيه بعض انواعها واسمائها وآلاتها، فرغ من تاليف هذه الرسالة عام 1305 = 1887

وهذه الرسالة لا تزال مخطوطة، ومنها نسخة بمكتبة كاتب السطور تقع في صحائف 16 مسطرة 23 حجم متوسط .

22 ــ ابو العباس الناصري

وبعد ابي اسحاق التادلي تجد ابا العباس احمد بن خالد الناصري السلوي المتوفى بها عام 1315 = 1898 العلامة المغربي الشهير .

هذا ايضا من أعلام المغرب الكبار، الذين اقتبسوا من الحضارة الحديثة وتاثروا بها، فقد جاء في ترجمته أنه كان متشوفا دائما الى الاطلاع على المعارف الحديثة، والوقوف على حقائق العلوم العصرية، والمخترعات الاوربية، معجبا بما يصدر منها، ومعطيا لذلك حظه من النظر، معتنيا بمطالعة المجلات العلمية، مولعا بالجرائد السيارة، وترجمتها ان كانت بغير اللغة العربية، واقتباس ما فيها من الفوائد والشوارد وتقييدها والتمعن فيها وانتقادها، وكانت تاتيه من مصر والشام واسبانيا وفرنسا، وما زال الكثير منها محفوظا بخزانته بسلا .

وان هذه اللفتة نحو الحضارة الحديثة اثرت فى عقل الرجل تأثيرا واضحا، فكان يحب تعلم اللغات الاجنبية، ويخالط رجالات اوربا للاقتباس من معارفهم، وكان يهم بارسال بعض انجاله الى اوربا بقصد اخذ العلم فى مدارسها .

وان المترجم اول مؤرخ مغربي اقتبس من المصادر الاوربية، وترجم منها الى العربية، كما نراه متكررا فى تاريخه : «الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى» الذى تضمن ـ نصفه الثانى بالخصوص ـ معلومات كثيرة استقاها مؤلفه من مصادر اسبانية، وبرتغالية، وانجليزية، ونقلها الى العربية بواسطة ترجمان خاص اتخذه لهذه الغاية .

وسوى كتاب «الاستقصا» فقد ظهر المترجم بالنهضة الحديثة فى آثار اخرى ذكرت اسماؤها فى ترجمته (24)

3 ـ علماء المغرب ضد الامتيازات الاجنبية

تعددت مظاهر اليقظة الوطنية فى هذا الطور، ومن اروعها ما كان لعلماء المغرب من مواقف وطنية صريحة ضد اصحاب الحمايات المغاربة ـ من مسلمين ويهود ـ الذين كانوا يدخلون تحت حمايات الدول الاجنبية ضدا على الدولة المغربية .

ومن المعروف ان مقاومة هذه الحمايات كان موقفا اجماعيا من طرف كل علماء المغرب الذين حملوا راية معارضتها بروح اسلامية قوية، وحمية وطنية مثالية .

---

24) لابى العباس الناصرى ترجمة حافلة استقيت منها من كتبته عنه هنا، وقد نشرت فى مقدمة الجزء الاول من «الاستقصاء الطبعة الثانية ـ دار الكتاب ـ الدار البيضاء ـ 1954.

ومن بين هؤلاء العلماء افراد قاوموها كتابة وتاليفا ليخلدوا تلك المواقف الوطنية المبكرة .

واولهم «23» ابو حامد الحاج العربي بن على المشرفى الحسنى المعسكرى ثم الفاسى المتوفى بها عام 1311 = 1893 كتب فى الموضوع عجالة سماها «الرسالة فى اهل البصبور الحثالة» قال فى اولها :

الحمد لله، وبعد فقد توجه سؤال لاهل العلم حفظهم الله بحفظ اهل السنة، وحشرنا فى زمرتهم آمين، عن حادثة حدثت فى قرننا هذا فى حدود السبعين والمائتين والالف، وهي دخول المسلمين تحت كلمة الكفر ـ اعاذنا الله منه ـ ويعبرون عنها بالحماية، معتذرين بها عن تحصين مالهم من ثقل المغارم، مع انهم يجعلون حظا وافرا لمن يحميهم باذلال وطيب نفس، فهل يكون المحتمى بالحماية على هذه الحالة مسلما عاصيا، او خرج عن دينه بالكلية، وللامام ان يحكم فيه باجتهاده ؟

الفها فى حدود 1290 = 1873 ومنها نسخة مخطوطة بمكتبة كاتب السطور تقع فى صحائف 8 مسطرة 24 فى حجم متوسط.

الثانى «24» ابو الحسن علال بن عبد الله الفاسى الفهرى المتوفى عام 1314 = 1896 له عدة خطب ضد اصحاب الحمايات، اشهرها الخطبة المعنونة بـ «ايقاظ السكارى، المحتمين بالنصارى» او «الويل والثبور، لمن احتمى بالبصبور» خطب بها بمحضر السلطان المولى الحسن فى ابتداء دولته

ويوجد بالمكتبة الفاسية بفاس نسخة منها بخط محررها ضمن مجموعة خطب ابى الحسن المذكور فى سفر ضخم، تقع هذه النسخة فى صحائف 14 مسطرة «23» حجم متوسط، وقد اطلعت عليها بواسطة حفيد محررها العلامة المتضلع محمد العابد الفاسى الفهرى امين الخزانة القروية الكبرى بفاس .

الثالث «25» أبو محمد جعفر بن ادريس الكتانى الحسنى الفاسى المتوفى عام 1323 = 1905 وتاليفه «الدواهى المدهية، للفرق المحمية» اجمع واكبر تاليف فى هذا الباب، الفه جوابا عن سؤال فى الموضوع، وبناه على خمس عشرة آية قرآنية ناطقة بتحريم موالاة الكفار والاحتماء بهم، واتى فى كل آية بكلام المفسرين عليها، مضيفا لذلك ـ فى كثير من الايات ـ كلام المحدثين وائمة الفروع وأهل التاريخ والصوفية والادباء، وقد أطال النفس فى الكلام على بعض الآيات ولا سيما آية : «ولا تركنوا الى الذين ظلموا...» اولى الايات التى استدل بها.

وبعد ما اتى على الآيات الخمسة عشر، نقل الكلام الى الحديث - بتوسع - عن مفاسد موالاة الكفار التى اوصلها الى عشرين مفسدة، سار فى شرحها سيره فى الآيات القرآنية الى تمام العشرين، حيث انتهى الكتاب الذى وافق الفراغ من اخراجه من مبيضته 14 ربيع الثانى عام 1303 = 1885 .

يقع هذا الكتاب فى مجلدة صغيرة، ومنه نسخة بخط المؤلف لدى حفيده الاستاذ الجليل محمد المنتصر الكتانى الاستاذ بكلية الشريعة بالجامعة السورية، وهى تحتوى على صحائف 119 مسطرة 19 فى حجم متوسط .

الرابع «26» ابو عبد الله محمد بن ابراهيم السباعى الحسنى المراكشى المتوفى عام 1332 = 1914، الف «كشف النور، عن حقيقة كفر اهل بصبور» وصدره بسؤال عن النازلة يشتمل على ثلاثة فصول، ثم عقب عليه بالجواب يقع هذا التاليف فى ورقات 12 ومنه نسخة - غير معزوة لمؤلفها - بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم 1326 د .

الخامس «27» ابو عيسى المهدى بن محمد بن محمد بن الخضر الوزانى الحسنى الفاسى المتوفى عام 1342 = 1924 له فتوى فى الموضوع رد فيها على من افتى - من غير المغاربة - بجواز الاحتماء بالاجنبى، وهى مثبتة فى «المعيار الجديد» ج 3 ص 47 - 50، ويوجد فى هذا المصدرا يضا فتويان اخريان بمنع الاحتماء بالاجنبى احداهما لبعض معاصرى ابى عيسى الوزانى انظر «المعيار الجديد» ج 3 ص 50 - 53 مع ص 60 - 61 .

فهذه خمسة موضوعات مما حرره علماء المغرب - فى هذه الفترة - ضد الحمايات الاجنبية، وان هذه الموضوعات لتفتح لقارئها نافذة يطل منها على مدى الغيرة والايمان الذى كانت تتسم به مقاومة الامتيازات الاجنبية اذ ذاك، وانها لتزخر بصفحات لامعة تصور الوطنية الحقة، والحمية الاسلامية التى كان القوم يتوفرون عليها.

هذا ولاجل ان يطلع قارىء هذه الرسالة على قبس من تلك الصفحات الناصعة، نذيل هذا الموضوع بمقتبسات من صرخات بعض اولئك الاعلام، فمن صرخات ابى المواهب جعفر الكتانى فى تحريم الاحتماء بالاجنبى ومفاسده هذه النفثة الواردة فى «الدواهى المدهية» :

« ... فثبت بهذه الآيات القرآنية التى هى الدلائل اليقينية، وما نقلناه عليها من كلام الائمة واهل التفسير، صحة ما ذكرناه من تحريم

موالاة الكفار والاحتماء بهم، وبلوغ ذلك الغاية في القبح، وانه من العظائم الموذنة بكل رذيلة، اذ هي نص صريح في ذلك، وتكرار الآي وجريها على وتيرة واحدة مؤكد له، ورافع للاحتمال المتطرق اليه، فان المعنى اذا نص عليه واكد بالتكرار ارتفع الاحتمال فيه، وهل بعد بيان الله بيان، او بعد حكمه حكم، «ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون»، واذا تعاضدت هذه الآيات على هذا التحريم، فلا تجد في تحريمها مخالفا من اهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز - الذي «لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد» - في جميع معمور الارض الاسلامية من مطلع الشمس الى مغربها، فهو تحريم مقطوع به كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق، واخواته من الكليات الخمس التي اطبق ارباب الاديان على تحريمها ...

ومن خالف الآن في هذا التحريم اورام الخلاف، فهو ماق من الدين ومنخرط في سلك الملحدين، ومخالف لجماعة المسلمين، ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ابد الابدين...»

والى هنا ينتهي المراد من الشق الاول من صرخة أبي المواهب الكتاني، ثم ها هو يأخذ في ذكر مفاسد الاحتماء بالاجنبي وما الى ذلك في العبارات التالية :

«والمفاسد الدينية والدنيوية المترتبة على موالاتهم الواقعة والمتوقعة، ويأباها الاسلام ومن فيه عذوبة طبع، وانقياد للشريعة المطهرة : كثيرة جدا لا حصر لها، ولا عد ولا احصاء فسحقا لاهلها ولها، منها ظهور شعائر الكفر.. ومنها الركون الى العدو... ومنها الرضى بحكمه... ومنها التحريض على الضلالة واستنان الشر، وذلك ان كثيرا من الموالين له لم يقتصروا على تلطيخ انفسهم بذلك، بل زادوا الى تحريض من لم يواله عليها وتحسينها له.. ومنها اعانة العدو وتقويته... ومنها تكثير سواده ولو من غير حلول معه او اقامة ببلده، لان الموالين له من جملة رعيته... ومنها الدخول تحت قهره وغلبته، ويتبو منصب الاسلام عن اعلاء غيره عليه، بل يعلو ولا يعلى عليه... ومنها مفارقة جماعة المسلمين... ومنها نبذ العزة الاسلامية، والطاعة الامامية والبيعة السطانية، وظهور السلطان النصراني عليها، واذلاله اياها ...

واذا علمت هذا فاحتجاج الموالين للعدو ولجواز موالاتهم له: بظلم الولاة لهم وتعديهم عليهم باطل، ويكفي في رده مصادمته للآيات القرآنية والاحاديث النبوية، وكلام ائمة الملة الحنيفية، ودلالته على ضعف الايمان

وقلة الايقان، بترجيح عرض دنيوي محتقر، على بهاء دين اخروي يذخر، اوليس للانسان الا دينه، اذ به نجاحه وسعادته ولينه، وعليه يبذل نفسه، فضلا عن جملة ماله الا ان فقد حسه، فهي حجة شيطانية نفسانية، وركوب للهوى وترك للنظر الى الشريعة... وما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم : بالصبر على ظلم الولاة وتعديهم ـ ما لم نر كفرا بواحا ـ الا لدرء مثل هذه المفسدة العظيمة، التي لا مفسدة اعظم منها سوى الكفر صراحة اعاذنا الله منه، ومعلوم انه اذا التقى ضرران ارتكب اخفهما، وبالله عليك أيها الموالي للعدو أي الامرين اخف ؟ أضرب ظهرك واخذ مالك وقتلك بالكلية، ويقتص الله لك من ظالمك يوم القيامة، او اذلال الدين بانحياشك للعدو الكافر وتكثير سواده بك وتقويته، وتسلطه على هذا الجم الغفير من المسلمين، «فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور».

رب ان الهدى هداك وآياتك نور تهدى بها من تشاء

اترى ما يوليه من الاحسان اليك محبة فيك او عدلا منه، لا والله، بل حيلة ومكيدة ليستجلب قلوب كثير من الضعفاء اليه، فيتمكن بذلك من مرامه، ولو وجد عدو الله السبيل الى نبذ العزة الاسلامية من الدنيا بأسرها وقتل المسلمين واستئصالهم عن آخرهم، وسبى ذراريهم ونسائهم، والتمكن من بلادهم واوطانهم، والاستمتاع بحورهم وقصورهم، لكان ذلك غاية مطلوبه ومناه...

وانظر الى حال الصحابة والسلف الصالح والعلماء وائمة الدين المقتدى بهم، والمهتدى بهديهم، وما قاسوه من شدة الاهوال والامتحانات، وعظيم الاذى وهتك الحريم، والضرب والسجن والقتل، وغير ذلك من انواع العذاب التي لا يسع شرحها المجلدات العديدة، ايام اليزيد والحجاج وغيرهما من ولاة الجور الى هلم جرا، هل حصل لهم من ذلك شك وريب، او ما زادهم الا ايمانا وتثبيتا، او بلغك عنهم انهم رامو شيئا من هذه الجريمة الفظيعة، حاشا منصبهم الجليل، ومقامهم المرفع الاثيل، من شيء منها او ما يحوم حولها، اأنت اعرف منهم بدين الله، او وصل اليك من الظلم ما لم يصل اليهم كلا ولا عشر عشره، ولكن قلة الدين، وضعف اليقين، والانهماك في دواعي النفس الامارة، والغرور اللعين، يوذن بهذا واكثر منه .

... نعم لو راقب الولاة الله تعالى، وتذكروا الوقوف بين يديه، والعرض عليه، ومحاسبته لهم على كل جليل وحقير، وكفوا عن المسلمين وعدلوا فيهم، وحكموا بحكم الله تعالى، ووقفوا عند امره ونهيه ولم يتجاوزوا

حدوده، لكان ذلك خيرا لهم في دينهم ودنياهم، ومحياهم ومماتهم، وازكى عند مليكهم، وارضى لنبيهم، واقرب لانحياش رعيتهم اليهم، وانقيادهم لهم، وعونهم ونصرهم .

فلم أر مثل العدل للمرء رافعا ولم أر مثل الجور للمرء واضعا...»

هذه نفثة ابى المواهب الكتاني مقتضبة اقتضابا، وبعدها نقرأ صرخة «رسالة» ابى حامد المشرفي - التي تنادى بمقاطعة اهل الحماية - في الكلمات الآتية :

«... فواجب على كل من يومن بالله واليوم الآخر ان لا يجالس اهل الحماية ولا يصادقهم، ولا يؤاكلهم ولا يعاشرهم ولا يناكحهم، وان يوصى كل من لقيهم بمجانبتهم ومباعدتهم وترك معاملتهم ردعا لامثالهم، لان هذا المنكر - وهو التعلق بالعدو - من اعظم المفاسد في الدين، التي يتعين فيها الزجر والتغليظ، ولا يسمح فيه بوجه ولا حال، وحيث لم يكفهم من له الكلمة من اهل العقد والحل، زادهم ذلك غلظة وفضاضة، وربما شارك المحتمى مسلم آخر، فقوى العدد، وانتشر المدد، واتسع الخرق على الراقع، وعظمت المصيبة، وفسد اعتقاد العامة، حتى ظنوا ان ذلك الدين الفاسد هو الدين الحق، واساءوا الظن بدين الاسلام والعياذ بالله، ومن أعان المحتمى او عاشره او خالطه او ارضته حالته، فهو فاسق ملعون...»

والآن - وقد استعرضت هذه الرسالة صرخات بعض المؤلفين في الموضوع - تقفى على ذلك بالزواجر والفوارع، والتحذيرات والانذارات، التي كانت توجه من علياء المنابر ضدا على المحتمين بالاجانب، ها هي فقرات من خطبة ابى الحسن الفاسي : «ايقاظ السكارى المحتمين بالنصارى» تكون خاتمة هذه الصيحات الوطنية الداوية :

«... فكيف يا أهل لا اله الا الله، يسعكم جحود هذه النعم العظام، ام كيف تقومون بواجب شكرها على ممر الليالي والايام، وقد اصبح سفهاؤكم بها كافرين، ولما رضى الله سبحانه لجميعكم مبدلين ومغيرين، الى ان افضى بهم الحال، فارتكبوا احلولك الاوحال، واستفزهم الشيطان، وقيدهم باشطان، حتى صاروا يتخذون دين الله هزؤا ولعبا، ويميلون لمن عنه من اهل الشرك والضلال أبى، ويرضون بهم أولياء واعوانا، وجيرانا واحبابا واخدانا ويعلنون باتخاذ حمايتهم، ويجهرون بالاتقاء بموالاتهم، كأنهم ما علموا انه لا يحل لاحد يومن بالله واليوم الآخر ان يتخذ صاحبا او صديقا او وليا منهم،

ولا تحققوا ان ذلك يحزنهم، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وايديهم وارجلهم، وقد حذر الله ورسوله المومنين من ولايتهم والاستعانة بهم عليهم، واوعد على ودهم ومصافاتهم ولو كانوا من قرابتهم، بالنص الصريح، في غير ما آية وحديث صحيح... »

4 ـ آراء بعض العلماء المغاربة في تنظيم الجيش المغربي

وهذا مثال جديد من يقظة المغرب الشعبية في هذا الطور، وسوف نجده هذه المرة في آراء بعض العلماء المغاربة في تنظيم الجيش المغربي على الطريقة الحديثة .

وانه لمن المطرب ـ حقا ـ ان تكون طائفة من علماء المغرب من هذا الوقت، يتحمسون للتنظيمات العسكرية الجديدة، ويعلنون بوجوب ذلك، ويرفعون اصواتهم بالمطالبة به، ويبدون آراءهم في كيفية هذا التنظيم، وان التاريخ ليحتفظ بعدد ليس باليسير من رجال هذه الوطنية المبكرة.

ومنهم «28» ابو العباس احمد بن محمد فتحا بن على المرنيسي الفاسي المتوفى عام 1277 = 1860، لـه تأليف في نظام العسكر وكيفيته والادلة على ذلك، يقع في جزء لطيف، ويوجد بالمكتبة الزيدانية بمكناس ضمن مجموع (25)

ثم (29) ابو عيسى محمد المهدى بن الطالب ابـن سودة المرى الفاسي المتوفى عام 1294 = 1876، الـف رسالـة في الموضوع اجاب بها الملك محمد الرابع لما سأله ـ ضمن عشرة من رجال العلم بفاس ـ عن الحكم في التنظيمات العسكرية الحديثة .

استهل هذه الرسالة بتمهيدات موضوعية بنى عليها اعلان الرغبة في اتخاذ تلك التنظيمات الحديثة، ثم استخرج اصول هذه التنظيمات من صميم الشرع الاسلامي : آيات قرآنية. واحاديث نبوية، ليعلن بعد ذلك : «ان النظام ـ اليوم ـ يتأكد طلبه، بل يتعين ويتحتم» وبعد ما افاض في الاستدلال لهذا الوجوب، ختم الرسالة بعدة توجيهات ضمنها آراءه في تنظيم الجيش المغربي الحديث .

توجد مبيضة هذه الرسالة بالمكتبة الاحمدية بفاس ضمن كراسة صغيرة تشتمل ايضا على فتويين اخريين في الموضوع لابى حفص عمر ابن سودة اخ المذكور مع ابى عبد الله محمد [بن عبد الرحمن] الفيلالي [الحجرتي الفاسي]. تشتمل الرسالة على ست صفحات وثلاثة سطور في حجم متوسط.

---

25) «دليل مؤرخ المغرب الاقصى» ص 496

ومن كتب فى هذا الموضوع «ابو العباس احمد بن خالد الناصرى السلوى المار الذكر، فقد خصص فى كتابه «الاستقصاء» فصلا ضافيا ضمنه آراء تقدمية فى تنظيم الجيش وبعض آدابه .

هذا ولاجل ان يطلع قراء هذه الرسالة على بعض نماذج من مواقف علماء المغرب وآرائهم حول تنظيم الجيش المغربى، نحيل على «الاستقصاء» فى الفصل المذكور ج 4 ص 222 ـ 225 كما نورد نفس الرسالة السودية الآنفة الذكر، لاهميتها فى هذا الموضوع، ولعدم انتشارها بالطبع، وهذا نصها من مبيضة محررها .

«الحمد لله ولكاتبه مجيبا مولانا الامام، المنصور بالله المظفر، سيدى محمد بن مولانا عبد الرحمان بن هشام، لما سال ائمة العلم «10» من فاس، عن حكم اتخاذ النظام ـ لما كان الطاغية اصبنيول استولى على تطوان وأخذها وقهر الناس، بعد ما دام الحرب نحو الخمسة اشهر، واعيا الناس النظام الذى كان مع الطاغية، وكان المسلمون انما يقاتلون بكيفية الحرب القديمة ـ وذلك فى رمضان عام 1276 ما نصه :

«الحمد لله الذى امر خصوص عباده المومنين بنظم عموم كلمة المسلمين، وصرف جيش القوة فى الكافرين، والصلاة والسلام على امام المتقين، وسيد المرسلين، وقائد الغر المحجلين، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله المؤيد بصحاح الآيات وباهر المعجزات وقواطع الحجج والبراهين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الخيرة المنتخبين، الدالين على سنته وطريقته، والناصرين لشريعته، والبائعين انفسهم واموالهم فى جهاد اعداء الدين واخماد نار الكفرة الضالين .

هذا وان مما بلغ حد الاشتهار، وتقرر فى مسيرات الافكار، ان البارود لم يكن فى زمانه صلى الله عليه وسلم، ولا زمان الصحابة والتابعين ومن بعدهم رضى الله عنهم اجمعين، حتى كانت أواخر المائة الثامنة فحدث البارود وظهرت فيه مزيد قوة على الرمى بالوتر والمنجنيق، فعلم اهل الاسلام أن غيظ الكفار لا يكون الا باتخاذ البارود والقتال به، إذ الشىء لا يقابل الا بمثله او اقوى منه، فاتخذوا ـ بدل السهام والمنجنيق ـ رصاص البارود والمدافع، فقاتلوا العدو بهذا المتخذ فصانوا وحفظوا دينهم وبلدانهم واهليهم واولادهم واموالهم من الكفار بذلك، بل فتحوا ـ جزاهم الله ـ به مدن الكفار وارضهم، ولم يروا ـ رحمهم الله ـ فى

ذلك بدعة مذمومة، وافتى علماؤهم بأكل المصيد ببندق الرصاص، كمصيد السهام الذى هو محل النص فقيل :

ومـا ببنـدق الرصـاص صيـدا جـواز أكلـه قـد استفيـدا

بل هى بدعة محمودة، قال الابى : «ما شهد الشرع بأصله من البدع هو محمود، كالتحضير للصلاة وزيادة الاذان» انتهى. فان اصله الذى هو الاذن والطلب لاظهار القوة على الكفار ـ بحسب الاستطاعة ـ هو موجود قال تعالى : «يايها النبىء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم»

ثم ان الكفار ـ لعنهم الله ـ احدثـوا قبـل تاريخه ـ الذى هو «1276» ستة وسبعون ومائتان والف ـ بنحو الاربعين سنة : عسكـر النظام فنسوا وانسوا به كيفية الحرب الماضية، لما فيـه من غاية الترتيب، وشدة الحزم، وتمام مراعـاة الحـذر، وعموم القتال برا وبحرا، قربا وبعدا، فما قابلوا به محلا الا نالوا واضروا بأهله، فقد قابلوا به الجزائر سنة 1246، واضروها واقليمها على التمام، واستولوا على النساء والصبيان وكافة من بها من أهل الاسلام، فقام عند ذلك ملوك الاسلام : ملـوك مصـر والشام وتونس وقسطنطينية العظمى على ساق الجد، فأحدثـوا فى بلدانهم جيوش النظام، والتزموه بجميـع وجوهـه وترتيب كيفيات حروبه على التمام، فحمى الله بذلك دينهم ودنياهم : بلدانهم ونساءهم وأولادهم وأموالهم وصانها، فاستراح الناس وأمنوا على دينهم ودنياهم، وكثرت اموالهم وتجارتهم، ولم يبق لعدو الدين طمع فيهم ولا التفات الى صوبهم وجهتهم حينئذ .

فالمطلوب من سيدنا الهمام، المنصور بالله المظفر بالقصد والمرام، المنتظم بخلافته شمل الامة من خاص وعام، فأفاض الله على رعيته ـ بساعد طلعته ـ سجال الخيرات والاكرام، وأنام بعدلـه وحلمـه جميع الانام، فى ظل الامن والانام، ادام الله لنا وجوده، وخلد فى صفحات الدهر نصره وعزه وسعوده : هو اتخاذ جيش يكون ردءا لاهـل الاسـلام، وحفظا لشريعة جده عليه افضل الصـلاة والسلام، فيقاتـل به اهل الخزى والاثام، ويسقى الكفرة كؤوس الحمام، فانه لا وجه فـى الشرع يمنعـه. لان النظام ـ كما علم وربما اشعر لفظه بمعناه ـ هو عبارة عـن نظـم امـور فى الجيش راجعة لتقوية فائدته ونتيجتـه :

منهـا ان الجيش يكون فى الحرب مرتبا على طوائف أتت على جميع وجوه الحرب المكنة، قال تعالى : «واذ غدوت من اهلك تبوىء المومنين مقاعد

للقتال،، حتى ان كل طائفة منهن مكلفة بأمور فى الحرب بحسب استطاعتها وقدرتها، حتى يكون كل فى خدمته لا يشغل باله بغير خدمته، فقد قال تعالى : «ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه»، ومنها ان الجيش يكون على غاية الامتثال والانقياد لاميره، حتى ان تدبيرهم هو تدبيره، وارادتهم هى ارادته، فقد قال تعالى : «يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعو الرسول وأولى الامر منكم»، وورد فى حديث المقداد بن الاسود ـ رضى الله عنه ـ «والله لو خضت بنا يا رسول الله هذا البحر لخضناه»، ومنها ان المقاتلين يكونون فى الحرب صفا كالبنيان او كالجبال، قال تعالى: «ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا» الآية ولذا قيل فى الصحابة رضى الله عنهم :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم

الى آخره، ومنها انه لا ادبار ولا فرار، فقد قال تعالى : «ومن يولهم يومئذ دبره» الآية.

ولا يخفى ان التدبير فى الحرب اكيد، وتحصيل الحيل والخديعة فيه محمود، وفى الحديث : «الحرب خدعة»، اذ رب حيلة انفع من قبيلة، وفى الصحيح انه كان صلى الله عليه وسلم : لا يريد غزوة الاورى بغيرها الا فى غزوة تبوك، فانه لما كان الزمن زمن الحر والسفر بعيد جلا للناس أمرهم .

وكذا المشاورة مطلوبة فى الحرب لاظهار وجه نافع، وقد قال تعالى «وشاورهم فى الامر» فقد شاور صلى الله عليه وسلم فى الحديبية فقال ابو بكر : «يا رسول الله نرى انك خرجت لبيت الله» الى آخره، وشاور صلى الله عليه وسلم يوم احد، وقال لما لبس لامته : «ما كان لنبى اذا لبس لامته ان ينزعها حتى يحكم الله» وان كانت مشاورته صلى الله عليه وسلم انما هى تطيبا لخواطرهم، وتعليما للامة، لا لاستخراج امر من عندهم محتاج اليه لم يكن عنده صلى الله عليه وسلم، بل هو اعلم الناس .

على ان النظام اليوم يتاكد طلبه، بل يتعين ويتحتم، لما شاهده الناس من عدم مقابلة العدو بكيفية قتال سواه، كما اتضح ورأى الناس هذه الآية، فقد قال تعالى : «واعدوا لهم ما استطعتم من قوة» الآية، وفى صحيح مسلم عن عقبة بن عامر : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : «الا ان القوة الرمى» قالها ثلاثة، قال الابى : «هو نحو حديث : «الحج عرفة» وانما كان الرمى أقوى عمل الجهاد، لانه انكى للعدو، ويستوى فيه الجبان والشجاع، واما السلاح فلا يقاتل به الا الشجاع، ولان الرمى ربما يصيب

رئيس العدو فينهزم الجيش» انتهى، وقد قال تعالى : «قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» وقال عز وجل : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم» الآية، وعنه صلى الله عليه وسلم : «رحم الله امرءا أراهم من نفسه قوة»، وقال تعالى : «ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون» الى آخره، وقال تقدست اسماؤه وصفاته : «يايها النبيء جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم»، الى غير ذلك من الآيات والاحاديث، فذلك مفيد للوجوب، ومنتج لتعين اتخاذه، الا ترى الى بسط الدليل من الآية الاولى في قياس من الشكل الاول، نظمه هو ان يقال : اتخاذ النظام اليوم قوة مستطاعة للمسلمين على الكفار وكل قوة مستطاعة للمسلمين على الكفار تجب عليهم، فينتج : اتخاذ النظام اليوم يجب على المسمين وهذا هو المدعى المطلوب اما دليل صدق المقدمة الصغرى فضروري أو كالضروري ، واما صدق المقدمة الكبرى فمن الآية، اذ الامر هو ـ كما عند الاصوليين ـ للوجوب حقيقة، وكذا يقال في بسط الدليل من الاية الثانية في قياس من ذلك الشكل، فيقال : اتخاذ النظام اليوم هو غلظة على الكفار، وكل غلظة على الكفار واجبة، فينتج: اتخاذ النظام اليوم واجب، وهو المراد المطلوب، ودليل صدق مقدمتى القياس هو على نحو ما تقدم في القياس قبل.

هذا وان الدين النصيحة، قيل لمن يا رسول الله ؟ فقال لله ولرسوله ولكتابه وعامة المسلمين وخاصتهم، وفي الحديث «لا ضرر ولا ضرار» وهو من الاحاديث التي عليها مبنى الفقه والشريعة، فلا باس بذكر امور اربعة

الاول انه لابد من حكم العسكر حتى لا يضر بابضاع المسلمين واموالهم واولادهم، لانه انما كان لقضى الحكم ورفع الضرر، ومن كان فاسدا في نفسه، مفسدا لغيره، فكيف يرتفع به الفساد، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «انهوا جيوشكم عن الفساد، فانه ما فسد جيش قط الا سلط الله عليهم الرجلة اى موت دوابهم وخيلهم، وانهوا جيوشكم عن الغلول فانه ما غل جيش قط الا قذف الله الرعب في قلوبهم، وانهوا جيوشكم عن الزنى فانه ما زنى جيش قط الا سلط الله عليهم الموتان : اى الوباء العام»، فالحدود واضحة مقدرة، واما التعازير في المعاصي فهي موكولة لاجتهاد الامام، قال خليل «وعزز الامام لمعصية الله» الى آخره .

الثاني : انه يوسع عليه اكلا وشربا ولباسا ودراهم لقضاء بعض حاجاته المباحة، لانه قد سلم نفسه للمسلمين في جميع الاوقات، ليست له خدمة الا في معنى الحرب : ان امر ائتمر، وان استنفر الان كان جوابه

الفعل والسير، وان حضر صف القتال لا يفر الا ان مات، فالتوسعة حينئذ هي في مقابلة ما بذله وباعه، وقد قال الامام الطرطوشي ـ رضي الله عنه ـ ما معناه: الجيش حصن الملك، وجنوده، ومعاقله، وحماة البيضة، والدافعون عن العورة، وحصون الثغور، وامن السبيل، الى غير ذلك، ومن تمام التوسعة عليه والبرور ان من مات منه او قتل وله اهل، ينفق على اولاده، قال صلى الله عليه وسلم : «من ترك كلا او ضياعا فالى وعلى».

الثالث انه بعد مدة ليس عليه فيها كبير ضرر، يخير بين الخروج فيستبدل خلافه، او البقاء، لان ما عقد عليه هو كالاجازة: فلا يبقى الى الموت، لانه جهل، بل يوقف عند المدة المذكورة ويخير، والبقاء في ربقة الحجر والرقيه الى الموت ضرر، والضرر يزال، وايضا فان التخيير المذكور هو استيلاف به، فيكثر الداخلون ويشحون بالخروج ويبخلون به.

الرابع ان كل واحد من تاجر وحراث ومحترف ومتكسب بالغنم والبقر وغير ذلك : هو داخل في النظام وساع في امره، لان تلك هي اسباب للعمارة وتكثير الاموال، فتكثر حينئذ الجباية والاعشار الاموال، فان الاموال هي مدد جيش النظام وقوامه، اذ لولا المال ما دام نظام، بل ولا كان، ومن كلام الحكماء: «لا ملك الا من جند ولا جند الا من مال، ولا مال الا من جباية، ولا جباية الا من عمارة، ولا عمارة الا بالعدل»، فالعدل أساس الجميع.

فالعدل اذا انتشر في الرعية مات الباطل، ونمت التجارة والزرع والانعام، وامتلأت الايدي بالخير، وحصلت المروءة حتى للعامة، وحفظ الدين، وكثر الداخل على الملوك، واستراح الرئيس والمرؤوس، والله اعلم، وكتبه ـ رادا العلم الى العلى الكبير ـ عبد ربه، واسر ذنبه، محمد المهدى ابن الطالب بن سودة، لطف الله به في الدارين، وفي 28 رمضان عام 1276»

5 ـ توجيهات بعض العلماء المغاربة لاصلاح الحالة بالمغرب

ويتعلق الامر هنا برسالة لعالم مغربي تتضمن افكار اصلاحية، ويحاول مؤلفها ان يستخدم هذه الافكار لانقاذ المغرب من الازمة الاقتصادية والعسكرية والسياسية التى كان يتخبط فيها خلال هذا الطور، ومن سوء الحظ ان لا يتيسر الوقوف على نفس الرسالة، وانما المعروف منها ـ لحد الآن ـ هو برنامجها الذى أثبته فقيد التاريخ المغربي محمد بن احمد الكانوني العبدى ثم الاسفي في احدى مقيداته التى وقف عليها العلامة السلفي البحاثة محمد

ابراهيم الكتاني أمين قسم المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية بالرباط، وهذا نص ما في المقيدة عن المؤلف والتاليف المذكورين :

«30» ابو عثمان سعيد بن عبد الله الخليفي المحمدي الدكالي

الفقيه المشارك، النبيه، الذكي، السريع الحفظ، السيال الذهن، ولد بثغر الجديدة، وجال بالمغرب، ورحل للمشرق، فمكث في رحلته نحو نحو «20» سنة قرأ فيها العلم، ورجع يتابط علما جما، يتوقد ذكاء وفهما ... وكان ـ رحمه الله ـ من نبغاء دهره، وناهيك به من رجل رحل من بلده دكالة، ودخل الجزائر، واستوطن صحراء الزاب، ودخل مصر وغيرها من الديار المشرقية، واستفاد معلومات جمة، ورأى نهضة اوربا في علومها واستفاد منها، ولما رأى خطرها محدقا بالمغرب، ورأى المولى الحسن يحيط به اصحاب علم الجدول والتنجيم، كتب له تاليفا في السياسة الرشيدة التي ينفذ بها المغرب، سماه : «وردة الناشق، وروضة العاشق» ثم سماه «التحفة الدكالية، الى الحضرة العلية»، اوله :

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان، وامره بالعدل والاحسان... ورتبه على خمسة ابواب في كل باب ثلاثة فصول :

الباب الاول في المغرب واحواله، ورجوع صحته بعد اعتلاله.

الفصل الاول منه في «النقد» اي السكة وما وقع فيه من النقص.

الثاني في ثغور البحر المغربية، وما تحتاج اليه من الامور الحربية.

الثالث في العساكر والاجناد، وما تحتاج اليه من مؤونة وزاد.

الباب الثاني في الدين ومكانته، وكيف دخل الوهن على اركانه.

الفصل الاول منه فيما اعتادته النفوس، من الترفه في الماكول والمشروب والملبوس.

الثاني في الامور الداعية، الى تعطيل الحدود الشرعية

الثالث في الامور الداعية الى الفجور، الحاملة على الكذب وشهادة الزور.

الباب الثالث في حال دول الروم واستفحالها، واقتدائها بكتب الاسلام وانتحالها.

الفصل الاول منه فيما يستحسن من امورهم الدنيوية، وبيان الخصلة التي اصبحت قلوبهم بها متساوية.

الثاني في خبر الجنس الجائر، وما ادخل من المظالم والمكاره على عرب الجزائر .

الثالث في الاسباب الداعية الى فساد الملك واختلاله، المبشرة بانقضائه وزواله .

الباب الرابع في خبر صاحب هذا لخطبة وترجمته وتاريخ ولادته ورحلته .

الفصل الاول منه في نشأته يتيما ومحنته، واغترابه إلى صحراء الزاب ورحلته .

الثاني فيما له من المحفوظات التي لا يشك في حفظها، ولا يتوقف في سردها .

الثالث فيما له من الرسائل، المشتملة على ضروب المدح والوسائل .

الباب الخامس في خبر الامير المؤيد، مولانا الحسن بن محمد .

الفصل الاول منه في تاريخه ونسبه، وحسن سيرته ومذهبه .

الفصل الثاني في احواله المرضية، وشفقته على الرعية .

الثالث في سيرته مع اجناس الروم، وكيف قاومهم مقاومة الترياق للسموم

وكان تاليفه له بمصر سنة 1304، وقدمه للسلطان مولاي الحسن ارشادا له وتنبيها .

وقد اجتمع به العلامة ابن التهامي الوزاني الفاسي بدكالة، وصادف ـ ايضا ـ فقهاء دكالة مجتمعين عليه، فلما اختبره ورأى فهمه وحفظه قال : «لو ان السلطان بني له مدرسة بابي ينور لاستغني الناس به عن فاس ومصر» وناهيك بها شهادة من مثله .

توفي ـ رحمه الله ـ باسفي في العشرة الاولى من القرن الرابع عشر الهجري»

هذا كلام المؤرخ الكانوني عن هذه الشخصية ومؤلفها، واذا كان الى ما اعلق به على هذه الترجمة، فهو الرغبة في ان تتظافر جهود الباحثين للعثور على هذا الكتاب القيم.

6 ـ ظهور الصحافة العربية بالمغرب

لم تظهر الصحافة العربية ـ في هذا الطور ـ على يد المغاربة، وانما كان يتولى ادارتها أفراد من الجالية العربية بالمغرب والجريدة الوحيدة التى صدرت بالمغرب اذ ذاك هي : «المغرب»

ويتناولها هذا البحث باعتبارها اول جريدة عربية صدرت بالمغرب المستقل، وباعتبار انها كانت تمهيدا لنشأة صحفيين مغاربة أسسوا جرائد مغربية، كما هو الواقع فيما بعد هذا الطور .

فلهذين الاعتبارين يكون من حق هذا البحث ان يقدم عن جريدة المغرب المعلومات التالية :

ان هذه الجريدة كانت تحمل ـ كما عرفنا ـ اسم «المغرب»، وتعتبر نفسها اول جريدة عربية طبعت بمراكش، كما تكتب هذا بجانب عنوانها، وكانت تصدر بمدينة طنجة مرة فى الاسبوع .

ويرجع تاريخ صدور اول عدد منها الى يوم الاربعاء 14 رمضان عام 1306 الموافق 15 مايو سنة 1889، وقد ثبت فى خاتمة العدد الاول منها اسماء عيسى ـ كلارجى ـ كسبانى ـ كأصحاب لجريدة المغرب، وفى عدد آخر منها كتب ـ فى طليعة الجريدة ـ اسماء اصحابها هكذا : عيسى فرج، وسليم كسبانى .

وكانت قيمة الاشتراك : فى طنجة عن عام خمسين بليونا، وعن نصف عام ثلاثين بليونا، وفى الجهات الاخرى عن عام ستين بليونا، وعن نصف عام خمسة وثلاثين، وثمن النسخة الواحدة بليون .

حجم العدد الاول من الجريدة : 405 × 257 م م. وعدد صحائفها اربعة، فى كل صحيفة ثلاثة اعمدة، وليس بها رسوم .

اما عن خطة الجريدة فانها تعلن عن نفسها بأنها : اخبارية ادبية علمية، وقد وضحت خطتها اثناء الافتتاحية المطولة للعدد الاول التى جاء فيها :

«واذ كانت هذه البلاد مفتقرة الى جريدة عربية اللغة والمشرب، لنشر الانباء الحقيقية، والحقائق العلمية، والاستنباطات المستحدثة الصناعية التى من شأنها ترقية منزلة البلاد، بأن تثير فى رؤوس اهلها نار الحمية العربية، وتدب فيهم النخوة الوطنية، وتنهض همم الرجال، من حضيض الاهمال: الى التدرج فى مراقى الكمال، لكى يسعوا فى اصلاح حالة بلادهم، باذلين النفس والنفيس فى دره المفاسد عنها، وجلب المنافع اليها، وكل ما

يعود الى رفع رتبتها، عاملين علـى مكانتهم فـي مجاراة بقية البلدان مضمار النجاح والقـوة، ومجال العلوم والصناعات، وتوسيع دائرة التجارات، حتى ينتصر فيها اناس ذوو غيرة وطنية، يذبون عن مصالح بلادهم، ويحومون عن حقوقها، يدافعون عن الحـق ولا يرهبون فيه لومة لائم، وتذكرهم ايضا بما حازوا من قصب السباق فى ميدان التقـدم والرفعة فيما سلف من العصور واحرزوا من المجد والشرف، فيما كر من الايام، وغبر الاعوام...»

ثم جاء فى ختام هذه الافتتاحية :

«واننا قد اعتضدنا على بذل وسعنا فـي خدمة البلاد، ونشر فوائد العلم، والله يعلم ان قصدنا بهذه الجريدة نصرة العلم وخدمة الانسانية على الاطلاق، وجل غرضنا خدمة السلطان، والذود عن حقوق جلالته، والانتصار لمصلحته اذا اقتضت الحـال، ناشريـن فيها مـا يسر رايه الكريم، ويظهر حكمته الفائقة، وسياسته القويمة، ويعلن فضله العميم، وخيره الجسيم، على الرعية التى قد ملكه الله مـن امرهـا. حريصين على توسيع دائرة المعارف، وامتداد نطـاق العلم، متجنين كلما يخل فى سياسة البلاد وخير العباد، او يرجع الى اختلاف الاهواء والمشارب، بل مما يؤلف بين القلوب، ويجمع بين الافكار، فان احسنا فانا قصدنا الاحسان، وان اخطانا فالانسان موضع الخطأ والنسيـان »

وقد تممت هذه الجريدة الحديث عن خطتهـا فـي خاتمة مقالة اخرى من نفس العدد جاء فيها :

«اننا قد عزمنا على اصدار هذه الجريدة يوم الاربعاء فى كل اسبوع متخذين لها ما هو اقرب تناولا من الكلام، وادنى لتقرير المعانى فى الافهام، متنزهين عن جانب المبالغة والاطراء، غير متصدين للعبارات الوعرة المسالك، التى لا يـدرك كنهها الا نفـر قليل من الناس، محاولين على بسط مارق من الالفاظ، فى عبارات سهلة الاسلوب والمأخذ.

وقد اخترنا لها هذا النوع من الترتيب والتبويب، مشتملـة على المهم من اخبار السياسة، والانفع من مباحث العلـم والادب، حتى اذا رأينا اقبال الناس عليها، ورغبتهم فيها، لا نلبث ان نزيد حجمها، ونوسع دائرتها، ونعمم فوائدها ونعظمها، آملين اننا لا نحترم من اعانة ذوى الفضـل من اهل الحلم والعدل، راجين انهم يتحفوننا بما يسنح لهم مـن الآراء السديدة، ويقفون عليه من الاخبار المفيـدة، والحوادث التى تعـود بالنفع العميم، فان المغرب

لا يعدم عددا ليس بقليل من اولياء الادب، الذين يعززون التعاون على المصلحة العمومية .

فعلى كل من يرغب الاشتراك معنا فى هذه الخطة، ويروم الحصول على هذه الجريدة، ان يعرفنا كتابة باسمه والقابه ومكانه، حتى نرسل له الجريدة فى حينها، وانا ـ وان كنا بادىء بدء ـ بعيدين عن درجة الكمال، قاصرين عن ارضاء بعض العالمين، فاننا نعرف من انفسنا سلامة النية ، ونبالة القصد، ونجهد جهد من يفوته بعض ما يروم الحصول عليه، ولو كان مشروعنا هذا مما تبيض منه وجوه وتسود منه وجوه، وما تسود منه الا وجوه الظالمين، ولا يأباه الا ذو الطبع اللئيم.

ولئلا يتوهمن احد أنا من ذوى الغايات والاغراض السياسية (26) آراء ذوى السياسة من اهل الحل والعقد، غير متعرضين لبث ما يبدو لنا فيها، مراعين جانب الاعتدال فى كل الاحوال، حذرا من ان نرمى باسهم الشكوك والظنون، ودفعا للتمويه عن افكار المريبين، ولكنا فى بعض الاحيان لا نرى مندوحة عن كشف الحقيقة واظهار الحق للعيان، لا نخاف فيه لوما ولا نخشى وعيدا .

وقد فتحنا بابا للاعلانات لتسهيل امور التجارة والمعاملات، لكى يجد كل من يروم ـ من التجار والشركات ـ اشهار محل تجارته وما يتعاطاه من الاصناف لجمهور الناس فى الاقطار المغربية، وسيلة تبلغه من نيل مأربه فى وقت وجيز، فعلى كل من يرغب ذلك ان يخابرنا بشأنه، وانا مستعدون لادراج كل ما يصل الينا من اخبار جهات بلاد المغرب المختلفة، بشرط ان تكون الرسائل الواردة الينا خالية عن كل ما يشوش الاذهان، حسنة الخط، مذيلة بامضاء كاتبها، ومن قصد مراسلتنا فعليه بمخابرتنا كتابة وله الفضل ومزيد الشكر .

وانا قادرون على طبع ما يطلب منا فى اللغة العربية على اتم ما يكون من الضبط والاتقان، بأسعار معتدلة، ونسأل الله ان يدخلنا مدخل توفيق، ويخرجنا مخرج توفيق، والسلام»

والى هنا تنتهى الفقرات الخاصة بخطة الجريدة، والواردة فى عددها الاول، وقد تعمدت ان اثبتها على طولها، لنقرأ تلك الفقرات من ظواهرها وبواطنها، ولنستشف من وراء ذلك خطة الجريدة ومقاصدها، وايضا لنعرف طريقتها فى الكتابة، والاسلوب الصحفى بالمغرب المستقل اذ ذاك .

(26) تعبير غامض

وبعد، فان الذى وقفت عليه من هذه الجريدة عددان اثنان لا غير : العدد الاول الذى تكرر الحديث عنه فى هذا الباب، وهو محفوظ ضمن المجموعة القيمة للصحف العربية التى تنفرد بها مكتبة مؤرخ تطوان العلامة الجليل سيدى محمد داود حفظه الله، اما العدد الثانى فهو محفوظ بمكتبة كاتب السطور، ويحمل تاريخ السبت 4 ذى الحجة عام 1306 = 3 غشت 1889 وهو العدد «11»، وما سوى هاذين العددين لم اقف عليه. كما اجهل التاريخ الذى وقفت فيه هذه الجريدة عن الصدور، وسبب ذلك .

7 ـ مظاهر اليقظة فى الادب المغربى

تعددت مظاهر اليقظة فى ادب هذا الطور، وتقدمت امثلة لها فى ثنايا هذا البحث، ونأتى هنا بقبس آخر منه مما يتصل بمأساة تطوان التى خلفت وراءها مجموعة لا بأس بها من أدب اليقظة المغربية وسوف يقدم هذا البحث ـ كنماذج من تلك المجموعة ـ قطعتين من عبرات المغاربة على تطوان. وصرخاتهم ضد الاسبان .

الاولى : خطبة القيت ـ فى احدى الجمع ـ من منبر جامع القرويين بفاس، بعد الاعتداء على تطوان، وهى من انشاء والقاء «31» ابى محمد عبد الكبير ابن المجذوب الفهرى الفاسى المتوفى عام 1295 = 1877.

الثانية : قصيدة «32» السيد مفضل بن محمد بن الهاشمى افيلال التطوانى المتوفى بها عام 1304 + 1886.

فمن الخطبة الفاسية :

عباد الله اخرج الامام مسلم فى صحيحه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء، فعلى غربة الدين يا عباد الله فليبك دما من كان باكيا، وعلى ضعف اهله فليتمن المومن الموت لنفسه رائحا وغاديا. روى الامام احمد والبيهقى عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل على قبر الرجل فيقول يا ليتنى مكانه، وفى رواية الديلمى عن ابى ذر: «لا تقوم الساعة حتى يرى الحى الميت على أعواده فيقول يا ليته كان مكان هذا» وفى أخرى يأتى على الناس زمان.

وقد أظل المومنين ذلك الزمان الذى اظلم جوه وليس الخبر كالعيان لا يأتى يوم الا والذى بعده شر، ولا ساعة الا وما بعدها ادهى وامر، ونحن

غافلــون تعسا، نعلل انفسنا للخير بلعــل وعسى، كمــا كنا هذه مدة نعللها بأخبار الواردين، وأن النصر والغلبة لحزب الله المجاهدين، وأغفلنا ذلك عما نعلمه مــن ان الحــروب سجال، فتارة «حذف» وآونة ندال، وان من ظن فى الحروب أن لا يصاب، فقد اخطأ وما اصاب، الى ان دهينا بأمر يروع الافئدة ويذهل العقول، ويفتــى الحيل ويكل فيه المقول، وقويت فينا اطماع الخبيث ومنه الينا يساق الحديث، وشن علينا الغارة، وانشب فينا اظفاره، واعلق بنا أطماعه ومد الينا ذراعــه وباعه، مــع ما بنا من التغافل عنه والتهاون، الى ان فاجأ بالمكر يتيمة عقد مدائن المغرب تطاون، دار اسلام من لدن نشأتها، على حسنها وبهجتها، وما بها من العلم والدين، وشعائره وعــدة الجهاد وذخائره والفضلاء والصالحين، وضعفــة عبــاد الله المومنين، باتت دار إسلام ودين، فأصبحت متــوى كفــرة متمرديــن، كانت فى مدائن الاسلام تاجا واكليلا، فصارت مقر المردة يعبدون الاوثان ولا يهجعون الا قليلا، فما اعظمها من مصيبة طامة، اصابت الخاصة من المومنين والعامة، وما افزعها من رزية، فتتت اكباد المومنين من البرية، هل يأسف المومن على خصوص دينها واسلامها، او على ذلــك مع ضعفــة اهلها وذراريها وحريمها وايتامها، انستنا مصيبة الجزائر واعمالها، وذهاب دينها وملكها ومالها، ولم يقع منا بذلك اتعاظ واعتبار، بل اتخذناه قصصا وخبرا من الاخبار، حتى سرى شؤم ذلك الينا، وطمحت نفس العدو الكافر للهجوم علينا، كما قال بعضهم : ان من الناس من لومات نصف احدهم ما اتعظ النصف الآخر، ولا احسبنى الا منهم ..

فانهضوا ــ رحمكم الله ــ لاعلاء كلمة الله سراعا، وكونوا لقتال اعداء الله أطول الناس باعا، وتداركوا رمــق الديــن قبل أن يفوت، وبادروا عليل الاسلام قبل ان يموت، فها هو ينتظر اليكم نظر السقيم الى الطبيب، ويتشوق اليكم تشوق المحب للحبيب، فاجعلوا ــ اعانكم الله ــ يد الاسلام واحدة على جهاد اعدائكم، وخيبوا مطمعكم الفاسد فى نيل بلادكم، ولا تقتصروا على نصر كنصر النساء بالبكاء والتحسر، والتــأوه والتشكى والتضجر، عسى الله أن يهيىء للمسلمين فرجا، ويجعل لهم من أمرهم مخرجا، فــان انتظار الفرج مع الصبر عبادة، والتضرع بين يدى الله سبب يرحم الله به عباده» (27).

---

27) يوجــد النص الكامل لهذه الخطبة ضمن كناشة بمكتبة جامع هذه الرسالة

وقال السيد مفضل افيلال :

ويا دهر قل لي على مه — كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهي — ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام — للرفع كان علامه
ملكته لاعاد — ليست تساوى قلامه
فالدين يبكى بدمع — يحكيه صوب الغمامه
على مساجد أضحت — تباع فيها المدامه
كم من ضريح ولي — تلوح منه الكرامه
علق فيه رهيب — صليبه ولجامه
ومنزل لشريف — وعالم ذى استقامه
صار كنيفا لعلج — ولم يراع احترامه
وكم وكم من امور — للدين فيها اهتضامه
تبكى عليها عيون — كآبة وندامه
تطوان ما كنت الا — بين البلاد حمامه
او كخطيب تردى — من بعد لبس العمامه
بل كنت روضا بهيجا — زهرك ابدى ابتسامه
او كمحيا عروس — علاه فى الخد شامه
فقت بهاء وحسنا — فاسا ومصر وشامه
رماك بالعين دهر — ولا كزرقا اليمامه
ففرق الاهل حتى — لم يبق الا ارتسامه
ما كان أحلى زمانا — وما الذ غرامه
مضى لنا مع بدور — دوى نهى وفخامه
ما بين انشاد شعر — وبين انشا مقامه
وشملنا فى التئام — والبسط يهوى التئامه
حن السرور اليه — شوقا ورام التئامه
ساعده السعد حتى — نال المنى ومرامه

يا حسنها من ليال   لو لم تصر كالمنامه
تطوان يا دار أنس   وخيس اهل الزعامه
هل للوصول سبيل   فالهجر اكمل عامه
والقلب ذاب اشتياقا   وحسرة واستهامه
والوجد اضعف جسما   وكاد يبرى عظامه
ياهل تطوان صبرا   فما لخطب ادامه
دوام حال محال   وهل لظل اقامه
ان غاب نجم سعود   ولاح نجم شآمه
فسوف يطلع بدر   يمحو سناه ظلامه
فاعتصموا برجاء   وارعوا بصدق ذمامه
وحسنوا الظن تنجوا   دنيا ويوم القيامه
وفوضوا الامر لله   يكف عنا انتقامه
ما فاز الا ذكي   قدم خيرا امامه
حيث اقامه يرضى   ولو بقصر كتامه
ولا يزل ذا انتظار   في كل وقت ختامه
يراقب الله سرا   وجهرة باستدامه
يطلب حسن ختام   وحل دار المقامه (28)

28) الاستقصا ج 4 ص 217 – 218

حسان عـوض

الاشجار المثمـرة فـي المغـرب (1)

1 ـ المقدمة

ان تنوع الظروف المناخية ومعالم السطح في المغرب يسمح بتعدد الاثمار والفاكهة فيه، ويشترك المغرب في هذه الخاصية مع جارتيه تونس والجزائر في أهمية الزراعات الشجرية التي تكون جزءا من المنظر الزراعي العام في معظم الجهات، بل ان هناك من الاقاليم ما يجعل من الزراعات الشجرية تخصصا كبيرا له .

ويبلغ تنوع الاشجار المثمرة في المغرب درجة كبيرة. واكثرها انتشارا هي هذه التي تكون جزءا لا يتجزأ من المنظر العام في بلاد حوض البحر المتوسط. واكبر هذه الاشجار شأنا واعمها اشجار الزيتون، والكروم، والحوامض، ثم أشجار التين واللوز، والمشمش وغيرها. على أن امتداد المغرب في المناطق الصحراوية الجافة جعله يضيف الى اشجار البحر المتوسط أشجارا أخرى من اهمها نخيل التمر في مناطق الحافة الجنوبية. كما ان ارتفاع جباله وهضابه يسمح بنمو بعض اشجار فاكهة المناطق الشمالية .

وتحتل الاشجار المثمرة في المغرب مساحة تعادل عشر مجموع المساحة المزروعة وقد يبدو لاول وهلة ان هذه المساحة ضئيلة والواقع انها كبيرة اذا عرفنا أن قيمة ما يغله هكتار من الاشجار المثمرة يعادل عدة امثال ما تغله نفس المساحة ان هي خصصت لزراعات ومحاصيل الحقل العادية كالحبوب .

ونورد فيما يلي احصائية تبين مساحة الاشجار المثمرة بالنسبة لمجموع المساحة المزروعة وتطور هذه المساحات في السنوات الاخيرة :

السنة	المساحة التي تشغلها الاشجار المثمرة بالهكتار	مجموع المساحة المزروعة بالهكتار
1940	288.000	5.076.700
1950	412.000	4.849.500
1960	550.000	5.206.500

1) بحث مقدم الى المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (لجنة الجغرافيا) بمناسبة المؤتمر الاول للجغرافيين العرب المزمع عقده في القاهرة في اوائل سنة 1962

ويتضح من ذلك ان المساحة المزروعة بالاشجار المثمرة تضاعفت تقريبا في العشرين سنة الاخيرة بينما لم يرتفع مجموع المساحة الكلية الا قليلا فبعد ان كانت تشغل $\frac{1}{17}$ من مجموع المساحة المنزرعة اصبحت كما سبق أن أشرنا تشغل ما يزيد على عشر هذه المساحة مما يدل على ان التوسع الزراعي الافقي في المغرب يكاد يتجه في كليته الى العناية بالاشجار المثمرة والاقبال على غرسها اكثر من اتجاهه ناحية محاصيل الحقل المختلفة. على أن هذا التوسع لم يتناول جميع أنواع الاشجار المثمرة بدرجة واحدة كما سنفصل ذلك فيما بعد .

ونستطيع منذ الآن ان نفرق بين مجموعتين من الاشجار المثمرة من حيث الغرض من الانتاج والهدف الذى يرمى اليه، ومن حيث اهميتها في التبادل الداخلي او الخارجي. فهناك أشجار مثمرة اصبحت منذ زمن طويل جزءا لا يتجزأ من طبيعة بلاد المغرب تدخل في نظام معين من أساليب الحياة، وهناك اشجار مثمرة بعضها ينتمي الى المجموعة الاولى ولكنه اتخذ اهمية جديدة ودخل في حلبة المبادلات التجارية بصورة ملحوظة منذ عهد حديث جدا. ومن اهم اشجار المجموعة الاولى شجرة الزيتون والتين واللوز والتمر، ومن أشجار المجموعة الثانية الموالح والكروم. ولسهولة العرض والمعالجة سنعالج كل مجموعة على حدة ولو ان هناك تداخلا فيما بينهما .

2 ـ أشجار مجموعة الاستهلاك المحلي

تمتاز هذه المجموعة بانه يئول الى المغاربة انفسهم ملكية الجزء الاكبر من المساحات المنزرعة ومن الاشجار (اكثر من 90 في المائة). ويقوم انتاجها بدور اساسي في غذاء السكان كما انه قد يمون السوق الداخلية. ولكن نصيب هذا الانتاج في التجارة الخارجية ضئيل اذا قورن بنصيب اشجار المجموعة الثانية .

ا ـ الزيتون

هي الشجرة الغالبة التي نصادفها في كل مكان تتوفر فيه موارد الحياة سواء اعتمدت هذه الموارد على مياه الري ام على ماء المطر. فتشغل شجرة الزيتون المركز الاول بين الاشجار المثمرة من ناحية العدد (13 مليون شجرة) ومن ناحية اهميتها الاجتماعية .

والزيتون شجرة مرنة تنتشر انتشارا كبيرا في كل ارجاء المغرب باستثناء الجبال الشديدة الارتفاع. على ان هناك منطقتين كبيرتين تتركز فيهما ثلثا المساحة المنزرعة تقريبا وهما :

1) شمال المغرب من وجدة الى وزان عن طريق فاس ومكناس بما في ذلك كل اقليم جنوب الريف الجبلي .

2) سهول حضيض الجبل عند قدم الاطلس المتوسط (اقليم تادلا) من ناحية وقدم الاطلس الكبير (اقليم مراكش في الشمال والسوس في في الجنوب) من ناحية اخرى (شكل رقم 1).

وتبلغ المساحة الحالية لمزارع الزيتون 130.000 هكتار لا يمتلك الاجانب منها سوى النذر اليسير (10 في المائة تقريبا). ولا غرابة في ذلك فزراعة الزيتون زراعة تقليدية كبيرة في كل بلاد المغرب العربي وظلت كذلك بعد ان انتشر الاستعمار الزراعي بها.

وبالرغم من بطء نمو الشجرة وإثمارها إلا أن مساحة المزارع اتسعت وازدادت الى الضعف في الثلاثين سنة الاخيرة. وبلغ معدل الزيادة في المساحة اكثر من 30 في المائة لكل عشر سنوات وتشير الدلائل الى ان هذا المعدل سيستمر على هذه الصورة في السنوات المقبلة. وفيما يلي جدول يبين التطور في المساحة والزيادة في عدد أشجار الزيتون في الفترة ما بين سنتي 1930 ـ 1960 .

السنة	المساحة بالهكتار	عدد الاشجار	
1930	55.000	5.000.000	تقريبا
1935	70.000	8.300.000	»
1940	83.000	7.000.000	»
1945	93.000	9.200.000	»
1950	106.000	10.000.000	»
1955	127.000	12.000.000	»
1960	130.000	13.000.000	»

ومرجع هذا التوسع ان شجرة الزيتون تعتبر في الواقع من افضل الزراعات لاستثمار بقاع كثيرة بدونها تظل الارض مجدبة غير منتجة إما بسبب انحدار السطح انحدارا كبيرا أو بسبب وهن التربة وضعفها. وكثيراً ما تغرس الشجرة على السفوح المعرضة لجرف التربة وازاحتها قصد حماية

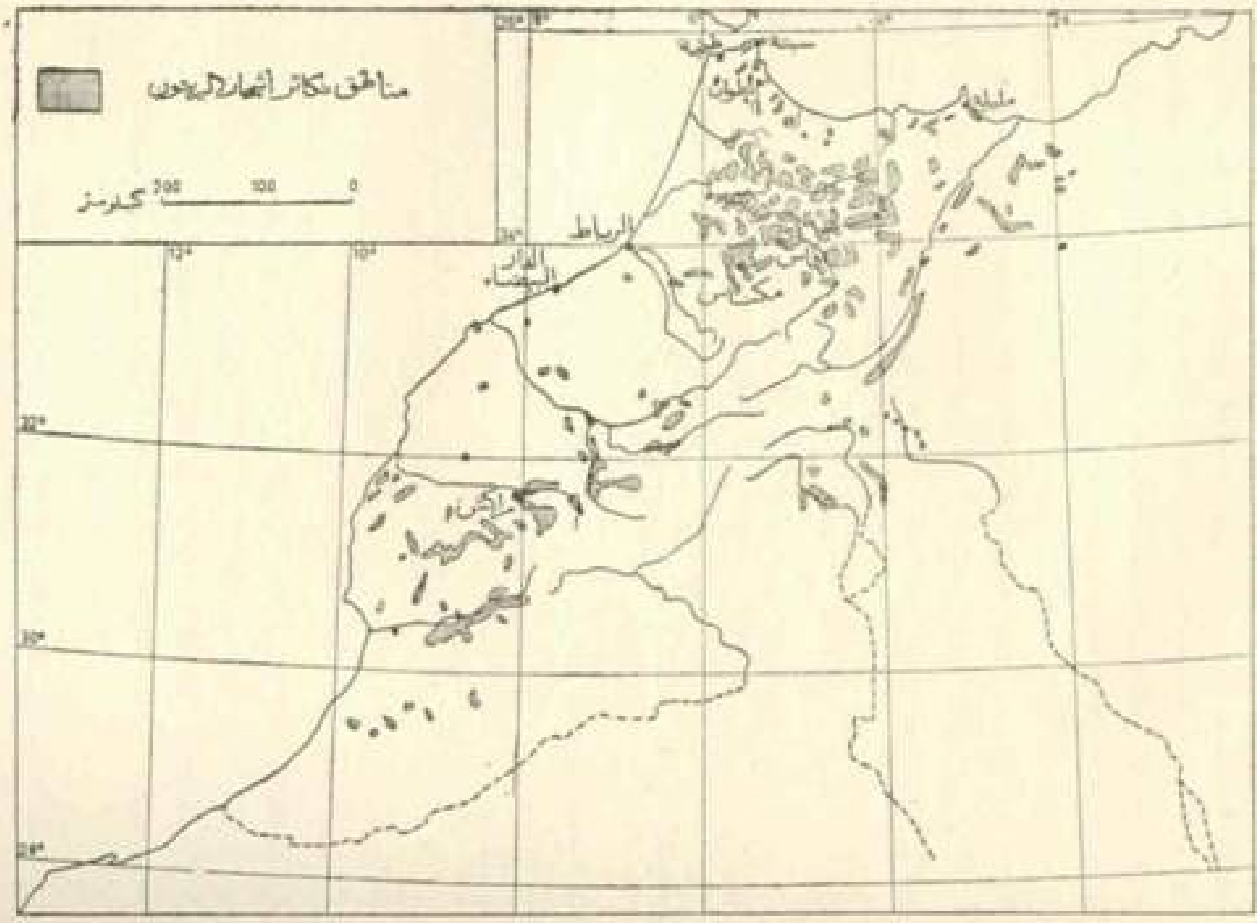
التربة وصيانتها من أخطار التعرية فهي بذلك تدخل في سياسة تشجير الاراضي المستصلحة، فضلا عن ان مشروعات الري في الجهات الجنوبية كثيرا ما تتضمن تخصيص جزء من الاراضي الجديدة لاشجار الزيتون .

أما الانتاج فيتعرض لذبذبات كبيرة بين الحين والآخر تلحق بالمزارعين خسائر عظيمة في بعض السنين. ولتقدير أهمية هذه الذبذبات نورد فيما يلي ارقام السنوات التي قل فيها الانتاج عن 50.000 طن (النهايات الدنيا) وأرقام السنين التي تجاوز فيها الانتاج المائة الف طن (النهايات الكبرى) :

اولا ـ النهايات الدنيا (اقل من خمسين الف طن)		ثانيا ـ النهايات الكبرى (اكثر من مائة الف طن)	
السنة	كمية الانتاج	السنة	كمية الانتاج
1936/1935	40.000 طن	1931/1930	105.000 طن
1943/1942	47.000 »	1942/1941	110.000 »
1944/1943	45.000 »	1952/1951	172.000 »
1945/1944	15.000 »	1955/1954	170.000 »
1946/1945	15.700 »	1957/1956	280.000 »
1950/1949	49.600 »	1959/1958	198.000 »
1958/1957	49.000 »		

وتشير الارقام عموما الى ان هناك دورة ثنائية تجعل محصولا ضعيفا يعقبه محصول جيد وذلك باستثناء سنوات الحرب الاخيرة التي تعاقبت فيها السنوات العجاف الواحدة تلو الاخرى مما دفع الاهالي في بعض الاحيان الى اجتثاث الاشجار نفسها والاستفادة استفادة مباشرة من اخشابها.

ولا يقتصر الامر على التفاوت الكبير في كمية المحصول من سنة الى أخرى بل يتعداه الى انتاجية الشجرة نفسها فغلتها في المغرب منخفضة اقل من نظيرتها عند جارتيها تونس والجزائر اذ تبلغ في المتوسط 7.5 كيلوجرام بينما ترتفع في الجزائر الى 12 كيلوجرام وتصل في تونس الى 20 كيلوجرام ولئن كان الاصل في الذبذبات الكبيرة للمحصول مرجعه الظروف المناخية وعدم انتظام سقوط المطر من سنة الى أخرى من حيث الكمية ومن حيث التوزيع على اشهر السنة المختلفة، إلا أن ضعف متوسط الغلة مرده قبل كل شيء، وفوق كل شيء، إلى عدم العناية بالاشجار وإلى غرسها على مسافات متقاربة من بعضها مما يؤدي الى اختناقها. وقد اخذت السلطات المغربية المختصة في العناية بأشجار الزيتون وتحسين انواعها الى جانب العمل


مناطق تكاثر أشجار الزيتون
200 100 0
كيلومتر
الرباط
الدار البيضاء
مكناس
36°
32°
30°
28°
12°
10°

على زيادة المساحة المنزرعة (1) فارتفع متوسط الانتاج ارتفاعا كبيرا، فبعد أن كان متوسط الانتاج السنوى للفترة ما بين سنتى 1930 و 1939 لا يتجاوز 65,000 طن (64,000 طن) تـعدى هذا المتوسط خلال العشر سنوات الاخيرة المائة الـف طـن (115,000 طـن تقريبا). وفى نفس الوقت لم تعد تسجل الاحصائيات ـ حتى فى أقل السنين إنتاجا ـ الارقام الشحيحة لسنوات الحرب الاخيـرة .

وزيت الزيتون يعتمد عليه المغاربـة كمـادة دهنية فى غذائهم اعتمادا كبيرا كما تعتمد عليه ايضا مصانع حفظ السردين (2). ولذلك كان الاستهلاك الداخلى يستنفـد جـل الانتاج. ويصدر جزء من الزيت فى بعض السنين، وتتوقف أهمية الكمية المصدرة على امرين :

الاول : اهميـة المحصـول نفسه ففـى السنين الطيبة قد يزيد الانتاج عن حاجة البلاد بحيث يصبح هناك فائض .

الثانى : سعر زيت الزيتون فى الاسواق العالمية بالنسبة الى الزيوت الاخرى، فان كانت الاسعار مجزية اتخذ التصديـر احجاما كبيرة، واستورد المغرب أصنافـا أخـرى من الزيت أقل سعرا، مما يتناسب والقوة الشرائية للسـكـان. .

ويلاحظ انه نتيجة لوفرة الانتـاج فـى السنوات الاخيرة اصبح زيت الزيتـون الخام والمصفى يظهر فـى قائمـة الصادرات بصورة اكثر انتظاما، ففى السنتيـن الاخيرتيـن 1959 ـ 1960 بلغـت الكمية المصـدرة 1085 طن، و 1052 طن، بلغت قيمتها مليونين من الدراهم تقريبا لكل سنة (3).

ب ـ أشجـار التيـن واللـوز والنخيـل

لا تقـل شجـرة التين اهمية عن شجرة الزيتون على الاقل من ناحية المساحة التى تشغلها (100,000 هكتار تقريبا) وتتوزع فى كل أنحاء المغرب، ولكنها تتكاثر وتتزاحـم بصفة خاصة على السفوح الجنوبية لجبال الريف وفى مضيق الريف الجنوبى وكذلك فى اقليم مراكش فى الجنوب. على أن اهميتها تقتصر على اقاليم معينة وبخاصة بعد تجفيفها فتكون رصيدا غذائيا هامـا (4) .

1) هذا بالاضافة الى معالجة اكثر من 700,000 شجرة برية بواسطة التطعيم دخلت فى طور الانتاج العادى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية

2) يبلغ متوسط الاستهلاك السنوى للسنين العادية 20,000 طن من الزيت

3) 1,963,000 درهم لسنة 1959 ـ 2,287,000 درهم لسنة 1960

4) يتراوح الانتاج بين 30,000 ـ 60,000 طن سنويا ويبلغ عدد الاشجار 6 مليون

اما شجرة اللوز فهى شجرة الارتفاعات المتوسطة وتمتاز بقدرتها على مقاومة الجفاف ولذلك تنتشر فى المناطـق الجبلية الوسطى والجنوبية فى الاقاليم شبـه الجافة. واهم مواطنها مناطق اتصال الاطلس الكبير والصغير والاوسط بالسهول عند اقدامها. ويتجاوز عدد الاشجار تسعة ملايين شجرة تغطى قرابة 70.000 هكتار . وقد حققت هذه الزراعة تقدما كبيرا فى السنوات الاخيرة ترتب عليـه تصديـر قدر لا بأس به الى الخارج. وقد عنيت بعض المزارع الاوربية بهذه الشجرة ويتجه انتاجها الـى التصدير.

ولئن كانت الاشجار السالفـة الذكـر يغلـب عليها الانتشار فى معظم انحاء المغرب الا ان اشجار النخيل تنفرد بتركزها فى مناطق معينة محدودة هى واحات الجنوب فى تافيلالت ووادى درعة الاعلى ورافده دادس، ويكون التمر أحد الموارد الرئيسية الغذائية للاقاليم شبه الصحراوية. ويترتب على ذلك ان قسطا بسيطا مـن الثمار تتداوله الاسواق الداخلية، ولا تبلغ هذه الكمية حجما كبيـرا الا فى السنوات الوفيـرة المحصول، اما التصدير الى الخارج فيكاد يكون منعدما لضآلة المحصول من جهة ولان ثماره فى معظمها غير جيدة لا تصلح للتعبئة والتصدير من جهة اخرى، ولا تتخذ تجارته الخارجية سوى سمات تجارة عبر الحدود مع الجزائر، بل ان المغرب قد يستورد التمر وبخاصة الاصناف الجيدة فى بعض السنين.

وببلاد المغرب بجانب هذه الاشجار الرئيسية أشجار أخرى لا ترقى إلى اهمية ما سبـق، بعضهـا ينمو فى حقـول ويكون تخصصا محليا كبيرا مثل زراعة أشجار حب الملوك (الكراز) فى منطقة صفرو، وأشجار الجوز التى تنمو فى الجهات الجبلية المرتفعـة مـن الاطلس الكبيـر، وهى شجرة جميلة فى منظرها يمكـن تتبعهـا فى قيعان الاودية الجبلية حتى ارتفاع ألفى متر. ثم أشجار المشمش والرمان. واخيرا أشجار التفاح والخوخ... فى الجهات المرتفعة وهذه الاشجار الاخيرة تعنى بها المزارع الاوربية بوجه خاص .

وقد حققت الزراعات الشجرية هذه فى مجموعها تقدما كبيرا وانتشرت زراعة اشجارها على نطاق واسع .

3 ـ اشجـار مجموعـة الاستغـلال التجارى

ولننتقل الآن الى المجموعة الثانية من الاشجار المثمرة والتى يتجه فيها الانتاج اساسا ناحية الاستغلال التجارى. واهم اشجار هذه المجموعة **الكـروم والحـوامـض** .

أ ــ الكروم

تطور المساحة :

كانت الكروم معروفة في المغرب من قديم الزمن، وكانت توجد حقول الكروم الهامة في الجهات السهلية كما هو الحال في اقاليم دكالة والصويرة (موكادور) او على سفوح الجبال كما هو الحال في الريف وزرهون وبعض سفوح جبال الاطلس حول دمنات .

ولكن زراعة الكروم كانت محدودة جدا قبل الاحتلال الاجنبي فلم تكن تتعدى مساحتها في مطلع هذا القرن وحتى سنة 1915 ثلاثة آلاف هكتار تنتج قبل كل شيء العنب. اما انتاج الخمور فكان ضئيلا او معدوما. وما لبث الفرنسيون أن استخدموا بعض هذه الكروم في تحضير النبيذ لتموين أنفسهم وجنودهم. وبدأت في نفس الوقت حركة غرس شجيرات الكروم في مزارع منظمة حديثة بواسطة المزارعين الاوربيين وعدد قليل من المغاربة . ومنذ ذلك الحين وجد نوعان من مزارع الكروم : الكروم التقليدية المغربية وتستهدف انتاج العنب للاستهلاك المحلي، والكروم الحديثة ويستخدم معظم المحصول الناتج منها في صناعة النبيذ والكحول قصد التصدير. ويبين الجدول الآتي تطور المساحة المزروعة لكل من النوعين :

تطور مساحة الكروم من 1925 الى 1960

السنة	الكروم التقليدية	الكروم الحديثة
1925	7.400 هكتار	1.950 هكتار
1930	13.000 »	8.800 »
1935	16.400 »	25.800 »
1940	18.800 »	22.200 »
1945	19.800 »	22.750 »
1950	20.500 »	35.700 »
1955	21.100 »	54.600 »
1960	22.000 »	55.000 »

واهم ما يلاحظ على ارقام الجدول الفرق الواضح بين تقدم النوعين من الكروم وسرعة انتشارهما. فالكروم الحديثة تسجل تقدما سريعا على

عكس الكروم التقليدية التى تسجل تقدما وئيدا بطيئا. وبالنسبة للكروم الحديثة تشير الارقام الى وجود فترتين من فترات التوسع الزراعى تقع إحداهما قبل الحرب العالمية الاخيرة والثانية بعد هذه الحرب، وتفصلهما فترة ركود وتقهقر تتفق وسنوات الحرب نفسها . ويرجع ذلك الى اصابة الكروم بآفة الفوليكسيرا التى اتلفت فى سبع سنوات ما يزيد عن 10.000 هكتار. وبالرغم من محاولات استزراع هذه المساحة وغرس الكروم فيها من جديد لم تستعد الكروم مساحتها السابقة. ولكن ما ان وضعت الحرب اوزارها حتى اخذت مساحات الكروم فى الاتساع. وبالجملة فان مزارع الكروم الحديثة لم تنتشر فى المغرب الا مؤخرا فى الفترة المحصورة بين الحربين العالميتين الاخيرتين .

التوزيع الجغرافى :

تتوزع الكروم المغربية التقليدية فى الجهات الواقعة شمالى الاطلس وتتركز على وجه الخصوص فى الاقاليم الشمالية وكذلك فى الاقاليم الساحلية اما الكروم الحديثة فتتركز بصورة اوضح فى الاقاليم الشمالية وبخاصة فى سهول مكناس وفاس وتازا والمغرب الشرقى واقليم الرباط والشاوية. على ان اهم هذه الجهات جميعا اقليم مكناس الذى يتركز فيه وحده ثلث المساحة المنزرعة وما يزيد عن 45 فى المائة من انتاج النبيذ فى المغرب. ويعتبر اقليم مكناس قلب الاستعمار الزراعى الاوربى فى المغرب ارتبط قيامه وتثبيت اسسه وانتشاره بزراعة الكروم التى وجدت هنا ظروفا مواتية لها من ناحية التربة ومن ناحية المناخ. وتنتشر الكروم هنا على هضبة مستوية تربتها جيرية مشتقة من تكوينات بحيرية تنتمى الى عصر البلايوسين. وتتراوح كمية المطر السنوى بين 470 و 585 مليمتر (1) وقد طبعت زراعة الكروم هذا الاقليم بسمات خاصة، ففى فصل الصيف الجاف عند ما تكسو الالوان الصفراء أرضا قد جفت ويبست تظل مساحات شاسعة مورقة خضراء تنتشر هنا وهناك : هى الكروم. ولا يقتصر الامر على ذلك بل ان الانسان يشاهد اثناء تجواله فى المنطقة من وقت لآخر المبانى الخاصة بصناعة النبيذ. ويتجاوز تاثير الكروم الجهات الريفية الى مدينة مكناس نفسها حيث تقوم فيها مختلف المنشآت الصناعية والمؤسسات التجارية. التى يرتبط نشاطها بصناعة وتخزين وتوزيع الانبذة والكحول .

---

1) تصل هذه الكمية الى اكثر من ذلك عند ما يزداد الارتفاع فمتوسط المطر السنوى فى الحاجب 655 مم. وفى جبل زرهون 750 مم.

الانتاج والتجارة :

ساير انتاج النبيذ التوسع فى مساحة الكروم الحديثة. ففى سنة 1930 لم يكن يتعد الانتاج مائتى ألف هكتولتر، بلغ سنة 1935 اكثر من نصف مليون هكتولتر، ثم وصل إلى مليون من الهكتولترات سنة 1951، وتجاوز الانتاج فى السنوات الاخيرة المليونين من الهكتولترات. ونستدل من الارقام التالية على حقيقة ما اشرنا اليه :

السنة	الانتاج		السنة	الانتاج	
1924	82.000	هكتولتر	1945	233.000	هكتولتر
1930	190.000	»	1950	713.000	»
1935	513.000	»	1955	2.249.000	»
1940	527.000	»	1959	2.750.000	»

ومن السهل ان نستنتج ان الاستهلاك المحلى بسيط يتراوح بين 25 فى المائة و 30 فى المائة من جملة الانتاج، وستظل الحال كذلك فى بلد لا يستهلك سكانه الاصليون المشروبات الروحية. أما أعضاء الفئة التى تقبل على النبيذ وهم الاوربيون المقيمون فى المغرب فعددهم آخذ فى التناقص بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر. ويصدر الباقى من الانتاج الى الخارج. ويسهم النبيذ بنسبة تعادل تقريبا 5 فى المائة من مجموع قيمة الصادرات (7).

وتستورد فرنسا رغم ضخامة انتاجها كميات كبيرة لما تمتاز به انبذة المغرب العربى عموما بدرجة كحول مرتفعة. وترمى من وراء ذلك إلى خلطها بالانواع العادية الفقيرة فى الكحول والتى تنتج بوجه خاص فى اقاليم فرنسا الجنوبية .

ويلقى النيذ المغربى فى الاسواق الاوربية منافسة شديدة من جانب الانتاج الايطالى والاسبانى وأهم عملائه المانيا وانجلترا، على أن اهم اسواق النبيذ خارج القارة الاوربية يوجد فى افريقيا السوداء . ونورد على سبيل المثال مختلف القطاعات التى اتجه اليها انتاج سنة 1959 :

1) كانت هذه النسبة تعادل 3 ٪ لمتوسط السنوات من 1954 الى 1958، ثم ارتفعت منذ ذلك الوقت الى 5 ٪

522.500	هكتولتر	للسوق الداخلية
990.000	»	للسوق الفرنسية
330.000	»	لمنطقة الفرنك باستثناء فرنسا
467.000	»	للاسواق خارج منطقة الفرنك الفرنسى
440.000	»	للتقطير
2.750.000	»	المجموع

ويبدو أن المغرب قد جاوز مرحلة التوسع الكبير فى زراعة الكروم وانتاج النبيذ نظرا لما تلقاه هذه السلعة من منافسة فى الاسواق الخارجية فضلا عن أن مثل هذا الانتاج لا يمكن – بل وليس من المرغوب فيه بتاتا – ان يتوسع فى استهلاكه داخليا .

أما الكميات المنتجة من العنب فليس لها إحصاءات يركن إليها، ومن العسير تقدير كميات العنب التى تستهلك محليا. ولكن يبدو أن حاجيات الاستهلاك الحالية لا تتعدى ١٠٠.٠٠٠ طن. ومن المهم ان نشير الى ان اهمية الاستهلاك مرتبطة ارتباطا وثيقا باهمية الانتاج التى تزداد وتتناقص تبعا لذبذبات المحصول من سنة الى أخرى. واذا استقصينا امكانيات السوق المحلية فى هذا الصدد وجدنا انها بعيدة عن درجة التشبع الكبيرة، فالسوق الوطنية بحاجة للمزيد، وتستطيع استيعاب جزء كبير من الانتاج على شريطة تحسين وسائل التوزيع كى يصل العنب فى سهولة ويسر الى الجهات الريفية المختلفة خارج نطاقات انتاجه الرئيسية .

ومن الممكن ايضا ان تجد صناعة عصير العنب سوقا كبيرة عند ما تحل مشكلة الصناعة والحفظ بتكاليف غير مرتفعة. على انه من المحتمل ان تصادف هذه الصناعة منافسة عصير الفواكه الاخرى التى دخلت فى الاستعمال الجارى وبخاصة الحوامض. كذلك يمكن النهوض بتجفيف العنب وعمل الزبيب ولو ان ذلك سيجد منافسة شديدة وبخاصة فى السوق الخارجية، من بلاد حوض البحر المتوسط الشرقى التى تنتج أصنافا جيدة وصلت اليها نتيجة خبرات طويلة .

ـ الحوامض

اهمية الحوامض (1) :

تبلغ المساحة الحالية التى تشغلها اشجار الحوامض حوالى 50.000 هكتار (2) او ما يقرب من 1 فى المائة من جملة المساحات المنزرعة على أن اهمية الحوامض فى الاقتصاد المغربى لا تقاس بالمساحة التى تغطيها بقدر ما تقاس بأمور أخرى منها رؤوس الاموال المستغلة فى هذه الزراعة والتى تتعدى 50 مليارا من الفرنكات ومنها عدد العمال الزراعيين وغيرهم ممن يعملون فى مختلف نواحى النشاط المرتبطة بهذه الزراعة من نقل وتعبئة وتصنيع للعصارة 70.000، ومنها اخيرا مركز الحوامض بين مختلف الصادرات المغربية. فقد بلغت قيمة صادرات سنة 1959 ـ 1960 ما يقرب من 170 مليون درهم تمثل 10 فى المائة من مجموع قيمة الصادرات، 20 فى المائة من مجموع قيمة المنتجات الغذائية المصدرة. واذا كانت الحوامض تأتى فى المرتبة الثالثة بين صادرات المغرب بعد الفوسفاط (20 فى المائة) والمعادن (12 فى المائة) فانها تأتى فى المرتبة الاولى بين الحاصلات الزراعية .

تعتبر زراعة الحوامض فى المغرب من احدث الزراعات الشجرية فيها، فمنذ ثلاثين سنة لم تكن شيئا مذكورا، ففى سنة 1930 لم تكن المساحة المغروسة تزيد كثيرا عن 1500 هكتار وصلت سنة 1940 الى 12.000 هكتار، لتبلغ 25.000 هكتار سنة 1950 واكثر من 50.000 هكتار حاليا. وكان الانتاج هو الآخر متواضعا ضئيلا فى بادىء الامر حتى ان المغرب كان بلدا يستورد البرتقال منذ ثلاثين سنة. ثم ارتفع الانتاج كثيرا بحيث تقدر نسبة الزيادة فى الانتاج فى العشر سنوات الاخيرة بأكثر من 130 فى المائة . ومن المنتظر ان تصل كمية الانتاج سنة 1965 الى ضعف الكمية الحالية دون ان يستوجب ذلك زيادة فى الرقعة المنزرعة بنفس النسبة نظرا إلى أن كثيرا من أشجار الحوامض المغروسة لم تدخل بكليتها فى مرحلة الانتاج الكامل لصغر سنها.

والجدول التالي يلخص لنا التطور السريع للمساحة المنزرعة ولانتاج الحوامض :

---

1) اعتمد المؤلف فى هذا الجزء من البحث اعتمادا كبيرا على ما كتبه الاستاذ لوكوز فى هذا الموضوع (انظر قائمة المصادر فى نهاية هذا البحث)

2) تبلغ مساحة الحوامض حاليا 52.000 هكتارا منها مغروسة 35.000 هكتار منتجة فعلا.

جدول يبين تطور المساحة المنزرعة والانتاج

السنة	المساحة	الانتاج
1920/1919	625	—
1925/1924	» 850	—
1930/1929	» 1.590	—
1935/1934	» 4.650	17.500 طن
1940/1939	» 12.415	» 40.000
1945/1944	» 17.880	» 70.200
1950/1949	» 25.605	» 155.000
1955/1954	» 41.946	» 209.000
1960/1959	» 52.000	» 412.000
1961/1960	» 52.000	» (1) 462.000

تطور المساحة المنزرعة والانتاج :

زراعة الحوامض في بلاد المغرب العربي زراعة قديمة ويرجح ان الرومان ادخلوا هذه الزراعة ولكن يرجع الفضل الى العرب في نشر هذه الزراعة في كل الشمال الافريقي. ويبدو ان اشجار الحوامض لم تتجاوز الا لماما الحدائق والبساتين الحضرية. فقلما كانت توجد خارج نطاقات المدن الكبيرة (2). وقد وفق الاهالي في إنتاج أنواع جيدة من البرتقال وذلك بواسطة اختيار سلالات معينة. ومن اهم مناطق الانتاج القديمة مراكش ووزان وبني سناسن. على ان الحوامض في الجملة كانت قليلة الانتشار حتى الربع الاول من هذا القرن فلم يتجاوز عددها ربع مليون شجرة تغطي قرابة الف هكتار .

ونستطيع ان نستبين عدة مراحل في التوسع الزراعي للحوامض :

المرحلة الاولى : بدأت في اعقاب الحرب العالمية الاولى واستمرت حتى سنة 1930، وان امتازت بشيء فانما امتازت بحركة بطيئة مستمرة في غرس اشجار الحوامض. ولنحاول تفسير هذه الظاهرة. لم يوجه المنتجون ومعظمهم من الاوربيين اهتماما كبيرا الى هذا النوع من الانتاج، فقد اتفقت هذه المرحلة ومرحلة إقامتهم الاولى واستحواذهم على الارض وبدء الاستغلال

1) رقم تقديري

2) ومع ذلك فحيثما وجدت الزراعات الشجرية الاخرى كانت توجد اشجار الحوامض مثال ذلك منطقة الريف والاطلس الكبير (الشلح)

الكثيف في زراعات الحقل وبخاصة القمح وتطلب كل ذلك رؤوس اموال كبيرة لتجهيز هذه الاراضي بالآلات الزراعية. فلم تكن الفرصة اذاً مواتية لخلق مزارع واسعة للحوامض لا تبدأ في الانتاج الا بعد خمس سنوات من غرس الاشجار فيها (1) لا سيما وأنه لم تكن هناك ضرورة تدفع بالمعمرين الى تنويع الانتاج واسعار الحبوب ما فتئت مرتفعة .

المرحلة الثانية : وامتدت من سنة 1930 الى سنة 1940 وفيها تحولت حركة غرس الاشجار من حركة بطيئة الى حركة سريعة عند ما بدأ المنتجون يشعرون بالنتائج الاولى للأزمة الاقتصادية العالمية، وبخاصة بعد انهيار اسعار الحبوب، مما جعل من الضروري تنويع الحاصلات الزراعية والبحث عن حاصلات مجزية تحل محل الحبوب .

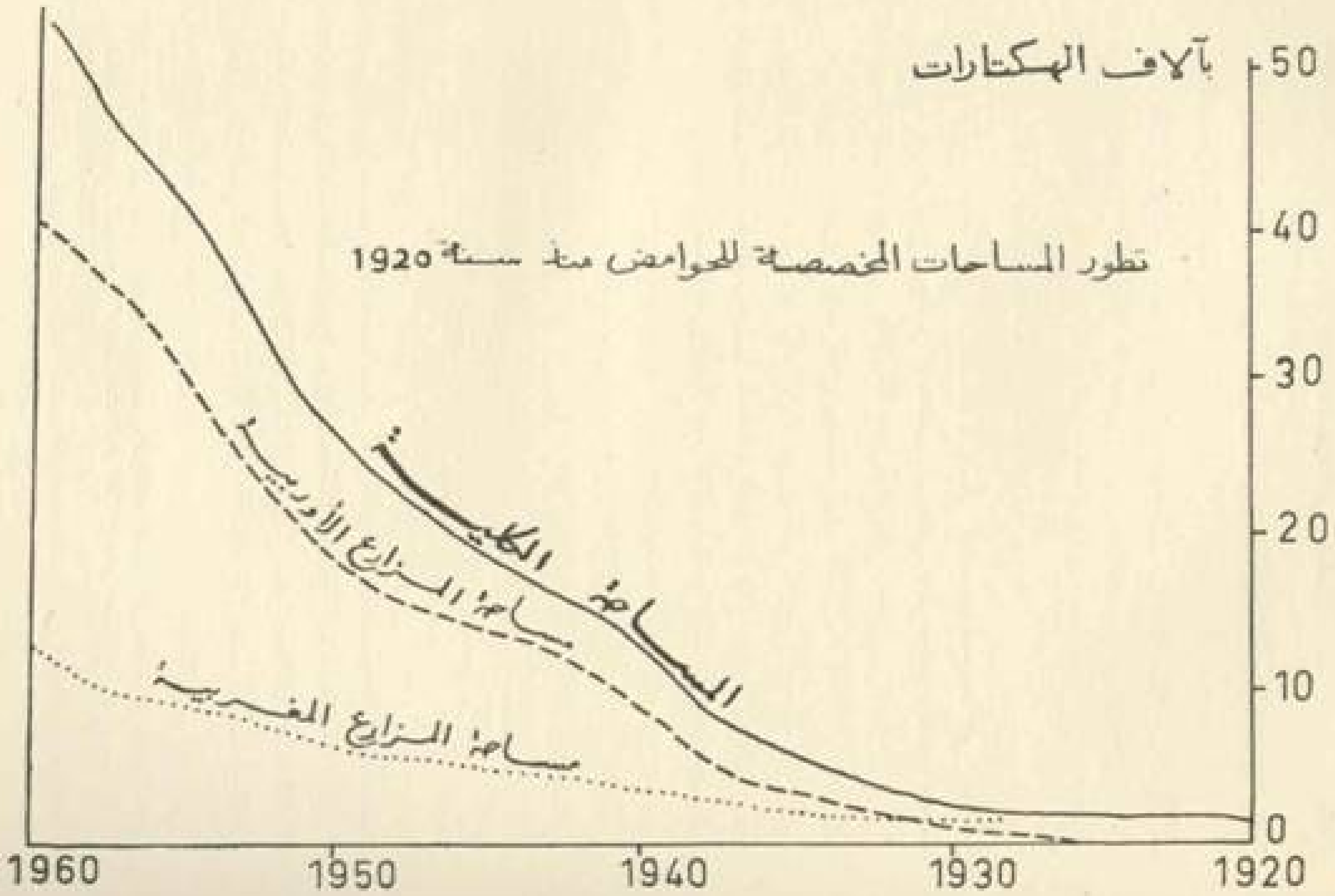
على اننا نلاحظ ان هذا النمو السريع في هذه الزراعة لم يقتصر امره على اشجار الحوامض وانما كان جزءا من حركة عامة منبعها واصلها حركة تستهدف الاستثمار التجاري عن طريق الحاصلات الزراعية، تناولت فيما تناولت زراعة الخضر والمبكرات بنوع خاص. فالاقبال على الحوامض ارتبط بسياسة عامة ترمي الى تشجيع غرس اشجار الفاكهة المختلفة وزراعة الخضر والمبكرات. على ان هذه السياسة لم يكن لها ان تصل الى غايتها دون ان ترتبط ارتباطا وثيقا وتعتمد اعتمادا كبيرا على سياسة مائية معينة بدىء بها تقريبا في نفس الوقت. وتبدو هذه العلاقة بين التوسع في زراعة الحوامض والمشروعات المائية بشكل اوضح مما هي عليه بالنسبة للخضر والمبكرات. فهذه الاخيرة تستطيع ان تتلاءم مع مساحات صغيرة ومنشئات ايضا من نفس الحجم، بينما ارتبط ازدهار الحوامض بأعمال الري الكبرى للري ومنها سد وادي الملاح سنة 1931 وسد القنصرة سنة 1934 وسد لالا تاكيركوست سنة 1936.

ومن ضمن العوامل التي ساعدت على نمو زراعة الحوامض في آخر هذه المرحلة انكماش الصادرات الاسبانية ـ اخطر منافس للمغرب في هذا المضمار ـ بسبب اندلاع نيران الحرب الاهلية بها سنة 1936.

فلا غرابة بعد كل ذلك ان تتسع المساحة المزروعة اتساعا كبيرا بمعدل 800 هكتار للسنة في الفترة ما بين سنتي 1932 ـ 1937.

---

(1) وكانت المصارف تمتنع عن اصدار قروض لهذا النوع من الاستغلال الذي كانت ترى فيه نوعا من الانتاج تكتنفه المخاطرة، ولا يمكن الاطمئنان اليه من الناحية التجارية



بآلاف الهكتارات
تطور المساحات المخصصة للحوامض منذ سنة 1920
المساحة الكلية
مساحة المزارع الأوربية
مساحة المزارع المغربية
50
40
30
20
10
0
1960
1950
1940
1930
1920

الفتـرة الثالثة : فترة سنوات الحرب العالمية الثانية ، اعقابها وفيها تباطات حركـة التوسع .

الفترة الرابعة : العودة الى السرعة ابتداء من سنة 1948 وذلك بالرغم من عودة المنافس الاسباني الى السوق، وبين الاسباب التي ادت الى ذلك :

1 – ارتفاع مستوى المعيشة في اوربا السوق الرئيسية للحوامض مما نتج عنه زيادة محسوسة في استهلاك الفاكهة .

2 – التجاء رؤوس الامـوال الـى المغـرب تهـربـا من الضرائب الكبيرة في فرنسا، وخشية الاستثمار في مشروعات توهم، واعتبر أصحاب رؤوس الاموال هذه الزراعة زراعة مجزية مربحة .

3 – النهوض مرة اخرى بأعمال الري الكبرى وخاصة انشاء خزان بين الويدان (1) وقد أدى ذلك الى تجهيز مناطق جديدة لاستقبال مياه الري.

كل هذه الظروف المواتية المساعدة تفسر لنا التقدم الرائع الذي أحرزته الحوامض بتكاثر اشجارها وازدياد مساحاتها. واتخذ ذلك التوسع صورتين :

اولاهما : تحويل وتجديد المزارع القديمة .

ثانيهما : إنشاء مزارع جديدة ولا سيما في الاقاليم الجنوبية (2)

علـى اننا نحـب ان نسجـل ان السنـوات الاخيرة – سنوات عهد الاستقلال – امتازت بتشجيع وانتشار هذه الزراعة في الاوساط المغربية، فبعد ان كان المغاربة لا يملكون من هذه الحقول سوى 4500 هكتار في سنة 1945 اصبحوا يملكون حاليا اكثر من 12.000 هكتار (شكل رقم 2) .

يتبين بوضوح من هذا العرض التاريخي لتطور المساحة المنزرعة وانتاج الحوامض نجاح هذه التجربة من الناحية الاقتصادية نجاحا منقطع النظير . وعلى اساس معـدل سرعـة الزيادة في العشر سنوات الاخيرة نستطيع ان نتوقع ان يصل الانتـاج سنـة 1965 الى 600.000 طن يتخذ نصف مليون طن منها تقريبا طريقه ناحية التصدير .

---

1) خزان بيـن الويدان من اكبـر مشروعات المغرب التي انجزت مؤخرا، ويستهدف تحقيـق غرضين رئيسييـن : توفيـر مياه الري لقطـاع «بني عميـر – بني موسى» وتوليد طاقة كهربائيـة هائلة

2) في حوز مراكش ومنطقة السوس على وجه الخصوص

التوزيع الجغرافى لمناطق الانتاج :

توضح الخريطة شكل رقم 3 أهم أقاليم الانتاج وهى بحسب أهميتها

1) **اقليم الغرب** أو السهول الدنيا لنهر سبو : ويحتل المركز الاول فى زراعة الحوامض حيث تغطى اشجارها 38 فى المائة من جملة المساحة الكلية بالمغرب. ويعتمد التوزيع الحالى لمزارع الحوامض على عاملين رئيسيين:

أ) طبيعة التربة : فتحتل المزارع الاراضى الغرينية الحديثة التكوين المتوسطة المسامية. وهذا النوع يقتصر فى وادى سبو على منطقة ضيقة تصحب النهر وتضيق من المنبع الى المصب، ويحل محلها ناحية المصب تربة طينية دقيقة متماسكة لها قدرة كبيرة على الاحتفاظ بالمياه دون ان تنصرف، مما يضر باشجار الحوامض. ولذلك تخصص مثل هذه التربة الثقيلة فى العادة للحبوب ولا سيما القمح وكذلك للارز منذ سنة 1949 .

ب) امكانيات الرى : فبعض المزارع يعتمد على الرى بواسطة آلات رفع المياه من النهر. والكمية المصرح بها محدودة. ولذلك فان مساحة مزارع الحوامض على جانبى نهر سبو تكاد تكون ثابتة لا تتغير. والبعض الآخر يعتمد على مياه سد القنصرة المقام على وادى بهت، ومنطقة الرى هنا تمتد من سيدى سليمان الى سيدى قاسم .

والغرب مع ذلك يعتبر من بين أقاليم إنتاج الحوامض فى المغرب الاوفر مطرا. فالمشكلة هنا لا تتصل بعدم كفاية الموارد المائية قدر ما تتصل بزيادة كمية المياه عن الحد المرغوب فيه احيانا، فمتوسط المطر السنوى يزيد فى كل جهة عن 450 مليمتر، بل ويكاد يصل فى بعض الجهات إلى 600 مليمتر. هذا إلى جانب الرطوبة الجوية التى تظل نسبتها مرتفعة معظم ايام السنة باستثناء الايام القليلة التى تهب فيها على البلاد الرياح الشرقية الجافة (الشرقى) ولذلك يقتصر الرى على ست او ثمان مرات فى السنة فالغرب لا يفتقر الى المياه افتقار المناطق الاخرى المنتجة للحوامض فى الشرق والجنوب والتى يشتد فيها الجفاف. على أن هذه الميزة يحد من شأنها واهميتها النمو البطىء للاشجار وضعف انتاجيتها النسبية. ومن بين المشكلات الاخرى التى ينفرد بها هذا الاقليم عن سواه درجة الرطوبة المرتفعة وما تتطلبه من عناية خاصة وانتباه كبير لمكافحة الآفات الزراعية، ثم صعود المياه الباطنية واقترابها من السطح مما يهدد الاشجار بالاختناق وبخاصة فى الجهات المنخفضة .

2) **إقليم السوس** : ويلى إقليم الغرب من حيث الاهمية (1) ويمتاز بالتقدم السريع الذى أحرزته هذه الزراعة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة غير أن هذا التقدم تباطأ قليلا منذ سنة 1954 عما كان عليه فى بادىء الامر.

وقد اعتبرت رؤوس الاموال اقليم سوس اقليم المستقبل فوفدت عليه فى صورة رؤوس اموال فردية وصغيرة. ولكن الفترة من 1950 الى 1954 امتازت بالرأسمالية المصرفية على نطاق كبير بفضل رؤوس الاموال التى هاجرت من الهند الصينية فى ذلك الوقت .

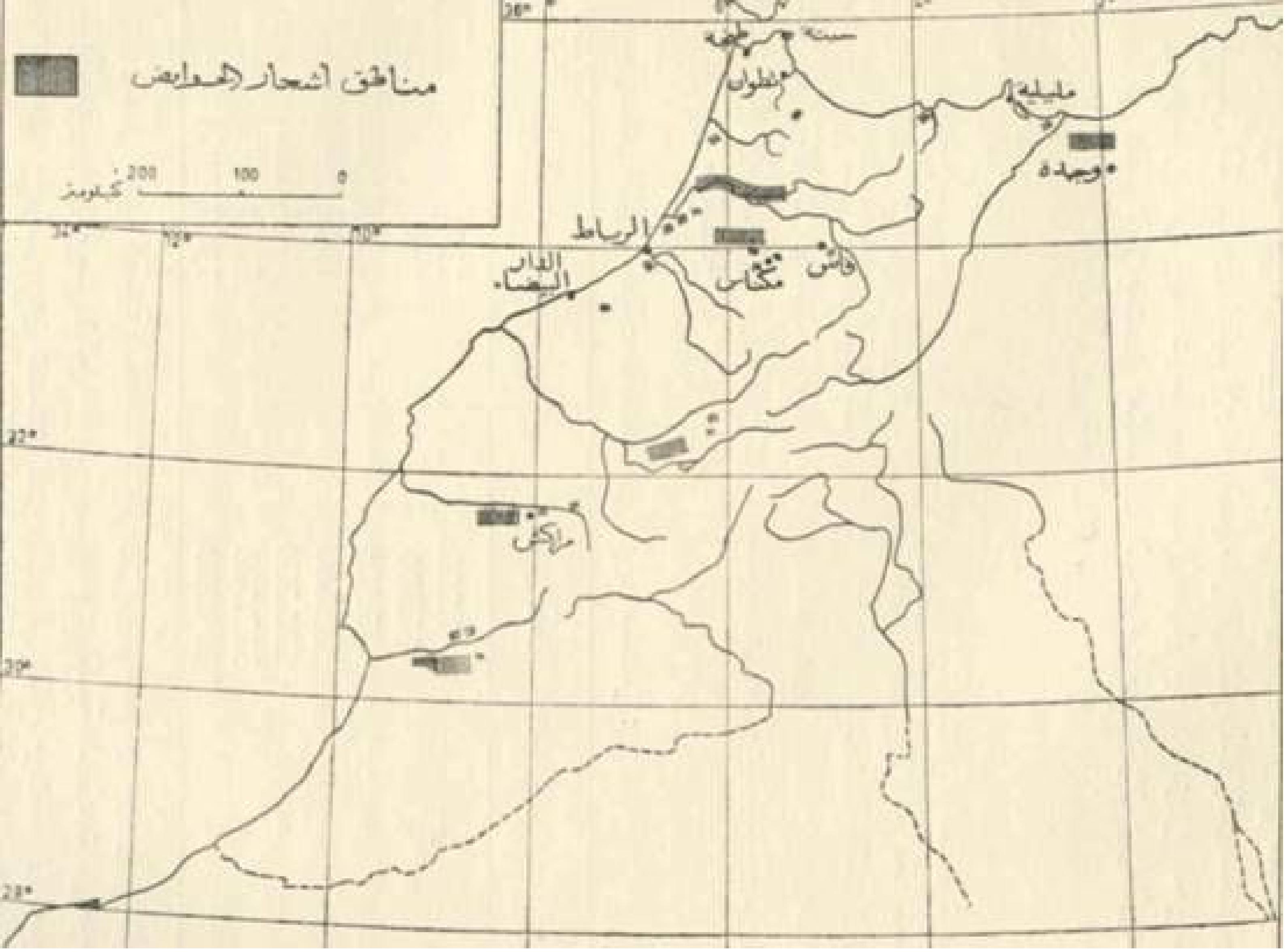
وللموقع الجنوبى للاقليم مضار بقدر ما له من مزايا فيما يتعلق بزراعة الحوامض. فكل شىء هنا فيه إسراف ومغالاة. فمن الميزات أن الفترات المشمسة طويلة مما يعجل بنمو الشجرة واكتمالها حتى ان شجرة عمرها ست سنوات يبلغ انتاجها من الفاكهة مائة كيلوجرام. ولا تصل الى هذا الانتاج فى الغرب سوى الشجرة التى بلغت من العمر عشر سنوات .

ويقابل ذلك كمية مطر غير كافية تبلغ فى المتوسط 230 مليمتر. علما أن النهاية الدنيا قد تنخفض حتى 80 مليمتر. اما درجة الحرارة فمرتفعة، فقد يسجل الترمومتر صيفا 40 درجة، ويصحب هذه الحرارة المرتفعة انخفاض فى الرطوبة النسبية. ويترتب على كل ذلك ان تصبح الحاجة ماسة الى كميات أكبر من المياه مما هو عليه الحال فى الغرب مثلا فيتطلب رى هكتار من الحوامض كمية من الماء تتراوح بين 15 و 20 الف متر مكعب سنويا، وسعر التكلفة للحصول على مثل هذه الكمية مرتفع ذلك ان المياه هنا جوفية تستخرج بواسطة آلات رفع المياه من مسافات تزداد عمقا ناحية الجنوب والشرق

ويبدو من الطبيعى لاول وهلة ان يتجه انتاج مثل هذا الاقليم ناحية الانواع المبكرة. وقد كان الامر كذلك بالفعل. ولكن لوحظ ان فاكهة هذه الانواع تتضخم كثيرا فى نفس الوقت الذى تقل فيه عصارتها. فتحول الاقليم الى انتاج الانواع التى تنضج فى نهاية الموسم .

3) ثم تأتى بعد ذلك اقاليم وجدة (8,7 فى المائة) ومراكش 7,7 فى المائة) وتادلا (7,3 فى المائة) وفاس 6,6 فى المائة) ومكناس (5,4 فى المائة) والمنطقة الشمالية (4,1 فى المائة) على اننا نلفت النظر الى حقيقة على جانب كبير من الاهمية تتعلق باقليم تادلا، وهى ان المشروعات التى

1) يبلغ نصيب الاقليم من أشجار الحوامض ما يعادل 13 فى المائة من المجموع الكلى لهذه الاشجار.


مناطق أشجار
200 100 0
كيلومتر
طنجة
سبتة
تطوان
مليلية
وجدة
الرباط
الدار البيضاء
مكناس
فاس
مراكش

انجزت بالفعل او التي في سبيل الانجاز من شأنها ان تجعل من هذا الاقليم في المستقل القريب أول اقليم لزراعة الحوامض في المغرب. ويقدر المختصون ان ليس بالمغرب من جهة تتجمع فيها الشروط المواتية لاستزراع الحوامض تجمعها في اقليم تادلا بفضل امكانيات الري من مياه خزان بين الويدان اكبر خزانات بلاد المغرب العربي قاطبة (1) .

التسويق :

تتوخى السياسة الانتاجية انتاج الانواع المبكرة والانواع المتأخرة على السواء، وذلك رغبة في تتجير الحوامض في افضل الظروف المجزية. فيصل شطر من البرتقال الى الاسواق العالمية قبل ان تصبح متخمة بهذه السلعة بينما يصل الشطر الآخر في وقت متأخر عند ما تشح السلعة في الاسواق ومعنى ذلك العمل على الوصول الى الاسواق في اوقات تكاد تكون فيها خالية من كل منافسة .

ويصدر المغرب كميات ما فتئت في تزايد مستمر :

السنة	الكمية المصدرة	
1935/1934	1.800	طن
1940/1939	16.600	»
1945/1944	7.500	»
1950/1949	113.600	»
1955/1954	128.200	»
1959/1958	317.588	»
1960/1959	[2] 345.000	»

وتصل نسبة الكمية المصدرة الى 75 في المائة من مجموع الانتاج، وتستأثر فرنسا بالقسم الاكبر اذ بلغ نصيبها من الكمية المصدرة في موسم 1959 ـ 1960 ما يقرب من 170.000 طن اى 53 في المائة. ويلاحظ ان نصيب فرنسا من مجموع التصدير في تناقص ولو لم تتناقص الكميات المستوردة نفسها .

1) تقع منطقة التوسع الزراعي في المستقبل القريب على الضفة اليسرى لوادي أم الربيع (اقليم بني موسى)

2) تقدير

الموسم	نسبة الصادر الى فرنسا
1956/1955	%85
1957/1956	%69
1958/1957	%74
1959/1958	%60
1960/1959	%53

ويجنح المغرب في السنوات الاخيرة الى اضافة عملاء جدد على قائمة عملائه. وهو يبغى من وراء ذلك تأكيد واستكمال الاستقلال الاقتصادى الذى تنشده البلاد تجاه فرنسا. ومما لا شك فيه ان هذه السياسة قد حققت تقدما ملموسا. واهم الاسواق ــ بعد فرنسا ــ المانيا الغربية، التى ما فتىء نصيبها يزداد عاما بعد عام كما نستبين من الارقام الآتية للسنوات الثلاث الاخيرة :

موسم	1958/1957	4.469	طن
»	1959/1958	68.908	»
»	1960/1959	77.613	»

ويأتى الاتحاد السوفييتى فى المركز الثالث، وذلك على اثر عقد اتفاقيات حديثة للمبادلات التجارية (16.310 طن)، تليه مباشرة هولاندة (15.078 طن) ثم المملكة المتحدة (13.511 طن) .

هذا فيما يتعلق بالتصدير اما الاستهلاك الداخلى ويتناول ربع مجموع الانتاج الكلى فيكاد يقتصر على استهلاك الفواكه الطازجة. وقد كنا نتوقع ان يصحب هذا الانتاج المتزايد قيام صناعة عصير قوية. ولكن الارقام تدل على ان هذه الصناعة لا تستهلك سوى 5.000 طن سنويا وهى نسبة ضئيلة جدا لبلد ينتج اكثر من حاجته، بل ان المصانع الموجودة فعلا عاجزة عن استغلال جميع امكانياتها ولا تنتج اكثر من ثلثى ما تستطيع انتاجه. ففى الظروف الراهنة لا تهىء هذه الصناعة تيارا للتصدير والسبب الرئيسى لذلك هو عجز الصناعة عن الانتاج بأسعار تكفل لسلعها الرواج والقدرة على منافسة السلع الاجنبية وبخاصة منافسة الولايات المتحدة، والغريب ان يجد الانسان فى اسواق المغرب نفسها هذه السلع الامريكية بوفرة .

4 ـ خاتمة

يحتاج المغرب في بعثه الجديد الى تنظيم استغلال موارده الطبيعية وهي متعددة، والى النهوض بامكانياته الاقتصادية وهي كبيرة. ولعل في الصفحات السابقة ما يشير في وضوح وجلاء الى اهمية هذه الموارد وتلك الامكانيات بالنسبة لقطاع زراعي واحد هو موضوع هذا البحث دون التعرض للقطاعات الاخرى .

والاشجار المثمرة تقوم بدور كبير كعنصر اساسي من عناصر الغذاء فالى جانب المواد الزيتية وأهميتها هناك مختلف الفواكه. ويتراوح استهلاك المغرب لها بين 350.000 و 400.000 طن بحيث يكون نصيب الفرد خمسة وثلاثين كيلوجرام سنويا من الفاكهة (1). ويزداد الاستهلاك يوما بعد يوم بتزايد عدد السكان وبارتفاع مستوى المعيشة، ومعنى ذلك ان السوق الداخلية تستطيع ان تستوعب قسما كبيرا من التوسع الزراعي في المستقبل

لقد احرزت زراعة الاشجار المثمرة تقدما كبيرا في المساحة ولم تنته بعد هذه المرحلة التوسعية. وما زالت اشجار كثيرة صغيرة لم تدخل بعد في طور الانتاج الكامل، ومن المرغوب فيه ان يستمر هذا النمو حتى تفتح آفاق جديدة لاستيعاب الزيادة المطردة في عدد السكان وللمشاركة في رفع مستوى المعيشة .

ونحب ان نلفت النظر الى أمر هام وهو ان الزراعة الشجرية الى جانب ذلك تساعد على الاستقرار البشري، ودورها في هذا المجال اكبر اثرا من دور الزرعات المحصولية العادية. وفي بلد كالمغرب ما زال عدد كبير من سكانه يزاولون حرفة الرعي والتنقل فان غرس الاشجار حيثما تصلح الارض لها يشكل عنصرا اساسيا من عناصر الاستقرار، لان هذه الزراعة تتطلب استمرارا في المجهود ورعاية دائمة للاشجار. ومن ثم تستطيع الاشجار المثمرة أن تلعب دورا لا يمكن الغض من اثره في التطور الاجتماعي للبلاد .

وبالاضافة الى استيفائها لحاجيات السكان الغذائية فان الزراعات الشجرية تسهم في تدعيم التصنيع الزراعي بتموين المصانع بالمادة الخام اللازمة لها. ولئن كانت صناعة النبيذ والكحول متقدمة الا ان صناعة عصير الفواكه وحفظها ما زالت متعثرة، فان ذللت العقبات التي تواجهها فسوف تسد فراغا كبيرا في البلاد وسيساعد ذلك على الاستغناء عن استيراد نظيرات

1) ولا يدخل في ذلك استهلاك البطيخ (الشمام) والدلاح (البطيخ)

هذه المنتجات من الخارج في مرحلة اولى، قد تليها مرحلة ثانية يتخذ خلالها الانتاج طريقه الى الاسواق الخارجية .

واخيرا فقد وضحت لنا من هذه الدراسة اهمية الزراعات الشجرية وانتاجها في الميزان التجاري. واذا اكتفينا باعادة القول بان صادرات النبيذ والحوامض دون سواها يؤلفان معا 15 في المائة من مجموع قيمة صادرات المغرب ادركنا مبلغ أهمية هذا الانتاج في الحركة التجارية. ومن رأينا أن العناية بهذا النوع من النشاط من شأنه تثبيت اقتصاد المغرب على اسس متينة مستقرة بتحقيقه عنصر التنويع في الحاصلات الزراعية .

ولا يستطيع الانسان في هذا المجال ان يغفل المقارنة بين المغرب وجارتيه تونس والجزائر، فبينما تسود شجرة الزيتون في تونس سيادة شبه مطلقة على بقية الزراعات الشجرية، وبينما تحتل كروم النبيذ في الجزائر مكانا بارزا نجد المغرب وقد حقق لنفسه توازنا جميلا من هذه الاشجار الثلاثة فلا تطغى إحداها على الاخريين طغيانا كبيرا .

المصادر الرئيسية للبحث

اولا ـ نشرات الاحصاءات الاقتصادية

بالمغرب مجموعات احصائية من اهمها :

1) Notes et Documentation وتصدرها وزارة التجارة والصناعة وهى نشرة شهرية .

2) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية : وتصدرها جمعية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والاحصائية وهى نشرة تصدر ثلاث مرات فى السنة .

3) Tableaux Economiques du Maroc 1915-1959 كتاب اصدرته وزارة الاقتصاد الوطنى، مصلحة الاحصائيات (ابريل سنة 1960 فى 340 صفحة)

4) Plan Quinquénal 1960-1964 اصدرته وزارة الاقتصاد الوطنى (نوفمبر سنة 1960 فى 401 صفحة) .

ثانيا ـ المؤلفات والمقالات العلمية :

1.—Ch. BENIER: Essai Statistique sur l'économie agricole marocaine, 2ème partie, la production agricole végétale; Bull. Econ. et Soc. du Maroc, vol. XXI, N° 75, 1958. p. 323-382.

2.—G. BERGER et autres: L'Olivier au Maroc, Rabat 1949, 226 p.

3.—J. LECOZ: Les Agrumes marocains; Notes Marocaines, N° 13, Rabat, 1960, p. 51-96.

4.—J. DRESCH: L'Agriculture en Afrique du Nord; Centre de Doc. Univ., Paris 1956, 221 p.

5.—R. RAYNAL: Problèmes et bilan de l'agriculture marocaine, Les Cahiers d'Outre-Mer, Bordeaux, 1951, p. 342-362.

محمد بن تاويت

من زوايا التاريخ المغربي

تحت هذا العنوان تناولنا في العدد الفارط بعض القضايا التي تعلقت بالمغرب من الناحية الحربية والاقتصادية أو الديبلوماسية على العموم، وذلك في أواسط القرن السادس عشر، اما الآن فنتعرض تحت هذا العنوان لناحية لها خصوصيتها، تلك التي نسميها باسم :

مشاكل حول العلاقات الاتجارية المغربية

ولكي نحدد الموضوع بحدود زمنية ايضا، لان هذه المشاكل كانت ولن تزال، فاننا نجعل نطاق ذلك بما قبل موقعة «وادي المخازن» من سنة 1562 الى سنة 1577 بادخال الغاية أي ان هذا النطاق يلامس سنة الموقعة المذكورة وهي سنة 1578.

ولعلنا نسال، لماذا لا نجعل هذا النطاق يضم بعض السنين مما بعد الموقعة، فنجيب، بأن هذه المشاكل كان رأس المثير لها، هي دولة البرتغال، ولم تكن هناك مشاكل لها أهميتها فيما عدا ذلك، الا بعض الجزئيات التي لم يكن يعسر حلها، كما سنرى، فاذا كانت دولة البرتغال، قد سقطت صريعة بمصرع ملكها، في وقعة وادي المخازن، واذا كانت قد اصيبت اصابة فاتكة في كبريائها وغرورها، اعتبارا من ذلك اليوم المشؤوم عليها، فانه لا محالة أن تفتر هذه المشاكل أو تجري عقدها مجرى آخر، يختلف اختلافا قليلا أو كثيرا عما كانت عليه فيما سبق.

والمشاكل او المشكلة في أساسها كانت ترتكز على دعوى البرتغال من أن المغرب يعد من الاراضي التي يهيمن عليها التاج البرتغالي، استنادا على ما خوله لهم البابا، من مناطق تدخل في نفوذهم، واعتمادا على ما كان لهم من ثغور احتلوها بالمغرب، وكان جلها آنذاك لما يزل بيدهم، ولهذا كانوا يعدون المغرب من الاراضي «المفتوحة لملك البرتغال» .

وبهذا الاعتبار لا يصح لاية دولة، عدا دولتهم، أن تتصل بالمغرب، الا فيما يكون من محتلاتهم بالفعل، اعنى سبتة وطنجة والجديدة، كما ستجد فى بعض الوثائق، وهذا قد سمح به كحل وسط لهذه المشكلة، والا فان هؤلاء البرتغال، يفضلون ان لا يكون هناك اتصال بالمغرب على الاطلاق وغايتهم من وراء ذلك أن يقيموا حصارا منيعا حول هذه المملكة الفتية التى قدر لها ان تنمو نموا مدهشا ورائعا فى آن، تلك المكة التى كان من أول أعمالها أن تراجع الحساب مع هؤلاء القوم، فتطالبهم بكل عنف ان يرجعوا الى المغرب ما اختانوه منه، والا استردوا ذلك منهم بالقوة، وهو ما حصل وما فتىء يحصل ...

اذن فليقم على هذه الممكة حصار مطوق، ليس الغرض الاساسى منه اضعافها فى اقتصادياتها وكانت ذات بال، بل للحيلولة بينها وبين ما كانت تتلقاه من ذخائر ومعدات حربية، تستعين بذلك على حرب عدوها الجاثم على ثغورها، فما هى الدول التى كانت على صلة بالمغرب، وما كان منها يخشى فى هذا الاتصال ؟

كانت تركيا واسبانيا وفرنسا وانجلترا وشعوب الارض الواطئة التى كان منها ما يجرى فى فلك هذه الدولة أو تلك، على حسب الظروف ...

أما تركيا فلم تكن تواجه هذه المشكلة من هذه الزاوية الخاصة، ثم ان اتصالها لم يكن على استقرار وفى نطاق الاتجار، ومن موان لا تعنى كثيرا هؤلاء البرتغال، ولهذا نخرج هذه الدولة من حسابنا هذا .

واما اسبانيا فانها كانت كثيرا ما تنصاع لرغبات جارتها وقريبتها البرتغالية، وان حصل ما عساه أن يعكر الصفو، فهو حادث فردى يصح أن تتولى علاجه البرتغال نفسها فى غير مشقة أو عناء .

وبقيت فرنسا وانجلترا، وهما بيتا القصيد فى هذه المعضلة، فبفضل ما جلبه تجار هاتين الدولتين من معدات حربية ومواد خامة استعملت كعتاد حربى، استطاع محمد الشيخ ـ كما يقولون ـ أن يطرد البرتغال من آگدير، وان يستخلص منهم ذلك المرسى الحيوى بالنسبة الى الاقاليم الجنوبية من المغرب، ومع هذا فلاعتبارات دبلوماسية، ولتيارات دينية مذهبية، ادعيت على الاقل، سلكت فرنسا مسلك اسبانيا من الكف عن الاتجار مع المغرب بل ساندت البرتغال فى كفاحها لهذا الاتجار كما تسفر عن ذلك بعض الوثائق التى بأيدينا، وظلت انجلترا تصاول البرتغال وتجاوبها فى الميدان الديبلوماسى، تحاول ان تذكرها بان المغرب، ليس كله من الاراضى المفتوحة

لملك البرتغال، كما يدعي هؤلاء البرتغال، بل المغرب له دولته وملكه الملقب بملك فاس ومراكش والسوس، وأن كل اقليم من هذه الاقاليم له موانيه الخاصة، ففاس لها العرائش، ولمراكش آسفي، وللسوس آكدير، وجميع هذه الموانيء واقعة في سلطان هذا الملك... فلا معنى لان يدعى أن ذلك من أراضي الاحتلال البرتغالي ...

ثم انه من باب الترضية، والابقاء على العلائق الحسنة، فان إنجلترا وعدت بأنها تحرم حمل الاسلحة والذخائر الحربية الى تلك الجهات، حتى لا تعين أعداء المسيحية، وأنها ستتخذ في ذلك احتياطات معقولة، تشارك فيها حتى هؤلاء البرتغال، ان اقتضى الحال، ومع هذا فانها لا تلتزم بشيء ما دام غيرها يتردد على هذه البلاد في حرية، مثل الاسبان والفرنس بل حتى البرتغال أنفسهم، فما معنى حرمان تجارها من الاتجار ببلاد المغرب ..؟

أجريت في هذا الشأن مداولات، وعقدت فيها اتفاقيات، ولكن كل ذلك لم يكن ناجعا، واستمر الاتجار برغم ما كانت تحيق بـه من أخطار، وتحول في النهاية وقبيل موقعة وادي المخازن، الى حمل عدد من الاسلحة والمعدات والذخائر الحربية الى المغرب مقابل شيء آخر يعد من مقومات هذه المعدات، ويحمل من المغرب الى انجلترا، وهو ملح البارود ...

ولم يبق ذلك يباشر من قبل التجار الافراد، أو الذين لا علاقة لهم بالدولة، بل وجدنا السفراء من انجلترا يترددون على عبد الملك في هذا الشأن، وبعضهم يقضي معه الشهور ويرافقه في جولاته، ويختلي به في جلساته... وتروج بين عبد الملك واليزابيث الرسائل العديدة، ويلوح في بعضها عبد الملك بأنه يعزم على بعث سفرائه اليها، ولكنها تصر على ان تبقى هذه العلائق في طي الكتمان، مهما استطيع ذلك، لان الموقف كان في غاية الحرج والتوتر، خصوصا بينها وبين اسبانيا التي كانت تشاطر البرتغال في موقفها، بل كانت تؤلب عليها الثوار بالاراضي الواطئة، فصارت هي تؤلب عليها الالمان، مما كانت له من نتائج توجت بعد عشر سنوات بمعركة أرمدا الساحقة ...

هذه هي المشكلة الكبرى بين البرتغال وانجلترا، حول الاتجار بالمغرب وما له من عواقب، أما المشاكل الاخرى التي ترد فيما نعرب من وثائق، فيصح ان نسميها مسائل، لان بعضها بسيط غير معقد، ويمكن ان يتصرف فيه طرف واحد، في غالب الاحيان، وبعضها لا يعد مشكلة بالمرة.

فنرى التجار الانجليز، يخوضون فيما بينهم معارك الاتجار، فبعضهم يغرى الدولة بأرباح ويمنيها بفوائد ويتعهد لها بأداء ضرائب، مقابل سماحها له بهذا الاتجار، وبعضهم يقف من هذا الفريق موقف المعارض ويرى ألا يقتحم الاسواق المغربية الا تجار محنكون لهم خبرة عظيمة بحاجيات هذه البلاد وما يستطيعون ان يجلبوا منها لصالح انجلترا من بضائع بل حتى الذهب الابريز يحول من عملتها الى العملة الانجليزية نفسها، ثم يضربون على يد هؤلاء التجار الغريرين الذين يبعثون بالفوضى فى تجارتهم ويحطون من قيمتها وكرامة دولتهم، ويخضعون لقهر التجار الذين يتمثلون فى اليهود، المحتكرين لاسواق البلاد والعابثين بغيرهم ممن يتردد على الاسواق عارضا بضاعته او طالبا بضاعة غيره، فيتحكمون فى الاسعار والاثمان متكتلين يبيعون بما يريدون كما يشترون بما يريدون، وقد استغلوا فى احتكارهم هذا حتى الملك الذى اصاخ لسياستهم التجارية.

كان من جراء هذا أن حرم الملك ترويج بعض السلع الخاصة بأسواق المغرب مما يجلبه الانجليز من بلادهم، فصادر بعضها بعد الاعلان، وكان مما صودر بضائع أتى بها بعض تجار الانجليز ولا علم لهم بتحريم عرضها فى اسواق المغرب .

ولعل التجار بالمغرب حاولوا أن يقتحموا الاسواق الانجليزية نفسها، فيصرفوا فيها بضائعهم، ويجلبوا منها سلعا أخرى، وكان من أجل ذلك، ان كتب عبد الله الغالب الى اليزابيث، يطلب منها تسهيل هذه المهمة، وتسييرها على وجه يضمن لها السلامة فى الذهاب والاياب، وكانت هذه المسألة فى غاية اليسر، لولا ما اتصل بها من ملابسات، جعلتها تتعقد الى حد ما، ولكن اليزابيث باشرتها حسبما رغب فيه الملك المذكور، ذلك ان الذين سيبحرون بهذه السفن من المغرب إلى انجلترا، هم إسبان، والعلاقة بين انجلترا واسبانيا كانت آنذاك متوترة، على إثر أزمة حادة، سنشير اليها... ومع هذا فقد بوشرت المسألة في جو من الامن والسلامة فى مدة كان يجلس على العرش السعدى ثلاثة ملوك : عبد الله الغالب ثم ابنه محمد، ثم عم هذا عبد الملك .

ومهما يكن فهذه هى الوثائق نعرضها على القارىء كما هى، تاركين له ان يستخلص منها ما يراه من دراسات، قد تكون مبتكرة قيمة .

فقد ورد فى مذكرة جوان پدرو دامطاس سفير البرتغال، مجيبا على أحد الاسئلة التى وجهها اعضاء المجلس الاستشارى حول مسائل خمس،

تضمنتها مذكرتهم (1) - وكان حول المسالة الخامسة (2) التي ورد فيها ان الزابث لا ترى من سديد الرأى تحريم تلك الاسفار على رعاياها وانها تعتبر ان كثرة اختلاط النصارى (متى كانت منتظمة) بالكفار والمسلمين تؤدى الى انتشار العقيدة النصرانية ما يلي :

انه يتأسف لمدخول في ذلك النقاش وانـه لا يستطيع ان يتخلى عن النهوض بواجبه كوزير وهو ان يعبر عن رأيه ملتمسا من جلالتكم بكل تواضع أن لا تستاء من صراحته ما دام قد اضطر الى ذلك اضطرارا (3)

أما فيما يرجع الى الفائدة التي قد يعود بها اولئك التجار على العقيدة والدين عند اختلاطهم بالكفار والمسلمين والتـي يراد ايهام جلالتها بها فانه يتمنـى ان يـذكـر جلالتهـا بالفوائد والمنـافع التـي حصلـت عليها الامة الانجليزية والامة الفرنسية وغيرهمـا خلال السنوات العشرين الاخيرة في افريقيا وشمالها على الخصوص حتى تكون استفادتها تامة كاملة مائة في المائة. اما هؤلاء التجار فانهم يزودون السلطـان بالقصدير وغيره من المعادن التي تستعمل في صناعة المدافع، كما يزودونه بالرماح والمجاذيف مخالفين بذلك جميع القوانين الالهية والبشرية لان المسلمين سيصبحون أقوى سلاحا واوفر ذخيرة وعدة من النصارى. فلقد حدث ان كان المسلمون غير مجهزين بالمدافع وضعفاء التدريب في شؤون الحصون فتمكن تاج البرتغال بفضل ذلك من احتلال جميع المدن والمواقع الموجودة على شاطىء البحر المحيط واستطاع إرغام أولئـك المسلميـن علـى التراجـع والانسحاب الى داخل القطر بحيث ان الحاميات البرتغالية والفرسان البرتغاليين قد وصلوا في جولاتهم الى أبواب مدينة مراكش (التي تبعد اربعة وعشريـن او خمسـة وعشرين فرسخا عن البحر) وأصبح مسلمو مملكة فاس لا يحسون بالاطمئنان على انفسهم اذا لم يبتعدوا بمسافة خمسة وعشرين فرسخا عن المدن والمواقع التي كان يحتلها تاج البرتغال الذي نجحت جيوشه فيما بعد في احتلال قلعة «سانطا كروث» ومدينتها. الا أن ذلـك المدد قد قـوى جيوش السلطان الى درجة ان رعايا سيده الملك لم يعودوا عاجزين فقط عن كسب أى شيء من اولئك المسلمين

1) اجاب João Pedro Damtas عن هذه المذكرة التي كتبت بتاريخ 29 مايه حول الذرائع التي يتذرع بها البرتغال في الاستئثار بالتجارة في غينيا

2) اما الاربعة الاخرى فليس لها تعلق خاص بالمغرب

3) يثبت ان اولئك الذين يقصدون تلـك الجهـات، يعاملون الناس معاملة سيئة، وانهم يجهزون المراكب بالاسلحة والعتاد الحربي

بل أصبحوا يقاسون الحصار داخل مواقعهم وحصونهم كما يحدث الآن على يد السلطان نفسه اذ يحاصر مدينة الجديدة منذ اربعة شهور في ستة وعشرين ألفا من رجاله. وإذا كان النبلاء البرتغاليون يجدون اللذة في شؤون القتال ويعتبرونها اعمالا مشرفة مسلية جميلة، فان الضرر يصيب تاج البرتغال وسيده الملك سواء فيما يرجع الى مصاريف الجيوش أو إلى النجدات التي يتعين ارسالها إلى هناك او بسبب مصرع اولئك الذين يسقطون حتما في مهام الدفاع. ولما كان كل ذلك ناتجا عن طمع النصارى الذين يتناسون كل ضروب الاحترام والواجبات حرصا منهم على الكسب الوفير في أسفارهم مقابل حملهم للاسلحة والرماح والمجاذيف والمعادن والذخائر فان لملكي البرتغال وقشتالة الذين يحيق بهما الضرر أكثر من غيرهما من الامراء النصارى كامل الحق في أن يحرموا ذلك النوع من التجارة الغير مشروعة وفي ان يعاقبوا بكل شدة جميع أولئك الذين قد يلقونهم حاملين تلك المؤن المحرمة من لدن القوانين الالهية والبشرية على السواء.

واذا ما اراد احد ان يقول ان رعايا جلالتها لا يقومون بذلك النوع من التجارة ولا يزودون المسلمين بتلك الاشياء فان السفير لن يأتي بأمثلة طال بها العهد، بل بأمثلة قريبة المدة كالباخرة التي أقلعت في شهر سبتمبر الاخير متوجهة الى العرائش بعد أن جرى وسقها علنا بالمجاذيف والرماح والقصدير وغيره من المعادن كما وسقت ببعض الاسلحة الدفاعية والجهومية. وان اسوأ مما سبق هو وسق ستة وعشرين صندووقا كبيرا كلها مملوءة بأسفار التوراة وغيرها من الكتب العبرية المرسلة إلى يهود تلك النواحي الذين استقدموا القبطان «ميلشيور» ونصرانيا جديدا آخر يسمى «لويس رودريغيس» (4) فجاءا في الباخرة التي قام التجار الانجليز بوسقها. ولما كان بعضهم يزود المسلمين بالاسلحة والذخائر والمعادن والبعض الآخر يقوم بتزويد اليهود بالكتب لنشر دينهم مع علمهم بتحريم ذلك كله، وكان الملكان اللذان سبق ذكرهما قد افرطا في الاهتمام والحراسة للحيلولة دون ذلك، فانه لا يمكن التفكير ولا الاعتقاد بأنه من صالح الامم النصرانية والدين إطلاق الحرية في المرور والتجارة عبر العالم كله في أي وقت وفصل وخاصة في هذا الزمن الذي عظمت فيه ذنوبنا فسمح الله بظهور خلافات في الرأي تقل وتعظم لا بين ملكة نصرانية وأخرى او بين مدينة ومدينة او بين أمير ورعيته

---

4) كلاهما من اصل يهودي، مما يجعلنا نفهم السبب في جلبهما للكتب المقدسة باللغة العبرية

وبين الجار وجاره بل حتى بين الاخ وأخيه او الوالد وولده والمرء وزوجه، بل حتى في داخل نفوس بعض الاشخاص الذين تجدهم يدافعون عن شيء ثم يسارعون الى الدفاع عن شيء آخر وتجد انهم ليسوا على شيء فى مناسبات اخرى وانهم ملحدون

وللاجابة على الاعتراضات الخمسة التي يريد بعض الاشخاص الادلاء بها .

ويقول السفير المذكور بخصوص المسألة الثالثة (5) ان ملوك البرتغال قد احتفظوا لانفسهم بما يحتفظون به تماما لحد الساعة وذلك بقصد تسديد المصاريف والاداءات الناجمة عن حروبهم المتواصلة للكفار وأن دليل ذلك هو قيام السلطان فى ستة وعشرين ألفا من الافراد بمحاصرة مدينة الجديدة فى الوقت الراهن أن حصارها وحصار غيرها من المدن والمواقع يستلزم نفقات باهظة لاغاثتها (6). وبالاضافة الى ما سبق فان سيده الملك يؤدى كل شهر خمسة عشر ألف راتب دون ادراج مصاريف البواخر والذخائر (7) .

ويلتمس السفير المذكور بكل تواضع من جلالتها ويرجو بكل استعطاف من السادة أعضاء مجلسكم ان لا يستاءوا من افصاحه برأيه هذا الذى أبداه بكل حرية ... فهو سيعمل فى جميع الشؤون المشروعة على خدمة جلالتها ملتمسا منها بكل تواضع ان تمكنوه فيما يرجع الى طلبه من فرصة تسره حتى يعظم التزامه فيحمد مسعاكم الحميد وفضائلكم العظمى.

* * *

وفى عرض من احد التجار الانجليز، تقدم به الى حكومته ورد ما يأتى :

حيث ان هناك ملاحة سنوية بين المغرب وانجلترا، تحمل فيها الى تلك البلاد الفا ثوب، مصبوغ وملبوس فانى اتعهد بأن أصدر سنويا الى ذلك القطر هذا العدد من الثياب وازيد.

---

5) ينص الاعتراض الثالث علـى ان ملوك البرتغال كانوا يحيدون عن العدل حينما يستأثرون ببعض الاقاليم ويحتفظون لانفسهم بمنافعها

6) صرح جـون رايمـون للملكـة الزابت، بعـد ضم اسبانيا لمملكة البرتغال، بان هؤلاء احتفظوا بسبتة وطنجة والجديدة، لانهـا بمثابة مفاتيـح اسبانيا للمغرب، وكذلك لكافة افريقيا واوربا، وان الدفاع عنها يستلزم مصاريف باهظة

7) جاء رد دامطاس متبوعا بجواب مؤرخ بـ 15 يوليه، وفيه ترفض الزابت الاتهامات التى وجهت لرعاياها فيما يخص بيع الاسلحة للمسلمين، الذين يسمونهم بالكفار، وان اولئك الرعايا لا يحملونها الا للدفاع عن انفسهم، اما فيما يتعلق بالكتب العبرانية فهى تستغرب من هذا العدد الذى ذكره السفير ولا يوجد حتى ببلادها، ثم انها تستغرب من هذا الاعتراض مع ان تلك الكتب سماوية (ديكسترى)

كما انى سأؤدى الى صاحبة الجلالة، اربع بنسات (ثلث الشلين) عن كل مائة مثقال من جميع انواع البضائع، التى ستأتى من البلاد المغربية المذكورة، الى هذه المملكة، وزيادة وأكثر مما يؤدى لدار المكوس لصاحبة الجلالة شخصيا .

وأيضا فانى ألتزم بأن اسلم سنويا لصاحبة الجلالة، من البلاد المغربية المذكورة، ثلاثين الف مثقال من أجود انواع النحاس، لاستخدامه فى المعدات الحربية، بسعر 25 لبرة لالف مثقال، من نفس الصنف الذى اعرض منه نماذجه هنا .

واتعهد كذلك بأن أسلم الى صاحبة الجلالة وعائلتها كل ما يلزم من السكر، مما يستهلك عندهم سنويا، بسعر عشر بنسات لرطل السكر الابيض، وتسع بنسات لرطل السكر العادى (8) .

وكما كان من قبل يحمل الى هناك عدة اصناف من الذخائر الحربية، من هذه المملكة، لتزويد الكفار (يريد المسلمين) بذلك القطر من البلاد المغربية المذكورة، فانى سأتعهد بألا احمل شيئا من ذلك، الا ما يكون منه ضروريا للدفاع عن سفننا فقط.

واتعهد فوق ذلك بأن كل تلك السفن التى ستبحر من هنا الى تلك البلاد المذكورة، ستعود توا من هناك، محملة ببضائع ذلك القطر، بدون ان تحمل منها شيئا الى اى بلد اجنبى، بل الى هذه المملكة فقط، ولفائدة التجارة بها، ولصالح الرعية ...

فبراير سنة 1567

* * *

وورد فى عريضة التماس من التجار المترددين على المغرب من الانجليز وقد قدمت بتاريخ 25 ابريل من السنة، ما يلى :

ان التجار الذين يترددون على بلاد المغرب بقصد التجارة فى تلك البلاد وما يتاخمها، يتقدمون بأعظم خضوع، ملتمسين من سيادتكم (يريدون أعضاء المجلس الاستشارى بالبلاط الملكى) ان تستوعبوا هذا العرض المتواضع اللائق بما يتضمنه من فوائد جليلة تعود على التجارة المنظمة، التى نأمل ان تستمر كذلك للصالح العام ولخير المملكة، فتنمى حركة الملاحة بها وتقوى بذلك، وتجنى من وراء كل ذلك فوائد جمة، اذا كانت هذه المحاولة ستسندها السياسة الرشيدة، وتحرز على حسن الاعتبار من لدن سعادتكم.

---

8) يلاحظ ان هذا السعر مرتفع، فهو تقريبا السعر الحالى بانجلترا

ومن المعلوم ان اول بحث عن التجارة بتلك البلاد من قبل هذه المملكة كان قد اجرى منذ سنوات قلائل خلت، وان ذلك قد اتى بنتائج طيبة، حيث كان العمل منظما، والتعاطى المختار، بواسطة بعض الخبراء، والمهرة من تجار لندن، فان هؤلاء استطاعوا بفضل مخاطرتهم ان يحملوا الى تلك البلاد عددا هاما من الثياب المصبوغة والملابس، حيث بيعت بهذه البلاد بأثمان أحسن بكثير من التى هى عليه الآن، وفى عودتهم الى هذه المملكة لم يجلبوا فحسب البضائع التى شهرت بها جيدا هذه الاقطار، وتشحن منها الى الخارج، مثل السكر والتمر واللوز، بل جلبوا أيضا ذخائر سرية، وهى عبارة عن كمية عظيمة من الذهب الابريز، قد حصل عليها فى عملة تلك البلاد، وبمجرد ما اهتدى اليها، صيرت الى العملة الانجليزية لصالح هذه المملكة .

نعم، كان ذلك بواسطة التناول الحكيم، والعمل المنسق على وتيرة واحدة، من قبل تجار مهرة سبق ذكرهم، فصرفوا بضائعهم فى هذه الجهات بأثمان مغرية، كما أنه بواسطتهم حملت الى هذه المملكة سلع عديدة بيعت فيها بأثمان معقولة، الى جانب ما استطاعوا أن يقوموا به من أعمال اتت بفوائد جليلة .

أما الآن فان الاتجار بتلك البلاد، أصبح فى غاية الفوضى، فالبضائع تشحن اليها فى حرية وبدون قيد لكميتها، وعلى يد اشخاص مختلفين عن أولئك التجار، ومن صناع آخرين، ونساجين للثياب، وبحارة وآخرين تنقصهم التجربة وليسوا من اولئك الاختصاصيين، فليست لهم خبرة حقيقية على الاطلاق، ولا نظام لهم فى العمل، كما انهم لا معرفة لهم بمعاملة التجار، ولا تقديراً دقيقا لما يكسبون، ولا إدراكا لاهمية التقدم والغايات فى صعود الاسعار للسلع فى الممالك الاجنبية، أو الاحتفاظ بتخفيض الاسعار للسلع الاجنبية، وما سينتج كل ذلك لهم، وماذا تعود عليهم هذه الرحلات التى تتعدد منهم سنويا الى هذه البلاد، جالبين إليها أعظم المقادير من الاقمشة، من كل ما استطاعوا الحصول عليه، فيبيعون باى ربح ممكن ولو كان ربحهم هذا يأتيهم فى اضطراب منهم وعدم تنسيق وفى غير اتحاد.

وبما ان تجار ذلك القطر كلهم يهود، بحيث أن يهوديين وحدهما احتكرا أسواق تلك السلع المذكورة، ولا يشاركهما فى ذلك إلا الملك، فيشاهدان أعظم الكميات من الثياب تجلب اليهم، فى الفصول الغير الممطرة من السنة، ويعلمان أيضا ان هؤلاء التجار لابد ان يضطروا إلى إبحار عاجل، وهم لذلك

سريعوا البيع والترويج لسلعهم، كما انهم يتسرعون فى شراء السلع، ليشحنوا بها سفنهم، حتى لا تعود فارغة، وفى خوف وفزع مميت، لانهم ان لم ينتهزوا الفرصة، فرحلتهم ستمتد طويلا من الوقت، أو يحتاجون الى حراسة عظيمة، وبذلك كله فان اليهوديين يتقدمان الى سلعنا بأثمان زهيدة جدا، فيجد هؤلاء التجار انفسهم مضطرين الى الرضوخ لهما فى مذلة ومهانة منهم، ولا أمل لهم فى اسعار أخرى، وعلى العكس من ذلك يشترون سلع ذلك القطر باسعار يعينها هذان اليهوديان، أو بالاحرى يتحكمان فيها ويحددانها تماما، حيث انهما يشاهدان تسرع هؤلاء التجار غير المحنكين فى تجارتهم، فيسارعون بالبيع ويتهافتون على الشراء، على حين ان تجار اليهود قد اعتصبوا واتفقوا جميعا على ألا يزيدوا شيئا على الاسعار التى حددوها لتلك الثياب، بعيدين جدا عن اثمانها المعتادة، كما انهم يقررون لبضائعهم اثمانا هم الذين يحددونها، باغلى كثيرا مما كانوا يبيعون به من ذى قبل، وبذلك يقع هؤلاء التجار الغريرون اللاجئون الى تلك البلاد بنظامهم المشوش، وتنقلهم المضطرب، فريسة فى ايدى هؤلاء اليهود.

وباعتصاب هؤلاء التجار وتعقيدهم للوضع التجارى، فانه الآن لا يؤدى لتجارنا المذكورين بالعملة الذهبية كما كان عليه الحال من قبل، اذ كانت بضائعنا تباع ذهبا وبأعظم سخاء، ولكنهم اجبروا على ان يأخذوا مقابل سلعهم سلعا أخرى من هذا القطر وبأثمان حددوها لها، كما حددوا أثمانا لثيابهم التى جلبوها، وكل هذا كان نتيجة للشره الذى ابداه تجارنا المذكورون والذين لم يتلقوا نصائح من سبقوهم بالتردد على هذه البلاد، فصارت التجارة بينهم تفقد كثيرا من حريتها، وانقطع الذهب عنا فلا يجلب فيما بعد الى هذه المملكة من تلك البلاد، والبضائع التى يوتى بها من هناك أغلى بكثير مما كانت عليه، وضئلت قيمة المخاطرة وثبطت انهم بمثل هؤلاء وكان فى الامكان ان يكون التعامل فى دائرة النظام، ولهدف حسن يسعى إليه الجميع فشلت الحركة فى وقت قصير، وبارت السلع والحقت بملاحة هذه المملكة اعظم الاضرار .

اما فيما يتصل بحل هذه المعضلة، فانه ان سر جلالة الملكة، يكون فى صالح مملكة جلالتها، باصلاح هذا النظام المختل، الذى يتبعه هؤلاء التجار، وذلك بواسطة تدخل الحكومة الرشيدة، وحسن سياستها، وما ستقرر اتخاذه فيما بينها، لمنع هؤلاء الاشخاص الغريرين من اقتحام ميدان تلك التجارة فيما بعد، وتمكين اولئك التجار من رعايا جلالة الملكة، الذين برهنوا

على مهارتهم ومقدرتهم التجارية، وأعطوا النتائج الباهرة لتجارتهم ببلاد المغرب، من الاتجار بهذه البلاد وضمانها لهم وحدهم، وفيما بعد لابد لاى تاجر ينضم اليهم، من تسجيله بالنقابة، وانخراطه بها، ويثبت زمالة لهؤلاء اثباتا قاطعا، بالقول والفعل، مع تحمله لكل ما يلزم من الضروريات وما تأتى به الظروف والاحداث، فبمثل هذا الانتساب النقابى، سيأمنون بعون الله كل ضرر، وذلك بفضل الاتحاد والعمل المنظم، فى نطاق رأس مال مشترك أو مصرف يضمهم، فتعود التجارة الى سالف صلاحها، وتجلب سلع هذه المملكة محتفظة بحرمتها المعتادة فى تلك البلاد، وتخفض أسعار السلع الآتية منها، الى مستوى اخفض مما هى عليه الآن، أو يمكن ان تباع بها، وايضا يعمل على جلب اكبر كمية من الذهب الابريز، الى هذه المملكة، كما كانوا يفعلون أول اتجارهم بهذه البلاد، كما يبعث اليها سنويا بالسفن الكبيرة العاملة لهذه الغاية .

وهكذا فاننا نتوسل بأعظم خضوع الى سعادتكم والى صاحبة الجلالة طالبين التفضل بمناصرة هذه القضية.

25 أبريل سنة 1567

* * *

وورد فى التماس آخر رفعه هؤلاء التجار إلى الملكة إليزابث، ما يلى :

باعظم خضوع يتجلى فيه مظهر التبجيل، نتوسل الى جلالتك العلية، نحن رعاياك الملتمسين، ادورد جاكمن، فرنسيس بوار، برترد فلد، رينولد بركر، وليم وندل، رينولد هواينجورلت، ربرط هو، هنرى كليز (9) تجار هذه المملكة، مملكة انجلترا الشريفة، مملكة جلالتك.

بما ان الملتمسين المذكورين، قد علموا ان ملك المغرب، فى الاقاليم الافريقية ــ وذلك بتاريخ شهر مايه 1567 او حول ذلك بقليل ــ قد أطلع الاجانب المقيمين آنذاك هناك على قرار اصدره بأن مملكته المغربية، لن تقبل الثياب المعروفة بالزرقاء الدهماء، ومن خالف يتعرض لعقوبة مصادرتها منه، وبناء عليه، فاننا ننهى الى سيدتنا المنعمة بعظمة السيادة والسلطان، نحن الملتمسين المذكورين، اننا كنا بعد شهر مايه غير مدركين وعالمين بهذا الحجز، فوسقنا سبعة وستين ثوبا مما يعرف باسم

9) أتينا بهذه الاسماء لانها قد تكون لها اهمية فى نصوص اخرى، فتلقى عليها بعض الاضواء التى يتطلبها البحث .

الازرق القاتم، علــى سفــن عديدة، وفصلنا بها عــن مملكتكــم المنعمة هذه، قاصدين الاقاليم المغربية المذكــورة، ولمــا كــان الملــك قد أصدره من الحجز ومصادرة الثياب المذكورة، تحريما لاستعمالهــا، بالرغم من بعض التوسلات التى توجهت نحوه، باعادة الامر الى ما كان عليه، فانه حجز الثياب المذكورة من الملتمسين المذكورين، حيث انه سيقع لهم اعظم خسارة وعرقلة لتجارتهم، وفضلكم المقدس وحده سيكون لهم المنقــذ .

وبمقتضى الاعتبار، مــن اجــل الملتمسيــن المذكورين، الذين بواسطة إهمال وكلائهم المقيمين فى الاقطــار المغربيــة المذكــورة، لم يكونوا مدركين للخطــر المذكــور، قبــل أن يبعثوا بالثياب المذكورة، فلعله مما يسر فضلكم الانبل أن توجهوا برسالتكم الشريفة خطابا الى الملك المذكور، طالبين منه بما يتضمن فحواه ارجــاع الثيــاب المذكــورة الى الملتمسين، او ما يقابلها، وان تحصلوا على ذلــك الحق المقــدس للملتمسين المذكورين، كما كان ذلك فى الايام السالفة لجلالتكم، يعمل فى نفس الحال وبنفس الطلب .

بعد مايه سنــة 1567

* * *

وبعد هذه الشكــوى بسنتيــن نرى المغــرب يفكــر فى خوض السوق الاتجارية بنفسه، ويحاول ان يبعث بالسفن الــى انجلتــرا محملة ببضائعه فيبيعها بها، ثم يعود بتلك السفن محملة بما يحتاج اليه من بضائع انجليزية وبناء على ذلــك نجد رسالتيــن، احداهمــا صدرت من عبد الله الغالب الى اليزابث طالبا السماح لسفنه بالتردد على شواطىء انجلترا، فى أمان وان تمكن أصحاب هذه السفــن صكــا بذلــك «بحيث لا يتعرض احد ممن تحت حكمكم بسوء ولا اذايــة، ولا يقــرب ساحتهــم بمكروه ولا نكاية فى ورودهم وبعد رجوعهم، وتعطونهم تامينا يتصرفون به من غير معارض» (10)

---

10) من نص الرسالة التى هى :

الحمد لله وحده ولا معبود سواه الواحد الاحد الذى لم يلــد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد .

من عبد الله تعالى امير المومنين المؤيد بالنصر والتمكين والتأييد والظفر والفتح المبين الشريف الحسنى ايد الله بعزيز نصره امره واعز بتأييد نصره واسعد زمانه المبارك وعصره وابقى فى مراقى المسجد الاسمى فخره واعلى امره فى الخافقين واظهره (ختم الامضاء)

←

والثانية صادرة من هذه الى رجالها بما طلبه الملك المذكور، كما نجد ذلك فى هذا الصك الصادر عنها بقصر هميتون سنة 1570، وهو كما يلى:

إن الزابث بتأييد الله ملكـة انجلتـرا وفرنسا (II) وايرلندا والحامية للايمـان الـخ .

الى جميـع أمـراء البحـر، وأعوانهم، والقبطانات والآخرين الذين هم فى خدمتنا، سواء فى البحار أو فى اى مدينة او حصن او قلعة، على شواطىء البحار، الى كـل ضباطنا بموانينا والى كل الآخرين من ضباطنا ورعايانا ممن سيتعلق بهم هذا الامر تحييكم .

حيث ان ملك المغرب بواسطة رسالته المحررة فى نونبر الاخير، يطلب منا اذا ما سرنا ان نمنـح رخصـة واذنـا للويس فرننديس وسلبدور نونييز Salvador Nunies Fernandez التاجريـن، بانهما يمكنهما بسفنهما وقواربهما ان يبحرا بكل أمان واطمئنان من موانىء المغرب ويسلكا البحار الضيقة ببضائعهم

الى ملكة لنجلطره وايرلانظا المعظمة الشهيرة الاثيرة ايزبيلا بنت السلطان انرك (هنرى كما ينطق به الاسبان) سلك الله بهـا سبيـل الخير والهداية وحفظ صحتها بحسن الرعاية سلام على من اتبع الهدى .

اما بعد فموجب كتابنا هذا اليك أن خديم ابوابنا التاجر لوز (Lnes) رغب منا الكتب اليك فـى تاميـن اجفان صاحبـه التاجر سلبدورس ننيس (Salvador Nunies) فـى قدومه برسم التجارة لبلادنا وانصرافه عنها بحيث لا يتعرض احد ممن تحت حكمهم بسوء ولا اذاية ولا يقرب ساحتهم بمكروه ولا نكاية فى ورودهم وبعد رجوعهم وتعطونهم تامينا يتصرفـون به من غير معارض فكتبنا اليكم تكميلا لرغبته واسعافا لطلبته لاجل تعلقه بجانبنا وخدمته لابوابنا وكل ما يتعرض لكم من المآرب والاغراض يقضى لكم على اكمل المراد ان شـاء الله .

وهذا ما وجب به الكتب اليكم وكتب اوائل جمادى الاولى عام 977 (بالحروف) .

II) بقيـت انجلتـرا متشبثة بهذا اللقب قرونا طوالا، بالرغم من ان فرنسا كانت متمتعة بكامل سيادتها، وهذا تقليد قد تلجأ اليـه الدول فى كثير من الاحيان، وهو ما يجعلنـا نفهـم كيـف ان مصـر بالرغم من عدم معارضتها لسوريا فى دخولهـا لحضيـرة جامعـة الدول العربية، وتصريح رئيسها السيد جمال عبد الناصر بانه لن يعـارض فى دخولها لجمعية الامم ولا لوضع اية عرقلة من العراقيل فى وجه هذه الجمهورية، فانه بالرغم من هذا كله ما زال محتفظا لجهوريته بـاسم الجمهوريـة العربية المتحـدة، بل انه صرح بأن هذه الجمهورية لن تتخلى عن الاسم المذكور.

إلى أندورب كما يمكنهم استبدال البضائع المذكورة بسلع أخرى فتعود سفنهم باطمئنان وقصد الى مملكة الملك المذكور بالمغرب، بدون اى نوع من الحجز، أو اتهام، او ازعاج، يتضررون به، وخلال انقطاع المفاوضة بيننا وبين ملك اسبانيا ورعايانا وبلادنا (12) .

فيسرنا تلبية لطلب الملك المذكور ان يكون لويس فرنندس وسلفدور تونييز المذكورين وخدامهما خلال الانقطاع المذكور يحملان فى سفنهما السلع فقط والبضائع لملك المغرب المذكور، آتين من المغرب، وعابرين فى اطمئنان البحار الضيقة الى أندورب، ومن هناك يعودان الى مملكة ملك المغرب المذكور، فقط وليس الى اى جزء آخر من بلاد ملك اسبانيا، وهكذا فاننا نامركم انتم وكل من كان فى عهدتكم ان تأذنوا من آن لآخر للسفن والقوارب المحملة ببضائع الملك المذكور وسلعه فقط، تحت قيادة لويس فرناندس وسلفدور تونييس المذكورين او رجالهما، ان تعبر بكل اطمئنان بحارنا بدون اى حجز منا أو إزعاج، فاذا كانت هذه السفن تقصد ميناء من موانينا مثقلة او معطوبة فانه ينبغى بتفضل ان يسمح لها بذلك، كما يسمح لها ومعها سلعها بأن تغادر تلك الميناء بدون اى عرقلة او تأخير، ورسائلنا هذه ستكون أمراً كافيا لكم وبراءة فى هذا الصدد.

صدر تحت توقيعنا، بقصرنا الشريف همبتون فى اليوم الحادى والعشرين من يونيه سنة 1570، فى الثانية عشرة سنة من سلطاننا.

---

12) حصل ذلك من جراء مشاكل وتوترات ديبلوماسية استغلت فيها المذاهب المسيحية، ومن اهم تلك المشاكل، ما كان يقوم به فيليب الثانى من مساعدة الثائرين بالاراضى الواطئة ضد انجلترا، التى كانت تستعمر هذه البلاد، فقد وقعت فى ايدى الانجليز سفينة تحمل الاموال الى هؤلاء الثائرين فاحتجزوها، ومن ناحية اخرى كانت انجلترا تثير على اسبانيا اهل المانيا ويدعى رجالها انهم يريدون حماية عقيدتهم البرتستانية من هؤلاء الكاثوليكيين، فكانت المساعدة كذلك تاتيهم، وظلت هكذا الى ان اسفرت عن بعث قوة هائلة من المقاتلة تعمل فى صفهم ضد الاسبان، وذلك قبيل موقعة ارمادا بأربع سنوات، مما جعل فيليث الثانى يصمم على احتلال انجلترا فوقعت عليه الهزيمة المذكورة والى جانب ذلك فقد كان الاتراك غير بعيدين عن هذا الميدان، بل كانوا اصحابه بالاصالة، وكان غيرهم يستغل موقفهم من هذه القوة المسيحية الكاثوليكية التى كانت تتمثل فى ملوكها الاسبان، ولكن هؤلاء كتب لهم ان ينتصروا عليهم فى السنة التالية 1571 لدى معركة ليبينتو .

وورد في بيان التجار الانجليز المترددين على المغرب ما يلي:

نحن المذكورة اسماؤهم أسفله، نرى ان مملكة البرتغال «والغرب» (13) وجزر مادرا (14) وجميع الجزر الاخرى لاسوريس (15) هذه وحدها هي الاقاليم التي تخضع لسيادة ملك البرتغال، حيث أن تجار انجلترا وإيرلندا قد اعتادوا أن يتاجروا بها، فاذا كان الحظر سيكون بالنسبة للاراضي المفتوحة من قبل ملك البرتغال، وهي الآن في ملكه، فاننا لا نسلم بأن ذلك سيشمل الاتجار بالمغرب، أو اى قطر آخر، من الاقطار التي اعتاد تجار الانجليز ان يتاجروا به في طمأنينة وسلام.

ولكن من اجل ان له ثلاثة حصون على شواطىء المغرب (16) فاننا نظن إن ذلك سيقضي بالا يكون كل اقاليم المغرب كذلك ولا ان الاقاليم الاخرى أيضا وراء الرأس الابيض (17) جنوبا ستكون محظورة ايضا.

الامضاء بستة وعشرين تاجرا

فاتح فبراير سنة 1572

* * *

وورد في رسالة السفير الانجليزي بالبرتغال طومس ولسن الى سكرتير الملكة اليزابث وامين المال وليم سيسل لورد برغلي ما يلي :

13) Algarbes, Algarbe, Algarve هي مقاطعة الجنوب البرتغالي التي تحد الشمال بباجه Bajo Alemtejo

14) Madera هي مجموعة جزر بالشمال الشرقي للمحيط الاطلسي تبعد عن الشاطىء الاوربي بـ 850 ك، وعن الامريكي بـ 3300 كانت من مستعمرات البرتغال، ومن جزرها المشهورة، بورتو سانتو Porto Santo وديسرتا جرندي Deserta Grande وبوجيو Bugio وبيشو Baixo

15) هكذا ورد الاسم Lassoryes ولا نعلم عن هذه الجزر

16) كان البرتغال ما زالوا يحتلون أصيلا وطنجة والقصر الصغير وسبتة وأزمور والجديدة،

17) ورد هكذا Cape Blanck يريد Cabo Blanco الذي يقع بين وادي الذهب وموريطانيا

لعله مما يسر سعادتكم أني تذاكرت مع السفير البرتغالي (فرانسيسكو جيرالدي) هذا الصباح، فكان متشوفا جدا الى نتيجة سريعة للعلاقة الحسنة والصداقة، وقد باشرنا الموضوع الذي كانت فيه قضية المغرب متروكة خارجا، والا يكون لها ذكر كما يرغب ذلك، ويلح فيه بحماس، ولكن من ناحية أخرى، فانه لا يطبق هذا الحظر على غينيا بالاسم ولكن حسب مضمون النص العام من التعبير «الاراضي المفتوحة لبرتغال» conquestus regis Portugallie فان الحظر سيكون عاما، بدون ذكر لغنيا او المغرب ومع هذا فانه ما زال يقول، بالرغم من كون هذا الحظر عاما فان الملك لن يطالب أبدا بمنع أحد من الاتجار ببلاد المغرب .

ويرغب بحماس ان يتحدث مع سعادتك، ويتداول مع سعادتك في هذه القضية، كما كنت بحق مسرورا ان اسمع ذلك، ولم يكن لي ان اطلب نسخة من الاتفاقية المذكورة، لاني أعلم أن المستر بتدكت سبينولا (احد تجار لندن الكبار) عنده ذلك، وربما تكون قد وصلت لسعادتك بالفعل .

20 يليه سنة 1573

* * *

وورد في رسالة أخرى الى نفس الشخص ما يلي :

لعله مما يسر سعادتك أني تسلمت رسالتك في عيد تجار الثياب، أما ما تحتوي عليه مما يتصل بالاتجار في بلاد المغرب، فقد فاتحت فيه السيد لورد ميير Lord Maier السير رولند هيور Sir R. Heyword واربعة آخرين، وكلهم اتفقوا على ان السفر الى بلاد المغرب للاتجار شيء ضروري جدا، وانهم كانوا محتدين من الحظر البرتغالي، ولهذا فانهم رجوني أن اكون واسطة متواضعة لدى سعادتك، في ان لا تمضي اتفاقية ما تقضي بالحيولة بينهم وبين هذا السفر، لان لتجارتهم اعظم رواج هناك، سواء في ذلك الملابس التي يعرضونها والسلع الاخرى التي تفوق في رواجها السريع سلع غيرهم من الشعوب.

وقد توجهت بعد هذه المحادثة الى السفير البرتغالي، الذي كنت قد اديت له الرسالة فاطلعته على حلول صاحبة الجلالة التي لا تقوم على منع رعاياها من الاتجار ببلاد المغرب، عن طريق مباشر أو غير مباشر، فأجاب بناء على كلامه السالف، بأن بلاد المغرب كان ينبغي ألا تذكر بالمرة، فاجبته بأن كلمة المحتلة conquets توقع في الارتباك، وتضع غينيا في الحظر العام، وأنه لولا ذلك، ما كان ليجد جلالتها غير راغبة في ان تسر سيده الملك بتلبية

طلبه. ولكنه لم يستطع ان يتحمل سماع هذا الكلام، وظل يكرر الحظر العام، الذي سرعان ما قاومته على حين كان يلح ويستحث بحدة، واستمر هكذا فى اسلوبه المحتد منذرا بأنـه لـن يكف عـن الحجـز، ولن ألح فى رغبته بأعظم حماس، مع التذكير بان ملكه لن يسمح أبدا لشعبنا بالاتجار مع بلاد المغرب، وهذا التأكيد الذى قدمه من هذا النوع، يفيد ان ملكه وسلفه ما بعثوا ابدا باية قوة حربية لتعويق هذه الرحلة، ولا أنهم سيفعلون فيما يأتى، فاجبته بأنه كانت له فرصة حسنة، ليتعامل مع انجلترا، إذا ما كانت صاحبة الجلالة قد صادقت على اتفاق بهذا الحظر، ووضعت عليه طابعها الكبير، ولكن الملك وحده أصر على ذلك واوعد بألا يتعامل بناء على الكلمة المجردة لسفيره.

وفى الختام صرح لى بأنه ما استطاع ان يفعل خلاف ذلك، وأنه يسره أن يكون العاقد للسلام الدائم، إذا كان ذلك ممكنا، وعليـه فهو يرغب فى أن يتحدث الى صاحبة الجلالـة. فقلـت له إنه فى الامكان ان يحضر الى البلاط، رابع غشت، حيث تكون سعادتك قد بعثت اليه بالاذن فى ذلك .

فى 27 يليـه سنـة 1573

* * *

وورد فى رسالة طومس ولسن الى برغلى مـا يأتى :

لعله مما يسر سعادتكم أنى قد تحدثت مع السفير البرتغالى مرة أخرى على عودته من خارج البلاد، وأنه، كما أستطيع فهمه، لا يمكنه ان يفعل أكثر مما هو مصر عليه، لان ماموريته هكذا توجهه، وهو ما فاه به من أن حظر التردد على بلاد الملك المفتوحة له، ينبغى الا تتأخر المصادقة عليه من قبل صاحبة الجلالة الملكة، ويختم ذلك بختمهـا، وبالنسبـة الـى شعبنـا الذى يتاجر فى بـلاد المغرب، فان ملكه هو الذى يكون له النظر فى قضيتهم، وبذلك لن يضايق احدا مـن شعبنـا .

وقد قلت له ان هنـاك فـرقا عظيمـا بين الكلمات والاعمال، فان كانت ملكتنا صاحبة الجلالة ستمضى حظرا عاما تحت ختمها الاعظم لان الملك اعطى وعوده بواسطة سفيره، بمجرد ان رعايانا لن يضايقوا، فان هذا يكون من اغرب الغرائب، اذ ان الاتفاق ليس طرفاه مماثلين، بل ان فيه حيفا على شعبنا، وعليه فانه ليس هناك ملك مسيحـى له او كان له ان يذعن الى ذلك، «وماذا يكـون لو أن الملك الذى هو على قيد الحياة او الذين يخلفونـه من الملوك جنحوا الى رفع هذا الحظر الذى يجبر رعاياها ان يعملوا بمقتضاه على مضض من جلالتها،

فأجاب بأن على صاحبة الجلالة الملكة ان ترتضى مشيئة الملك أو حلفائه لمعاقبتهم اذا حدث ان قبض على مثل هؤلاء المذنبين، فقلت له كلا، فلا مثل هذا الجواب سيكون مرضيا عنه بواسطة الملك، حينما يبرم ذلك الاتفاق من طرف واحد، لا انا ينبغى لى ان اجعل صاحبة الجلالة تسلم بتلك الدرجة القصوى من مضرة رعاياها، حينما يتمكن منهم وقد وقعوا فى تلك التهلكة، فتسلمهم الى غضب أمراء أجانب، هكذا بدون تعقل، ليعوضوا تلك الاضرار التى ربما لم يكونوا قد ارتكبوها .

فأجاب بأنه لا الملك الكاثوليكى (فليب الثانى) ولا حتى الملك الفرنسى قد منع ابدا اية رسالة فى هذا الصدد، ولو ان رعاياهما كانوا غالب الاوقات يسجنون، وفى كثير من الاحيان قتلوا لاتجارهم فى اراضيه المحتلة، فقلت له إنى لم اكن متأكدا من ذلك، بل كنت متأكدا من انه لا الملك الكاثوليكى ولا الملك الفرنسى كان دائما يمنع رعاياه من الاتجار بأقاليم الملك المفتوحة، كما كنت على علم من أن الملك جون، جد الملك، قد بعث بسفيره الى الامبراطور شارل (18) لهذا الحظر، فكان منه ان رفض ذلك فى مثل تلك الكلمات الحادة التى لا يمكننى أن افوه بها، مما هو مثبت عندى كتابة، وما زالت اصوله محفوظة هنا فى انجلترا، وقد مرت هذه اللهجة وأشد منها بكثير، ثم أشرت على السيد هرل Hearle بأن يصحبه فى رحلته، فقال انه ان كان سيسر ذلك سعادتكم فانه سيقوم به، وسيكون السفير شاكرا لكم على ذلك شكرا جزيلا .

من منزلى فى متم يليه سنة 1573

حاشية، حينما توجهت هذا الصباح الى السفير لاعبر له عن متمنياتى فى هذه الرحلة، تلقيت رسالة سعادتكم، وبذلك أرجاته الى يوم الاثنين، وهو بخضوع يشكر صاحبة الجلالة، التى أولته مثل تلك العناية، حيث انه لم يضطر الى انتهاك حرمة يوم الاحد، كما انى حقيقة كنت فى البرتغال موقوفا منتظرا طيلة يومى الاحد، حينما عبرت القطر .

والسفير غير مسرور من وليم ايرل (19)

---

18) يريد شارل الخامس ملك اسبانيا وامبراطور المانيا، كان يعرف بكرلوس الاول، فلما بويع امبراطور على المانيا بويع باسم كرلوس الخامس، واتخذ لقب جلالة بعد ما كان يعرف بلقب ضون، جلس على عرش اسبانيا سنة 1517 بعد وفاة الملك فرنند، وبعد وفاته تولى ابنه فيليبى الثانى

19) William Erle هو المستر هرل الذى سبق ان اشار عليه بأن يصحب السفير فى رحلته

وورد فـي مذكرة صدرت عن البلاط الانجليزي جوابـا على ما تقدم به السفير البرتغالي بانجلترا فرنسيسكو جيرالدي السالـف الذكر، ما يأتي :

ان صاحبة الجلالة مستعدة لاستمرار الصداقة الحسنة مع ملك البرتغال على اساس معقول مرغوب فيه ولانعاش حركة المواصلة الحرة والاتجار بالبلاد المغربية من رعايا جلالتها ورعايا الملك المذكور، وفي جميع ممتلكتها من البلاد، كما كان متخذا قبل الايام الاخيرة، واستمر معمولا به من جانب ملك البرتغال بالنسبة الى بعض رعايا صاحبة الجلالة وسفنهم، حيث انه كان في غالب الايام مسموحا به من قبل ملك البرتغـال، أمـا ان صاحبة الجلالة ينبغي لها ان تمنع رعاياها من الالتجاء الى بعض الاقطار في افريقيا، والهند، التي يسميها أقاليمه المفتوحة، وايضا من الالتجـاء إلـى بلاد البـربر، باستثـنـاء بعض الجهات في الموانيء التي سميت، مع تحديدات أخرى عينت أخيراً بواسطة الفارس جيرالدي باسم سيده الملك المذكور وذلك في محادثة مع صاحبة الجلالة أعلن عنها فان صاحبة الجلالة ما زالت مثابرة على تصميمها السالف، ذلك أنها لا تستطيع وفقا لشرفها واستجابـة لنداء ضميرها ان تربط نفسهـا بتعهد تمنع بموجبه رعاياها من اي اتجار مثل هذا أو أي التجـاء بالملاحة الى اي قطر من الاقطار التي كانت كذلك، ايام أجدادها، ملوك انجلتـرا مقصـودة لها، خصوصا أيام الملك والدها المقدس، والملك السالف أخيها، والملكة السالفة اختها (20)

لانـه ان كان لها ان تفعل كذلك، فانها تكون به في قرارة نفسها قد حقرت الدولة التي هي تحت تاجها ونالـت من حرية رعاياها، حيث تمنعهم من ذلك الاتجار الذي هو فـي درجـة أقل مما كان عليه في أي وقت مضى، وعليه فاية صداقة تكـون قد استمـرت بين تاجي انجلترا والبرتغال، ومما يجدر أن يذكر به أن صاحبة الجلالة، في الايام العديدة، ومنذ ان تحلت بهذا التاج، كانت ترفض قبول هذه المطالب، مسلمة الى بعض الشخصيات المختصة الذين بعث بهم من قبل الملك المذكور عدة حجج قوية، واتفاقيات وشروطا، كانت نفس المطالـب خارجـة عنها وليست لها اية صفة تمكنه من حقوق قد منحت له كما قد طلب منها ذلك.

---

20) والدها هنـري الثامـن، وأخوهـا هو ادورد السادس (أمه جان سيمور) وأختها هي ماري (أمهـا كترينـا بنـت فرنند الملك الاسباني وازابيل الملكة) وهي زوج فليب الثاني اول امرأة تولت الملك فـي انجلترا (على حين كانت ماري الاخرى ملكة لاسكتلندا)

وبالنسبة الى المحاولة التى بذلت فى المداولة الاخيرة وبمقتضاها يكون رعايا صاحبة الجلالة محرومين من الاتجار ببلاد المغرب، الا ببعض الموانىء تحدد ببعض الحدود، فان جلالتها تستغرب من أن يطلب هذا فى حق بلاد المغرب وهى مدركة بوضوح أن هناك ملكا معترفا بـه، يملك ذلك القطر من بلاد البربر، تحت لقب ثلاث ممالك، هى فاس، ومراكش وسوس وانه بواسطة هذا المظهر السليم، فان كل التجار من جميع الشعوب، مثل الفرنسيين، والاسبانيين، والفلمنكيين، وحتى البرتغاليين أيضا، كما هو مصادق عليه، لهم جميعا أن يتاجروا بكل حرية وفى هدوء بكل من الممالك الثلاث، ولهذا فان كانت صاحبة الجلالة ينبغى لها أن تصد رعاياها على اى حال عن هذا الاتجار، فان عليهم ان يكونوا فى حالة اسوأ من اى شعب آخر فى هذه الايام.

ومع ذلك، فباعتبار ان جلالتها ترغب فى الوسيلة الحسنة لانعاش الصداقة القديمة مع ملك البرتغال، ولتجديد الاستمرار فى المعاملة بين رعاياهما، وأن صاحبة الجلالة تدرك أنه بواسطة هذا الالتجاء الحر من رعاياها الى بلاد البربر، فان بعض الاشخاص المشاغبين يحملون المواد الحربية والاسلحة إلى البلاد المذكورة، مع أنها عدوة ملك البرتغال والدين المسيحى، وأن جلالتها من أجل رغبتها الطيبة فانها سوف تأخذ بالحيطة والحزم فى مثل هذا الامر مع رعاياها ــ بدون ان تلتزم باى التزام فى ذلك ــ فتتجنب مثل هذه الاتعاب، كما انها ستبعث أيضا تجارها للقيام باتجارهم فى بعض الموانىء الشهيرة، بحيث انّ هذا الاتجار سيكون أكثر ظهورا وعلانية وبذلك فانهم لن يحيدوا عن خطة الانصاف فى تجارتهم هناك وتصريف بضائعهم. ولا يستعملون تجارتهم لتحريض أعداء الملك وتزويدهم بالاسلحة او اى شىء له صلة بالاعمال العدائية تجاه الملك المذكور

وأخيرا فان صاحبة الجلالة ستصدر أوامرها بألا يحمل رعاياها معدات حربية تسلم منهم شخصيا الى أى كان ببلاد البربر ومن خالف تحل به عقوبة المصادرة لجميع سلعه ويستولى على السفينة او تؤخذ منه قيمتها، ملزمين بأنهم سيسجلون لدى بعض الموانىء بانجلترا، كل معداتهم الحربية، السلاح والذخيرة... التى سيحملونها للضرورة فى سفنهم بقصد الدفاع عن أنفسهم وسفنهم فى رحلتهم.

وكذلك يلزمون بأنهم لن يتوجهوا بالاتجار ببضائعم الى موان غير الثلاثة المسماة، يعنى العرائش لمملكة فاس، وآسفى لمملكة مراكش، ورأس

الجير أو الجبل ـ آجدير ـ لمملكة سوس، الا اذ كانت هناك زوابع او بعض الضرورات الاخرى فانهم سيكونـون لذلـك مضطرين، لالتجاء الى اية ميناء أخرى. ثم انهم فى عودتهم سيبعثون باعلامهم، ويأتـون بمحضر يثبت انهم كانوا مضطرين جدا للالتجاء الى ميناء اخـرى، غير التى ذكرت سابقا، من الثلاثة، فيذكر جميع ذلـك ويحتفـظ بـه فـى المحضر ليعلم به، فاذا كانوا فى عودتهم ولم يبعثوا نفس الشىء ليسجل، سواء فى الميناء التى سيصلون اليها أم فى الميناء الرئيسية، فانهـم سيعاقبون كأشخاص خالفوا القانون فالتجأوا بدون سبب الى ميناء غير معينة لهم من الموانىء المذكورة ...

وأيضا، فانه ينبغى ألا يغيب على الاذهان انه اذا كان ملـك البرتغال سيكون له سفير هنا او ممثل له، فان نفس السفير استعداداً لما عسى ان يدعى من ان سفنا قـد خرقت الاوامر فذهبت الى موان أخرى غير المذكورة الثلاثة المحددة، أو انها حملت أسلحة او معـدات حربيـة، سيكون بناء على ذلك على علم بكـل السفـن المسجلة وحمولتها فى أى ميناء من انجلترا حتى يسهل عليه معرفة السفينة التـى ترتكـب التقصير، ومن سيكون مواخذا فى ذلك، وبتجنب هذه الاخطار فـان هـذا الامـر سيستمر هكذا حتى تجد صاحبة الجلالة الملكة رعاياهـا يعاملون معاملة حسنة من قبل الملك المذكور أو وزرائه، وحتى تكون الصداقة مستمرة بين الاميرين (الملكة والملك).

أبريل 1574

* * *

وورد ايضا فى مذكرة اخرى اجابة لفرنسيسكو جيرالدى ايضا ما يأتى:

ان صاحبة الجلالة مسرورة من تجديد وتوطيد الصداقة المتبادلة بين جلالتها والملـك المذكـور، ولاقـرار الحريـة فى التعامل التجارى بين رعايا كلا الاميرين، ولاجل استرداد او تعويض الاشياء المحجوزة عند كلا الطرفين منذ ابتداء الحجز العام الاخير، فيمـا قـد نـص عليه فى مواد الاتفاقية التى عقدت بين بعض مستشاريها والسفير المذكور، فانه ستستقر هذه الاتفاقية فى قوتها السالفة، مـن حيـث التطبيـق للجـان المكلفـة التى تعين بواسطة سفير الملك المذكور للقبول والمصادقة على ما سلف ذكره.

وفـى المـواد المذكـورة التـى كانـت احداهـا بالـذات مخـصصـة لترضية الملـك المذكـور، حول التماس مقدم من السفير المذكور، الى صاحبة الجلالة، التى كانت قد سرت لتحذير رعاياها للاقلاع عن الاتجار ببلاد للملك،

التى تسمى عموما بلاده المفتوحة، ما عدا رعايا جلالتها الذين لهم تجارة معتادة فى جميع بلاد المغرب، وبعض الجهات الاخرى التى اشتملت عليها المواد المذكورة، نظرا الى أن السفير المذكور قد بين أن سيده الملك المذكور لا يأذن بالحرية تكون متروكة هكذا لعموم رعايا صاحبة الجلالة، بجميع بلاد البربر ولكنه يطالب أن يكون هناك بعض الجهات المعينة تخصص بالاسم، وأنه لا احد يمكنه أن يتاجر هناك الا من يكون اولا قد سجل بالبرتغال، ليكون معروفا، ويلتزم أنه لن يحمل اى سلاح ولا اعتدة حربية لبلاد البربر، وعلى هذا اجابت صاحبة الجلالة بانها لا توافق ان تربط نفسها باى اتفاق ينص على أن رعاياها يحرمون من الاتجار ببلاد البربر، ولكن لارضاء الملك وترضية رغائب السفير الملحة جدا فانها قد فعلت كل ما يفعل ترضية لاى سفير من سفراء الملك المذكور، الذين فيما مضى قد توسلوا اليها كذلك، وعليه فقد سرت من أن المادة المذكورة ستبقى سارية المفعول، مدة ما تبقى هذه الاقطار تعتبر مفتوحة ابتداء من رأس بتج Cape of Being (21) وراء بلاد البربر طالما ملك البرتغال سيحفظ السلام تجاه رعايا جلالتها وتجارها .

وفيما يتعلق بالاتجار ببلاد البربر، فان صاحبة الجلالة، بعد ان تكون الاتفاقية قد ابرمت واستقرت المعاملة على الحرية المكفولة لكلا الطرفين ستصدر الاوامر الى موانئها بالا تحمل لا اسلحة ولا اعتدة حربية الى بلاد البربر الا ما يقصد به الدفاع عن رعاياها الذين يقومون بالملاحة هناك، ولتجنب التدليس والخداع، بواسطة المترددين على جميع الموانىء لبلاد البربر، فان صاحبة الجلالة قد سرت كذلك من أن رعاياها سينذرون بألا يلتجأوا الا الى ثلاث موان فى بلاد البربر المعاملة التجارية، وهى : العرائش، وآسفى، واكدير، فان حدث فيما بعد أن هذه الموانىء الثلاث ستوجد غير قابلة للاتجار فحينئذ سيلجأ الى موان أخرى بدلا منها، ولا تتجاوز الموانى الثلاث وان ملك البرتغال، حينما يستدعى الامر، سوف يحصل على الاعلام الذى يسلم اليه باستبدال ميناء من الموانىء المذكورة .

وصاحبة الجلالة ستصدر الاوامر بأنه كلما حاول احد من رعاياها ان يعد رحلة ملاحية الى بلاد البربر، فان رئيس السفينة سيخف الى ان يسجل

---

21) ورد هذا الاسم هكذا : Cape of Being كما ورد فى الاصل اللاتينى هكذا Cap de Bianco ولا ندرى اين يقع هذا الراس بالضبط وقد ذكر فى الوثيقة انه وراء بلاد المغرب

ذلك في الميناء التي سيشحن منها، كما يسجل كل أنواع الاسلحة والعتاد الحربي الذي سيوضع بالسفينة بقصد الدفاع فقط عنها، وعند العودة فانها ستسلم كتابيا، لتسجل في الميناء التي سترسو بها السفينة في عودتها، وبذلك فلن تتخذ اسلحة ولا معدات حربية للتعبئة، وفي النهاية ان تقدم اي شخص بالنيابة عن ملك البرتغال «معترضا بأن أية سفينة قد حملت أي سلاح أو عتاد الى بلاد البربر، وبيع هناك، فان القضية حينئذ يمكن أن تحاكم بواسطة المسجل المذكور .

2 مايه سنة 1574

* * *

وورد في رسالة فرنسيسكو جيرالدي الى برغلي ما يلي :

الى صاحب السيادة المبجل السيد «لورد برغلي» (22) لانجلترا

يرد عليكم مع هذا الكتاب التقييد المحرر باللاتينية والذي رغبتم في الحصول عليه. اما نظر صاحبة الجلالة والمهابة في هذه القضية فأعتقد أنه سيكون مطابقا للجواب الذي ادليتهم لي به في منزل «ميلور كوبانو» واما الخلاصة التي يمكن ان اكتبها لسيدي جلالة الملك الذي كان قد صادق من جديد على كل ما كان واردا في الاتفاقية باستثناء عدم تطبيق التحريم على رعايا جلالتها بالمرور والاتجار في رأس غيل مع حمايتهم حماية نزيهة بقدر الامكان مما كانت سيادتكم قد صادقت عليه في نفس ذلك المكان. ولما كان سيدي جلالة الملك يبرهن لي عن اهتمامه في هذا الامر على النحو الذي ترون والذي يستحق التقدير فاني «معتقد ايضا بأن صاحبة الجلالة ستبادر الى ما يستجيب لهذه الصداقة الحقيقية الصادقة. وإذا كان لسيادتكم ان تامروني بأن اقدم شيئا مكتوبا في ذلك اليوم فاني التمس منكم ان تحيطوني به شخصيا في يومه اذا لم يكن لديكم مانع، وذلك عند ما أمثل امامكم. واقبل يدكم ملتمسا من الله ان يحفظ شخص سيادتكم .

دالا شيرطوسة (23) (بلندن) يوم 4 مايو 1574

22) Lord Burghley هو وليم سيسل الذي سبق ذكره، ولد سنة 1520 وتوفي سنة 1598 تولى سكريتارية الدولة من سنة 1558 الى سنة 1572 وتقلد منصب أمين الخزينة من هذه السنة الى ان مات وكان يتمتع بأعظم ثقة وضعتها فيه اليزابث فكان لها صديقا ووزيرا.

23) نسبة الى سيرطوس وهو دير تأسس بلندن سنة 1371 ثم انتقل الى ملاك عديدين عند ما صدر الامر سنة 1537 بتشتيت شمل رجال الدين به (دي كاستري)

وورد فى بعض مطالب جيرالدى (24) بنفس التاريخ ما يلى :

صاحب السيادة

ان مضمن ما قلته لسيادتكم هو ان رعايا صاحبة الجلالة يستطيعون الذهاب لاجل معلوم الى رأس «ايغل» مع التصريح بعدد القوارب ومع تحريم حمل الاسلحة وغيرها من الاشياء الممنوعة .

كما ان القوارب التى ستسافر ستكون ملزمة بالخضوع للتفتيش فى احدى موانىء مملكة «لوسيتانيا» (البرتغال) وذلك يعتبر أنسب وأدعى للاطمئنان، اما اذا قدمت تلك السفن دون ان تكون قد فتشت سلفا فان الاجراء المناسب سيتخذ فى حقها بقصد معاقبة اصحابها كما لو كانوا غير اصدقاء وكما لو كانوا من المعكرين لصفو السلام (25)

* * *

وورد فى تعليق حول الاتجار بالمغرب ما يأتى :

ان رعايا صاحبة الجلالة الملكة، يقومون بالعمليات التجارية فى الاقاليم والموانىء التى نذكرها من المملكة المغربية، وهى ميناء العرائش والموانىء الاخرى الكائنة قرب مضيق جبل طارق والتى تصلح لاستعمالها للاتجار مع فاس لبيع الثياب بها وفيما يتعلق بميناء آسفى فان الاتجار يكون مع مراكش لبيع ثيابنا، ومن هناك الى البلاد السوسية حيث يكون ميناء آكدير بالنسبة الى ذلك ولتزويد سفننا عند عودتها الى انجلترا منها.

وعليه، فان رعايا الملكة مسرورون للاتجار هناك وليس وراء رأس ريول (26) الذى هو لجنوب غربى المملكة المغربية، وليس بعيدا من كنريا

مايه سنة 1574

* * *

وورد فى رسالة انطونيو فوكازا (احد الممثلين البرتغال بلندن) الى لويس دى ريكيزنس (27) ما يلى :

---

24) كانت هذه ملحقة بكتابه الى لورد برغلى

26) ورد هذا الاسم هكذا Cappe Rioll وهو غير معروف لنا.

27) Luis de Requesens حاكم الاراضى الواطئة

سيدى صاحب المجادة والسعـادة

كان آخر كتابى الى سعادتكم مؤرخا بالسابع عشر من الشهر الفارط

ان المفاوضات الجارية مع البرتغـال لا تباشـر إلا مع امين الخزينة ومع كونت«ليسيتر»(28) و «جيرالدى» بحيث لا يستطيع العموم الاطلاع عليها ولقد قيل لى بعد رسالتـى الاخيـرة ان ما منحه سيدى الملك قد جعل فى مستطاع الانجليز ان يتاجروا بشمـال افريقيا فى سبتة وطنجة والجديدة وهى المعاقل التى يملكها العاهـل هنـاك، وان الانجليز لا يقبلون الاقتصار عليها بل يريدون الاتجار فى جميع النواحى الواقعة شمال الرأس الابيض (29) والتى تشمل ممالك سوس وفاس ومراكش وخاصة فى «سانطا كروز» حيث يقومـون بتجـارة واسعـة اذ يحملـون اليهـا البضائع العديدة والاسلحة والذخائر الوفيرة ويحملون منها السكر لكثرته هناك.

ويظهر مما سبق ان هذه المفاوضات لن تنتهى الى اية نتيجة رغم الامتيازات العديدة التى يعد بها جيرالدى والمساعـى التى يقوم بها بمساعدة احد رعايا صاحب الجلالة المقيمين هنا، وهو يعلم جيدا مبلغ الضرر الذى سيصيبه فى خدمة الله وصاحب الجلالة والـذى قـد يكون اكثر تحليلا له من هذا الالتزام

ولما لم يكن لدينا اكثر مما سبق الاعلام به فلتتفضل سعادتكم بقبول مزيد الاحترام والدعاء لكم بالرقـى .

وحرر بلندن فى فاتـح يونيه 1574

* * *

وورد فى رسالة روجر بودينهام الى برغلى ما يأتى :

ان ملـك البرتغـال قد اعد اعظم تعبئة للذهاب الى بلاد البربر، ولفتح جميع اقطارها، وعلى حين ان ملك اسبانيا احال كل اعماله على مجلسه، فان ملك البرتغال على العكس سيفعل كل ذلك مستبدا بنفسه، وبناء على اعتماده على ارادته، فقد ذهب الى مدينة طنجة، فى بلاد البربر، وهناك وجد المغاربة أقوياء بحيث انه كان مقتنعا راضيـا، ووعد بأنه سيذهب هناك مرة أخرى فى ربيع السنـة .

28) يريـد روبـرت دودلـى الـذى يحمـل لقـب Earl of Leicester وهو الذى تولـى قيـادة الفرقة العسكرية التى أرسلت من انجلترا لمساعدة الالمان فى ثورتهم على الاسبان سنة 1585

29) Cabo Blanco وقد تقدم انه يقع بين وادى الذهـب وموريطانيا

وحينما كنت بالبرتغال، طلب مني ان آخذ على عاتقي عمـلا كان ملك البرتغال قد تظاهر به، ولكن رفضت أن اتعامل هناك من اجل اهداف مختلفة ومع هذا فاني اظـن انه من الاحسن إطـلاع سيادتك على ذلك. والشائع أن رجلا يدعى كوتيـرال وآخريـن سيذهـبون الى انجلترا، او مكان آخر قد حصلوا على بعض السفن الانجليزية، مع عدد عظيم من الانجليز فيها بكامل عدتها، وهكذا ستذهب الى رأس جير، الى سنتنا كروث، لعرض تجارتها بها كما انها ستشتري بعض السلع هناك. وبواسطة هذه الوسيلة التى كان لهم أن يذهبوا بهـا، لاخـذ بعـض السفـن الشراعية البرتغالية، وبيع الرجال للمغاربة للحصول على اكثر حظوة، فانهم سيكونون هناك دائما على تأهب واستعداد، بحيث أنه حينما يأتى الملك الى هنـاك، بجميع قواته الحربية، فانهم مع الانجليز المذكوريـن عليهـم أن يخفـوا الى البر الى حصن آجدير المذكور، وان يدخلوه، ويكونوا هناك، لينهضوا مع السلطة المذكورة، وعلى الملك ان يمدهم بالمعونة، وهكذا يستطيعون ان يستولوا على آكدير.

وكل عـزم لملك البرتغـال قـد اتجـه الـى بـلاد البربـر هادفا به لاحتـلال أرض المغاربة فى هذه الاقاليم، من مدينته سبتة وطنجة، ولمجرد أن يكون له من الوقت ما يأخذ فيه هـذا الحصن لآجدير، لانه حينما يأخذ تلك المدينة، فان تجارة بلاد المغرب ستكون فى قبضته وحده، وتحت سلطته هذا وان سيادتك يمكنك ان تتصرف كما سترى.

وهكذا بعيدا، فى الوقت الحاضر، فانـا أظن أنه من واجبى أن احيط سيادتك علما بذلك، فان سرك ان تامرنـى باى شىء اكثـر فى المستقبل، فانا ساكون مستعدا بخدماتي دائمـا.

16 نوفمبر سنة 1574

* * *

وورد فى التماس التجار المترددين على المغرب ما يأتى :

ان ملكـى اسبانيـا والبرتغـال، لاعتبارات عظيمة وراجحة عديدة، لا يأذنان لاحد من رعاياهما بالاتجار فى مملكة المغـرب بافريقية، الا برخصة خاصـة، يكـون بها رعاياهما قد حصلوا على اذن فى ذلك وبان يكونوا من التجار المحترمين والملحوظيـن، ويحافظـون على تجارتهم فى البلاد المذكورة فى نظام حسن بحيث يكون ذلك جدا ،ملائما وضروريا لهم وهم فى دار الكفار (يريد المسلمين) وأعداء المسيحيين .

وقد احتل الآن الاتجار المذكور في بلاد البربر بالانجليز بصفة عظيمة. وأشيع اخيرا ان من هؤلاء كثيرا غير ماهرين في ذلك، بحيث إن التجار الخبيرين كانوا يريدون أن يعودوا الى بلادهم في نفس السفن التى حملوا فيها سلعهم، والآن قد مرت سنتان قبل ان يأتوا عائدين من تلك الاقطار الخطرة، وبجانب هؤلاء المحتلين غير المحتكين، فان هناك بعض المحتلين غير القانونيين في بلاد البربر، فهم يحملون الذخائر من هذه المملكة لشراء السكر بها، وليس ذلك مقابل الثياب، بحيث أن صاحبة الجلالة تفقد بذلك دخلها، وبعض الذخائر الاخرى المنقولة بالسفن مثل المجاذيف، والكبريت الاصفر، والدروع، وبعض الذخائر الحربية الاخرى، مما له ربح عظيم وفوائد جمة وهم يفضلون ذلك على سلامة عدة مسيحيين مساكين يوسرون يوميا في عرض البحار من قبل الكفار المذكورين .

وللعلاج الذى نراه لذلك ولتقوية الاتجار المذكور في نظام حسن (يكون ما يأتي) :

انه ربما يسر صاحبة الجلالة ان تمنح رخصها لبعض التجار المعروفين جدا والفضلاء منهم ليحتكروا وحدهم التنقل بالتجارة الى بلاد البربر، مانعة رعاياها الاخرين من الاتجار المذكور، غير الذين يحصلون على رخصة من جلالتها فيذهبون وحدهم يعني :

انه لا انجليزي يسمح له ان يتاجر في بلاد البربر، الا من كان قد حصل على رخصة يستمر العمل بها اثنتى عشرة سنة جيئة وذهوبا، وفى نفس الوقت فانهم يبحرون الى بلاد البربر باحد عشر ألف ثوب، ونفس الثياب يجب ان يبحر بها من ميناء لندن لا غير، مؤدين لجلالة الملكة الرسوم الجمركية، مثل ما كانوا يفعلون في الايام الماضية.

أنه، لا سكر سيروج، أو يشحن من بلاد البربر، توا الى انجلترا، الا بواسطة التجار المحصلين على الرخصة .

وفيما عداها فان جميع التجار، سواء كانوا انجليز ام اجانب، يمكنهم أن يجلبوا السكر الى انجلترا، حسب ارادتهم عن البرتغال، وجزر كنريا، أو من اى الاقاليم الاخرى حيث ينبت السكر ويصنع .

سنة 1574

* * *

وورد في رسالة بنيديتو سبنولا احد التجار بلندن الى برغلي ما يأتي:

لقد ابلغت السيد «جيرالدي» كل ما كلفتموني به فشكر سيادتكم شكرا جزيلا سواء على الفضل الذي تفضلتم به عليه الآن او في مناسبات اخرى وسوف يعترف لكم بذلك الفضل شخصيا قادما لزيارة صاحبة الجلالة والمهابة الملكة يوم الاحد بعد الغذاء . كما انه سيوفد امين سره صباح الاحد لمقابلة سعادتكم حتى يعرف الوقت المناسب لراحة صاحبة الجلالة قادما من «كولبروك» التي سيحل بها يوم السبت.

اما فيما يرجع لقضية البرتغال الذين لهم احتكار التجارة بافريقيا فقد ساءه ما بلغته اياه عن سعادتكم، غير انه لا يزال يؤمل انه سيجد حسن الاستعداد لترضية ملك البرتغال والاستجابة لطلبه سواء عند صاحبة الجلالة أو عند أصحاب السيادة اعضاء مجلس استشارتها.

واذا كان الامر كما ذكرت سعادتكم فاني اطلب منكم تفاديا لاقلاق صاحبة الجلالة ان تتفضلوا بمباشرة القضية مع اصحاب السيادة أعضاء مجلسها المبجل. واني أرى أنه من المفيد ان تتدارسوا القضايا التي اعتقدت من المناسب والمفيد ارسال مذكرة في شأنها صحبة هذا الكتاب لاظهار الملكة عليها .

وعلي ان اخبر سعادتكم ايضا بأن امين سر السيد (جيرالدي) المذكور كان يتحادث مع ابن اخي فأسرف في الحديث، اذ ذهب الى القول بأنه يأمل ان تسوى قضية شمال افريقيا، لان الملك سيرضى عن اقتصار رعايا صاحبة الجلالة على التجارة بتلك الانحاء باستثناء الاماكن الثلاثة التي توجد بها حصون الملك والتي يعتبر انه من المناسب ان لا تباشر فيها تجارة من قبل السفن التجارية، الا ان ذلك السفير لم يبعث لي اية مذكرة في الموضوع، ولعله يريد الاحتفاظ بذلك ليوم آخر وهلم جرا.

وحرر بلندن في يوم 20 اكتوبر 1575

* * *

وورد في مذكرة بنيديتو سبينولا المذكور بتاريخ 20 اكتوبر 1575 ما يأتي :

ان ملك اسبانيا قد رغب في ترضية ملك البرتغال فحرم على رعاياه التجارة في شمال افريقيا والا استهدفوا لعقوبات خطيرة يصدر مرسوم بشأنها .

كما ان ملك فرنسا قد اعطى شفويا نفس الشيء مؤكدا انه اذا خالف احد الرعايا أمره فعليه تقع جميع الاخطار والخسائر التي قد تنزل به على ايدي البرتغاليين .

وعليه فان التجارة المذكورة لن تكون ذات طابع عام تستفيد منه المملكة كلها وانما يستفيد منه بعض تجار لندن .

وعلى العكس، فاذا ما ادت مساعي السيد «كابابيرو جيرالدي» الى الاتفاق على توجيه جميع تجارة التوابل البرتغالية الى لندن أو غيرها من جهات المملكة فان ملك البرتغال سيكون مرتاحا جدا اذا ما تمت الاستجابة لطلبه فيما يرجع الى التجارة بشمال افريقيا .

واذا لم يكن في الامكان الحصول على تلك الرغبة بصفة دائمة فليكن ذلك على الاقل طيلة حياة ملك البرتغال

وإذا لم ترض صاحبة الجلالة والمهابة الملكة عن إصدار التحريم المطلق كما فعل ملك اسبانيا فلتفعل على الاقل كما فعل ملك فرنسا فصرح بأن من أقدم من رعاياه على الاتجار في المواقع التي يحتها البرتغال في شمال افريقيا فان اخطار عملهم تعود عليهم

اما اذا صدر في وقت من الاوقات امر يقضي بترك الحرية لملكي اسبانيا وفرنسا المذكورين او لغيرهما من الامراء فان مفعول ذلك الامر يشمل هذه المملكة ايضا .

* * *

وورد في اختصار شكوى الرعايا الانجليز مما انتهبه منهم الفرنسيون، في منتصف يليه سنة 1576 .

في يليه من سنة 1576، كانت سفينة تنتمي الى ميناء لندن، تدعى (ذي أنتيلوب) يمتلكها أنتوني جرت، وتومس بروملي، وروبرت هاو، قد أفرغت ببلاد البربر محملة بالسكر وسلع اخرى، مع مثيو فيلد، وأرذر دوبني، وادموند هوجن، وتجار آخرين من رعايا صاحبة الجلالة بلندن، فأخذت بطريق القرصنة، وانتهبت، ثم اقتيدت مع سفينتين أبحر بهما بواسطة شرلس بوي قبطان من نيهابون، وآخر اسمه مليرت أحد قبطانات السفينة المذكورة، بما قيمته اربعة آلاف ليبرة

* * *

وورد في مذكرة المجلس الاستشاري الانجليزي ما يأتي :

وصلت رسالة الى المورد ادمرال، تحيط علم سيادته بأن بعض التجار من الاقاليم الشرقية يفكرون في تصدير سلعهم الى بلاد البربر، وهي بعض الاعتدة الحربية من الاعيرة الحديدية، وذلك من سفير البرتغال بالنيابة عن سيده الملك، وكذلك بضاعات اخرى تقضي الاعتبارات الحسنة المتبادلة بيننا ان يحتفظ بها، مدة دوام سيادته يظن ان اجتماعاتهم المرغوبة ستكون مستغلة الى أقصى ما يمكن ان يقع عليه الاتفاق ويمضي. ولما أعلم بأن التصدير هناك سيكون من «الاسترلنج» التفت للاستماع الى بعض الانجليز والربانين بانتباه ليلم بذلك «الشاطيء» الذي ستقلع منه سفن أخرى، وقد اعتقد سيادته خيرا في ان يصدر الاوامر للضباط المذكورين، والاماكن التي هي تحت سلطته الشرعية، كما انه سيرى من اللائق ان يشرح ما ذكر لاولئك الرؤساء المذكورين والربانين الذين صدرت اليهم التعاليم، بالا يرتكبوا مخالفة او يقوموا باي تدليس راغبين من سيادته ان يكون هذا الحجز بالاحرى متبنقا عنه بمقتضى سلطته اكثر من انه قد امر بذلك هكذا وبواسطة سيادته

قصر همبتن 3 فبراير سنة 1577

* * *

وورد في التماس التجار المترددين على المغرب كانوا قدموه الى برغيلي ما يأتي :

بما ان بعض تجار لندن، استغلوا التعامل مع بلاد البربر، فجلبوا الى تجارتهم الخاصة أحسن انواع السكر بتلك البلاد (ولو كان جدا معلوما لهم، أن السكر المذكور هو في الحقيقة يخص تجارا آخرين بلندن، كانوا قد أدوا لذلك واجبه من قبل بمدة) وهذا السكر وزع في الجهات التي قد بعثوا به من هناك اليها بأسعار مرتفعة جدا، وبذلك حملوا السكر المذكور الى البلاد الاجنبية، بحيث إن الملكة صاحبة الجلالة لم تكن فقط قد حرمت من أحسن الانواع، بل انها تكون قد فقدت رسوم جمركها، وانتهكت حرمة تجارها المكتتبين، ومع هذا تكون ملزمة بديونهم في أعمالهم هذه لتؤدي الاتعاب المرتفعة جدا، ويصل السكر مع هذا الى ثمن عظيم جدا.

هذا على الرغم من انه أيضا واقع تحت الشبهة وانه لا يخلص فقط الى الاقاليم المذكورة بل يصل الى أخرى أيضا، تحت ادعاء انه يجلب لرغبة صاحبة الجلالة ولتزويدها بالسكر، وقد دبر للعمل تدبير آخر له معناه

الآخر ومغزاه، ولهذا فانه لابد لمنع كل اتجار هناك مرة اخرى من احتياط لا يقعون به فقط في المخاطرة التي يفقدون كل ديونهم بها، بل مع هذا يضعون السكر في اثمان مرتفعة جدا ويخفضون تماما من قيمة سلع انجلترا عموما لان لهم سلعهم الخاصة، وكل ادعاءاتهم لاحظ لها من الحقيقة.

وبعطف النظر الذي يجب لذلك، فانه ينبغي لمسرة سعادتكم ان يمنع منعا كليا التعامل بأي وسيلة غير مرضية هكذا، ولاخذ الحيطة فيما بعد للتجارة المرسومة، يجب ان لا يكون هذا الحق للاقدم والاعتق تجارة هناك فينهب، ويعطلها بمثل تلك الممارسة. ولكن ايضا يكون هذا لمن ينمي هذه التجارة ويقويها ويستمر فيها، ويعمل ايضا كل ما من شأنه ان يحتاط للاحداث المحتمل حدوثها في ذلك المكان كما يبدو لنا. والرأى لسيادتك .

الامضا : فلان وفلان الخ.

17 فبراير سنة 1577

* * *

وورد في تقرير ادمون هوجان ما يأتي :

أولا ان جون وليم المذكور منذ خمس سنوات خلت قضاها في همبورك وهو يقوم بأعمال سيده ادموند هوجان على حين كان السير طوماس جريشام(30) يحادث بعض رجال صاحبة الجلالة الملكة، في مسألة التزويد من ملح البارود فأرسل رسالته الى السير جون وليم ليرى كيف يمكنه ان يهيأ كمية هامة في هذه البلاد، ولكنه وقد صادف عائقا لان الثمن هو 22 و 24 دولار، وهي 6 لبرات فلمنكية ومن قبل كثيرا ما كان قد يتزود أيام صاحبة الجلالة الملكة بكمية عظيمة وبثمن 3 لبرات و 10 شلنات، فانه لا يمكنه ان يعمل شيئا في همبورج وليبك ودنسك وما حول ذلك من الجهات...

وقد زاول وكيلي المذكور في همبورج ان يبيع ويشترى سلعا بالمقايضة وذلك بنوع من الثياب الصوفية الرقيقة الوطنية التي لا تباع حينما يوتى بها الى انجلترا، فكنت مضطرا لارسالها مع صاحبي الى بلاد البربر، حيث إنه خلال التجارب التي حصل عليها، بواسطة السير طوماس أدرك أن بالبلاد وفرة من ملح البارود، وهذا الملح أحسن جدا مما يمكنه ان يحصل

30) Sir Thomas Gresham مؤسس البورصة الملكية بلندن

عليه في أي بلد آخر من البلاد التي سافر اليها، فباشر جميع الوسائل الممكنة كي يمكنه الحصول على ذلك، فوجد قوانين صارمة جدا بالا أحد يمكنه أن يصدر الى الخارج ولو كمية قليلة منه، ولا ان يتاجر فيه بالبيع أو الشراء، غير الملك الذي يستعمله...

ومع ذلك فقد اجرى اتصالات مستعملا كل الوسائل الممكنة، وعارضا كثيرا من السلع التي لديه أو أية سلعة أخرى من السلع التي كانت مطلوبة هناك، ولكن ذلك لم يقبل منه الى ان انتهى الى حيث كانت معاملته مع مستشار للملك، في السنة الماضية، وهذا المستشار يدعى القائد مراطو، الذي باشر مع الملك القضية ووفق بأن يجعلها تمضي، بحيث ان الملك أجاب القائد بما يأتي : بانه يوافق ان نحن أخذنا على عاتقنا ان نجلب اليه قنابل من الحديد لاستعمالها في مدافعه الكبيرة، فبذلك يمكننا الحصول على ملح البارود، أو اية سلعة اخرى في مملكته، ولكن قبل ان يعرض هذا العرض استدعى مستشاريه من الصلحاء (الفقهاء) الذين أجمعوا على انه، بالرغم من ان قانونه يعارض ذلك، حيث انه يقضي بالا ملح بارود يصار الى المسيحيين، الا أن اقتناء القنابل ضروري ويحتاج اليه من قبله، مثل ملح البارود بالنسبة للمسيحيين، وكان هذا مما يستغنى عنه بالمرة فيما مضى...

ومن أجل ذلك فان المقاييس من الارتفاعات المتنوعة والامتدادات للقنابل سلمت الى جون وليم، الذي بعث بها الي جاهزة مع كمية بسيطة من ملح البارود، وبناء على ما يفرض على واجبي فقد سلمتها الى العرض هناك، أولا الى سيدي أمين الخزينة، الذي كان قريبا من لندن، ثم الى ايرل واريك وايرل ليسيستر، وكان بكلينجويرث، Killingeworth يعوزه قدر عظيم من ملح البارود، ولهذا فقد وجدت هناك وسائل لتصدير كمية قليلة جدا من القنابل للتجربة، وقبل ان تصل هناك، كان الملك الاسود (يريد محمد المسلوخ) قد ذهب الى الميدان لمدافعة عمه (عبد الملك) الذي كان قد اقتحم بلده، ولكن بعد هزيمته الاولى، استولى عمه على فاس، فارتد هو الى مراكش، وهناك اصدر اذنه بحمل ملح البارود، على حين كانت السفينة مستعدة للابحار ولم يتمكن اصحابها الا من ثلاثمائة قنطار.

ولما تغلب عمه، المدعو مولاى عبد الملك، أخذ مراكش وطارد الملك الاسود الى الجبال، ثم صار يتطلع الى المدافع فوجد نفسه في عوز الى القنابل، فارسل الى جون وليم وجون بمبتون، الذي كان يتعامل مع الملك الآخر من قبل، فقال له : انه وان كان هناك مسيحيون عديدون من مختلف

الجنسيات كانوا قد قدموا عروضا ليجلبوا اليه القنابل والمعدات الحربية أو أى شيء آخر مما يحتاج اليه، وان عددا منهم قد تقدموا بوعودهم الكثيرة ايام الملك الآخر ولكن «لا احد قد وفى الا انت، كما علمته، وكان ذلك بواسطة المساعدة التى قدمها السير طوماس جريشام، نائب جلالة الملكة فى انجلترا، وكنت قد علمت انه يتمتع بسمعة قوية طيبة بايطاليا وببلاد أخرى مسيحية، كنت قد سافرت اليها من قبل، فاذا كان لى تلك الخدمة منك لاحصل على قنابل، بتلك النسبة التى سأعينها، فانى سأرفض كل العروض لجميع المسيحيين الآخرين، وأعقد الصفقات العديدة معك، كما فعل الملك الآخر على ان قيمة القنابل التى ستأتى بها هنا من حين لآخر، ستحصل بها على رخصة بأن تبيع وتصدر ملح البارود، والنحاس، أو اى سلعة كيفما كان نوعها، وهى بمملكتى، وانى لمعجب بالفضائل التى سمعت ان ملكة انجلترا ملكتك تتحلى بها، ولى تفاؤل حسن بالشعب الانجليزى، للدخول فى صداقة يعضدها تواصل متين بواسطة سفن الملكة وشعبها فى هذه البلاد المغربية من المضيق الى حيث البحر الشرقى، ومن ثم فلا احد من رعايا جلالتها سيؤخذ أسيرا او يباع فى اى بلد من حكومتى، كما ان صاحبة الجلالة الملكة لها ان تطلب اى شيء آخر منى أو يكون فى مملكتى»

وبناء عليه فان جون وليم وجون بمبتون، قد قدرا ما هى الخدمات التى يمكن ان تقدم الى مملكتنا، بالاتفاق مع الملك، وانها قابلة لعرض هذا الملك واحراز اعلى رخصة منه بالتردد على مملكته والتزود بملح البارود منها والوعد بأنه رفض من اية سفينة ان تأتى بالقنابل، وان الملك قد اصدر أوامره بأنه لا شيء من ملح البارود الذى سيصدرونه يمكن ان يكون بأية وسيلة صائرا الى البرتغال أو الاسبان، ولهذا فان الملك انفذ جون وليم الى إنجلترا مصحوبا برسائله الى صاحبة الجلالة، والسير طوماس جريشام، الذى كلف بجواب صاحبة الجلالة، وقد عاد اليه جواب صاحبة الجلالة، وهناك كان جماعة المسيحيين الآخرين يعرضون خدماتهم فى تلك المهمة، فأعلمهم بأنهم لن يقبلوا، ولو كان غيرنا قد حاول هذا الامر هناك لجعل مثل هذا الملك يتزود ليس فقط بالقنابل ولكن ايضا بكل الاشياء الاخرى التى تتعلق بالمعدات الحربية والذخيرة .

واستنادا على بعض اقوال رجال الانجليز الذين تحدثوا الينا ولهم من مملكته كثير من التجارب فان هناك من الرجال من حملوا الى تلك البلاد كثيرا من انواع الاعتدة الحربية والقنابل، ولهذا فلم يكن هناك عوز من تلك

البلاد الى النحاس والحديد، ولكن في هذه الايام فان السفن المحملة بالاشياء المذكورة كانت راسية على هرويتش Harwyche وفجأة اقلعت عنها

وزيادة على هذا فان الملك المذكور له اعظم معرفة بالبلاد المذكورة سابقا والاراضي المسيحية الاخرى، فيما يختص بانماء الحركة التجارية بينها وبين بلاده، وقال انه لا يشك في انه لن يمر وقت قصير حتى يجرى العمل بناء على تلك الاوامر التي يمكن ان تحدث هناك اعظم تنقل تجارى الى بلاده كما أنه يترقب ذلك من البلاد الاخرى التى قد رحل اليها، ولهذا فانه قد ادرك بالتجربة أنه توجد فى بلاده اعظم ثروة من السلع التجارية، التى لم يكن الملوك الآخرون فيما مضى قد حاولوا ان يستغلوها، وذلك كمعادن الذهب والفضة، وجبال النشادر وكمية عظيمة من شجر الزيتون، التى تستعمل منها زيوت لجل الممالك المسيحية.

والى جانب ذلك فان جميع السلع المسيحية التى تصدر من الممالك المسيحية، عبر المانيا وايطاليا لخدمة الترك ستجتاز بلاده عن طريق البر الى القسطنطينية وتكون أقرب الطرق وباقل التكاليف من الطرق الاخرى، مع السلام الشامل وعبور المسافرين بأمان وحصولهم على تذكرة الجواز...

وبناء على ذلك فانه يبدو ان سلعنا الانجليزية فى الثياب والكرازى سيكون لها رواج عظيم ينمو مع الايام فى تلك البلاد، لانه فى اليوم الذى بويع فيه هذا الملك كان هناك ثلاث سفن تحتوى على اكثر من أربعمائة طن من الثياب بيعت كلها هناك والى جانب ذلك فانى اعلم انه يوجد هنا بلندن عدد عظيم من الكرازى جلبت وأعدت للتصبيغ بكل الالوان لبعثها هناك، ولهذا فان رعايا الملك جميعا سيلبسون تلك الثياب كما هو الحال فى تركيا ولم يكونوا يستعملونها لانهم لم يكونوا قد رأوها فيما قبل .

وفى الختام فانى أجنح الى القول بانه اذا كان الملك يحاول ان يزود بالقنابل او بأي شيء آخر من غيرنا، فان صفقاته ستضيع الفرصة بالنسبة الينا ولن تكون هذه الفرصة مرة أخرى لاى مخزن من مخازننا بحيث انى منساق لتبيين ما هو منوط بى كواجبى.

وبما ان وكيلى جون وليم اعلمنى بانه من قبل كان قد وجه من المغرب وكان ذلك من بعض تجارنا الانجليز، الذين فعلوا ما استطاعوا فى اسعاف ما تبقى من هذه الصفقة، بعد ان علموا ان الملك قد قدم مشروعه، ومنح الف جنيه من أجل مشروعه الذى عليهم ان ينجزوه للملك، ولكن قبل ان يفصل من هناك، كان قد زود ببعض ملح البارود، ووعد الملك بأنه، مهما

أحضرت سفينة هذه القذائف، وكان هناك الشحن غير معد، فانه سيرسل توا ألفي قنطار من ملح البارود من مخازنه التي تقع بمراكش.

وزيادة على ذلك فانه يظن ان كل التجارات التي قدأصدرها الطليان من ثيابنا وكرازينا عن طريق ألمانيا وايطاليا لايصالها الى الاتراك، فان ذلك سيكون قد صدر بواسطة رجالنا الانجليز التجار الذين هم رعايا ملكتنا، على البر من المغرب الى تركيا، حيث ان كل كرازينا الزرقاء والمنجانات (الساعات) والشبكات، والصفريات، والخضريات، وكل الملونات من الكرازي، تروج في تركيا، وبالمقارنة فانه لن تصرف ثياب في اى مكان آخر لتلبس الا هنا، وهي تنقل بواسطة الاجانب الى هناك بأعظم الفوائد الامر الذى له من الاهمية ما يقتضى العناية والاعتبار، وبواسطة جلب ذلك من من هنا الى المغرب بواسطة البحر، فان ذلك قريب مثل اسبانيا وبذلك فاننا سنبعد كل الاجانب من التصدير ونستخدم سفننا لفائدة رعايا صاحبة الجلالة، وهو الامر الذى له اهمية عظمى لانه بذلك سيختصر ألفين من الاميال لقوافل المراكب، وفي معبر جد مستقيم، بدون التعرض الى خطر الاسبان أو البرتغال خصوصا في وقتنا هذا وحينئذ ان كانت التجارة بالمغرب فان المعبر يكون هكذا عن طريق البحر ولا تكون هناك اية سفينة تضل الطريق.

مارس سنة 1577

* * *

وورد في تعليمات الملكة اليزابث الى أدموند هوجان الذى بعث الى عبد الملك، بتاريخ ابريل سنة 1577 :

بعد تسليم خطابنا الى الملك، عليك ان تشكره جدا باسمنا، على ما منحه رعايانا، لتمكينهم من الحركة التجارية في تلك الاقطار، وانهم سيتفضل عليهم بكل انواع الحصانات والحريات، بتلك الدرجة الواسعة النطاق التى كانوا يتمتعون بها أيام سابقيه من الملوك الآخرين، وفي النهاية فان علينا ان نلفت نظره الى بعض التشريعات التى فرضت، والتى لا يسعنا الا ان نجعله يدرك أن رعايانا المذكورين يجدون انفسهم في تعب منها خصوصا أخيرا، حينما قد اخذوا بواسطة رجاله الضباط ورعاياه بطريقة متخلفة وصارت الرقابة تشدد عليهم حينما يتاجرون في السكر (لانه ليس من اصغر السلع التى يجلبها رعايانا الينا من تلك الاقطار) ، أكثر مما كانوا يعاملون من قبل، من حيث انه حلت بعض

المتاعب بتجارة رعايانا المذكورين، وليس فـي ذلـك صالح له، وايضا فانك ستكون ايضا، كما قد طلبنا منه بواسطة رسالتنا السالفة، التى كانت قد حررت له في هذا الصدد، راغبا منه باسمنـا فـي ان تلك المظالم والاسباب العدائية التى حلت بحركـة التجـارة السابقة ينبغى ان ترفع، وايضا تتخذ الاجراءات ابتداء من وصولك بأن هذا المفعول ينبغى ان يوضح اخلاص النية فى ما منحه بسخاء مما يتصل بالمعاملة الحسنة لرعايانا.

وفيما يتعلق بما كان قد حاوله من بعض تجارنـا الذين هم على عهد منه يتاجرون هنـاك من اسعافه منذ الآن ببعض الذخائر والاعتدة الحربية، مما يحتاج اليـه مـن آن لآخـر (الشيء الـذى لا نستطيعه سواء من ناحية الشرف او الضمير الذى ننساق اليه) فان رغبتنا انك تتنكب ذكر ذلك عنده، وحينما يثير مثـل تلـك القضية، فاننـا نجعلك تتخلص بأن تحمل ذلك على أحسن المحامل وتقابلـه باطيب الكلمات التى تستطيعها، ولكنه ان ألح فى ذلك الغرض، وطلبه بأعظـم التمـاس، فانك ستوضح له باسمنا كيف أنه يشق علينا، سواء من ناحيـة الشرف أو السلامة، أن تنفذ مثل ذلك الطلب الذى صد رعنـه، ملاحظيـن ذلك الحلف الذى كان عليه سلفنا، ونحن عليه حاليا مرتبطين به مع الامراء المسيحيين الآخرين جيراننا، الذين يكون لهم السبب الوجيه ليقوموا بعمل ايجابى يلزمنا الخضوع له، حالة كون هذا الغرض امرا غير شريف تماما ويجنح الى انتهاك حرمة التحالف المذكو، خصوصا فى هذا الوقت المفعم بالمشاحنات بين بعض اولئك الامراء زملائنا وزملائه، فان علينا ان نساعد بآخر مجهود للعون او الاسعاف الذى ربما يكون قد عدم، ومن ثم فباعتبار انه امير للشرف، فاننـا نامل الا يضغط علينا فى ان نستسلم الى مطالب أخرى، ما عدا تلك التى ينبغى ان تذكر بوضوح، وتقضى بواسطتنا فى جو من الشرف، وليس لهذه الاشياء، التى هى من هذا القبيل، ما يشفع لنا بأن نتحمل متاعبها اكثر مـن ان تفيده وأهـذا فانك سترغب منه باسمنا ان يمسك عن الضغط علينا فى ذلك، خصوصا اذا نظرنا اليها على انها مسألة يراعى فيها جانب الله الذى يجب علينا ان نعتبـره الباعث على الاعمال وقد وضحنا ذلك فى رسائلنا السابقة اليه، كما يفعل هو المثل بالنسبة الينا، فانه على كل حال ليس مما يقرب او يرضى به.

فـان رأيت منه مع ذلـك عدم اقتناع باجابتنا هذه، فانك يمكنك أن تجعله يفهم بوسائلك الخاصة، أنك فى حالة ما اذا كنا نرضى بذلك الضرر الذى ذكـره، فاننا نرى ذلك شبيها تماما بأننا نثير علينا غضب كل الملوك

المسيحيين المجاورين لنا، وبذلك فان حربا وشيكة الوقوع ستشن علينا، وتقع المغارات على تجارنا والبضائع الباقية فى ممالك اولئك الملوك المذكورين (مما ليست قيمته مبلغا صغيرا) فيحجز كل ذلك، ونصد عن كل حركة تجارية مع الخارج ومع معظم رعايانا انفسهم، مما يكون امرا له عاقبة وخيمة ويمسنا عن قريب، فاننا نأمل ان يقدر ذلك بناء على ما سبق، ويمسك عن ضغطنا فيما بعد .

ولكن بالنسبة الى سلع أخرى، تنتج وتصنع بمملكتنا هذه والبلاد التى هى فى حوزتنا، مما يقوم بتلبيته او يسد حاجات شعبه السلمية ويمكن بدون تحيز، الى اى جامعة سالفة، ولا يعارض ما بيننا وبين الامراء الاجانب، فيما يصدر أو يستعمل فى تصريف البضائع، فان لك ان تؤكد له انه سينال مثل ذلك وبكمية عظيمة منه، بقدر ما يسعف به ملكنا، ويكون له ولشعبه ملائما .

* * *

وفى رسالة لادموند هوكان الى اليزابث، ورد ما يلى :

لعله يسر جلالتكم ان ينهى اليكم انه، بعد رسالتكم الشريفة العلية التى سلمت الى ملك المغرب مع تفويض جلالتكم، الذى امضى وسلم الي، فانى توجهت الى تلك الجهات، مبحرا من ميناء بورتسموث Portsmouth فى اليوم السادس من مايه، وفى الحدى والعشرين من نفس الشهر، وصلت الى هذه الميناء من بلاد المغرب، من موانى الملك المسماة آسفى، فمكثت على ظهر سفينة بالمرسى، وكتبت رسالة الى مراكش، حيث اتخذ الملك كرسى مملكته وفى نهاية خمسة ايام، كان الملك قد ابلغ خبر وصولى، فبعث الى بعض ضباطه على رأسهم فرقة من الجنود، وثلاثة من تجار الانجليز، ليقوموا على ايصالى بالسلامة الى قصره، معبرين لى أنه مسرور جدا من أن يسمع عن جلالتك .

ولما كان اليوم الاول من ينيه، انتهيت الى مدينته مراكش، وفى الطريق، بناء على امره، استقبلنى جميع التجار المسيحيين وقريبا من مدينته استقبلنى بعض رجال مجلسه، الذين اخبرونى بأن الملك مسرور جدا بأن يشرف جلالته بكل ما يستطيع فعله، ولهذا فانه متفائل من إتيانى الى حضرته .

وهكذا فقد احضرت الى قصره والى حضرة الملك وهو جالس على عرشه يحيط به مجلسه المكون من المغاربة والمسيحيين ايضا، واقفين حوله، فسلمته بكل واجبي رسالة جلالتك، واوضحت مهمة سفارتي بالاسبانية، التى (ولو أنه يفهمها جيدا) جعلت احدهم يقوم بالاتصال فيترجم ما أقوله باللغة العربية، التي يفهمها المغاربة ايضا، وبعد ما أسدى الملك تشكراته الى جلالتك، عبر عن أنه وبلاده وكل ما له هناك، سيكون وفق رغائب جلالتك مستخدما شرفه لتلبية مطالبك فاجبته بأن صاحبة الجلالة تكن له المثل، كما يفهم ذلك من رسالة جلالتك .

وبعد ذلك ساروا بي الى مقري، وقد عين لي بعض التعاليم مع بعض اللوازم بناء على ذلك، وفي نفس الليلة ارسل فى طلبي للذهاب الى القصر حيث أجرى محادثة طويلة، موضحا ان ملك اسبانيا قد بعث اليه، طالبا منه ان ياذن لسفيره بالاتيان الى هناك، وملتمسا من شرفه ألا يسمح باستقبال اى كان ممن يأتون من قبل جلالتك، مما كان قد امضاه ومنحه من اذن .

لكن قال الملك «حينما يأتي، فانه سيرى انني سأبدي حفاوة باستقبالك سفيرا من قبل صاحبة الجلالة ملكة انجلترا، أعظم مما يكون لاى سفير من اسبانيا، وسأستقبله بعد ان استقبل بعض سفراء الممالك المسيحية الاخرى فاؤخره عشرين يوما قبل ان اتحادث «معه» لان ذلك الملك لا يستطيع ان يهيمن على بلاده، ولكنه محكوم بالبابا والفضول، مما يدفعه الى ارتكاب ما يشمئز منه، بذلك فانى اجده بروتستانتيا غيورا جدا، على دين حق وحياة فاضلة معتقدا فى العهد القديم والعهد الجديد، وحاملا اعظم حب لدين الله الحق الذى يسود مملكة جلالتك .

وقد وجدته على استعداد ليفعل كل جميل لتجارك اكثر مما يفعل لاى شعب آخر، ولا يستعجل اى امر من جلالتك مما يجنح الى النيل من شرفك أو ينتقص من الوحدة والحلف مع الملوك المسيحيين الآخرين، مما يتعلق بواجبى ان احافظ عليه بصفة خاصة .

ومع هذ فانه حتى الآن ليس مطمئنا الى بلاده، وفى امن منها، لان الملك الاسود، ما زال معتصما بالجبال، ومعه قوة صغيرة

من مراكش بالبربر، فى الحادى عشر من يونيه سنة 1577.

* * *

وورد في مرسوم صادر عن الملك عبد الملك بما منحه لتجار الانجليز ما يلي .

بناء على مساعي السيد ادموند هوجان، فاننا قد أصدرنا أوامرنا بأن جميع التجار الانجليز الموجودين بمملكتنا لهم الحق في ان يتمتعوا بحرية واسعة في حركتهم التجارية، كما كان عليه الحال فيما مضى، وان يمكنوا من جميع انواع السكر الثلاثة بأثمان معقولة، كما كانت من قبل، وان السكر المذكور يوزن في ميزان دار المخزن في مراكش، فان نجمت أية مشادة في حجم الكمية المطلوبة فان تجار الانجليز تكون لهم الكلمة فيما أدلوا به

(6 يليه 1577، وآخر بـ 7 منه، ثم صدرت رسالة من الملك الى اليزابث بـ 10 منه)

* * *

ومن المهم في اتصالات ادموند هوجان هذه ما ورد في مذكرته التي كتبها ما بين مايه ويليه، وهي كالاتي :

ان ادموند هوجان، الذي عين سفيرا لصاحبة الجلالة الملكة، لدى الامبراطور المذكور باسم الملك مولاى عبد الملك، كان قد فصل برفقة فيها بعض الخدم من لندن، في اليوم الثاني والعشرين من شهر ابريل، سنة 1577، وقد ركب في أحسن سفينة تدعى (ذي كلين أوف لندن) the Gallion of London فوصل الى آسفي، احدى موانيء المغرب، في اليوم الحادي والعشرين من مايه

وفي اليوم الثاني والعشرين من مايه، التالي له مباشرة ارسلت ليونل ادجرتن Leonell Edgerton الى الشاطيء مصحوبا برسالة موجهة مني الى جون وليمس وجون بمبتون اللذين بعثا «رقاصا» الى مراكش ليعلما مشيئة الملك في ترتيب اتياني الى البلاط فوصلت الرسالة الى أيديهما في يوم الخميس ليلا.

وهكذا فقد مكنا بكل سرعة الملك من الاعلام بمقدمي، فسر من اجل ذلك، واقلق في اليوم التالي بعض الضباط على راس فرقة من الجنود ومعهم الخيام، وبعض الازودة الاخرى، الى آسفي، ثم في يوم الاربعاء ليلا، كان الضباط ومعهم جون بمبتون John Bampton وروبرت وشبورن Robert washborne وربرت لين Rebert Lion وموظفوا الملك قد وصلوا الى آسفي .

وفي نفس الوقت، كنت قد مكثت في السفينة، وأشرت ببعض البضائع تنزل الى البر للتخفيف عن السفينة، وقد كنت كتبت في رسالتي بأني لا يمكنني أن انزل الى البر، حتى أحصل على مشيئة الملك.

وفي اليوم الثاني والعشرين وكان يوم السبت، وصل الرقاص الينا مع الثانية بعد الظهر.

وفي اليوم السابع والعشرين وكان يوم الاربعاء، آتى الى السفينة «ذي كليون» جون بمبتون مع آخرين، أفهموني أن الملك سر كثيرا من وصولي بالسلامة، آتيا من قبل صاحبة الجلالة الملكة، ولاجل أن يأذن لي بالقدوم على بلاطه، فقد ارسل اربعة من ضباطه على رأس مائة جندي، من خيرة جنوده، مع فرس مسرج، يمتطيه هو نفسه، لان امتطيه انا، الى ما يلزم من لوازم الراحة الاخرى ورجوني أيضا ان انزل الى البر، في أحسن هيئة استطيعها، سواء بالنسبة الي وبالنسبة الى رجالي، ففعلت ذلك، ومعي عشرة رجال كان ثلاثة منهم بوجيين.

كانت السفن اربعا فاتخذت لها احسن نظام، يمكن ان تظهر به في أحسن منظر، وقد قذفت قذائفها كل مدافعها، ما قيمته عشرون مركا من البارود.

وعند وصولي الى الشاطيء وجدت في انتظاري جميع الجنود المذكورين في احسن هيئة، ممتطين صهوات جيادهم، والضباط وحاكم المدينة، واقفين قرب الساحل، على أقرب ما يستطيعون من الماء، مع جواد الملك، فاستقبلوني من القارب، معبرين عن عظيم سرور صاحب الجلالة بمقدمي سالما من قبل صاحبة الجلالة، سيدتي، ولهذا فانه أرسلهم ليلازموني في رفقتي، وان مشيئته أن امكث هناك خمسة او ستة ايام حتى أستريح من عناء السفر.

وحينئذ امتطيت الجواد، وهم امامي يقودونني الى المدينة، حيث كنا في روض أنيق جدا على شاطيء البحر، فاقيمت خيمة خاصة بي، وفرشت الارض بالزرابي التركية، وأرسل حصن المدينة بعض القذائف ترحيبا بي، واحضر الى خيمتي كل ما يلزمني، حيث كنت اتغذى وانام وكانت خيام أخرى لائقة لرجالي.

وكان الجنود محدقين بخيمتي، يحرسوننا ليل نهار، مدة مكوثي هناك وان كنت نشدت ان تكون مهمتي اسرع.

وفي يوم الاربعاء نحو الليل، أخذت فرسي وقطعت عشرة اميال حيث انتهينا الى اول مكان استطعنا ان نجد به ماء، وهناك اقيمت خيمتي

حتى الصباح التالى، ثم سافرنا حتى العاشرة وحينئذ اقمنا خيامنا ومكثنا الى الرابعة، ثم تابعنا السفر طيلة النهار فقطعنا نحو ستة وعشرين ميلا ذلك اليوم .

وفى تالى يوم وكان يوم الجمعة، سافرنا بذلك النظام فقطعنا نحو ثمانية وعشرين ميلا على اغلب تقدير، وعلى ساحل نهر (3I) كان على نحو ستة اميال من مشهد مراكش، أقمنا خيامنا.

وسرعان ما اتى كل تجارنا الانجليز، والفرنسيس، على ظهور جيادهم، ليستقبلونى، وقبيل الليل اتى قائد من قبل الملك وفى صحبته خمسون رجلا، ومعهم بعض البغال محملة بالاطعمة والمآدب لغذائى، موضحا لى كيف أن الملك مسرور جدا من أن يسمع عن صاحبة الجلالة الملكة، وقد شاء ان يستقبلنى فى قصره فى ابهة لم تكن ابدا لاى سفير مسيحى قبلى، ويرغب فى ان يعلم اى وقت يمكننى ان آتى فيه الى المدينة، لانه يريد ان يكون فى استقبالك جمع المسيحيين والنبلاء، ويريد ان يحضر اليه جون بمبتون فى الصباح الباكر، ففعل ذلك .

وحول السابعة، وكنت مصحوبا بتجار الانجليز والفرنس، وعدد عظيم من الجنود، اتجهنا نحو المدينة، وبعد ما قطعنا ميلين استقبلنا جميع تجار الاسبان والبرتغال من المسيحيين، وعلمت انهم كانوا منساقين الى ذلك بأمر الملك اكثر مما كانوا منساقين اليه بارادتهم، وقد تحدث بعضهم الي فى لطف، مطاطئين رؤوسهم مثل الكلاب، خصوصا البرتغال منهم، فسررت منهم هكذا .

ثم استمررنا فى سيرنا حتى كنا فى نحو مليلين انجليزيين على مشهد من المدينة، وحينئذ كان جون بمبتون يعود، مظهرا لى ان الملك مسرور جدا بمقدمى، بحيث انه لا يستطيع ان يقوم بعمل اكثر، ليظهر ترحابه الا ان يعبر عن كونه مدينا لصاحبة الجلالة الملكة ومملكتها بالفضل.

وقد استقبلنى رجال مجلسه عند باب المدينة، وعلى مدخلها كان مشاته وحرسه قد صفوا على كلا الجانبين من الطريق الذى سلكته ممتطيا فرسى، ثم احضرونى الى القصر الملكى.

وكان الملك جالسا على عرشه، ورجال مجلسه يحيطون به، كما كان المغاربة والعلوج ايضا، وبناء على تعاليمه التى صدرت الي من قبل، فقد

3I) يريد وادي تنسيفت

أدليت بمهمة سفارتي باللغة الاسبانية، وسلمته رسائل صاحبة الجلالة الملكة، وكل ما فهت به باللغة الاسبانية في محضره، كان يأمر به بعض علوجه بأن يفسر ذلك للمغاربة في حضرته باللغة العربية.

ولما فعلت ذلك اجابني باللغة الاسبانية (32) موجها الى صاحبة الجلالة أجزل الشكر، وعارضا نفسه وبلاده ليكونوا في رغبة جلالتها، ثم أشار على بعض رجال حاشيته ان يصحبني الى مقري، الذي لم يكن بعيدا عن البلاط .

كان هذا المنزل لطيفا بنوع ما في تلك البلاد، وكان كل يوم يفرش جيدا ويهيأ، مزودا بالزاد من كل انواع الاطعمة التي كان يأمر بها الملك.

وفي نفس الليلة ارسل في طلبي لاحضر الى القصر، فتحدثنا نحو ساعتين، حيث وضحت له الاوامر التي صدرت الي من قبل صاحبة الجلالة، فوجدته موافقا على ذلك، مريدا ان ينفذه بدون تأخير، كما شاءت ارادة صاحبة الجلالة، بل اكثر مما ترغب فيه، مدركا حينما كان خارج بلاده ان ملكة انجلترا بصفة خاصة ينبغي ان يفرغ كل احسان في معاملتها، اكثر مما هو بالنسبة لنا .

وزيادة على ذلك فانه أفهمني أن ملك اسبانيا ارسل اليه يطلب اذنا بالسماح لسفير له بان يأتي الى مملكته، موضحا انه اذا كانت صاحبة الجلالة ملكة انجلترا متبعت بأي سفير لها اليه فانه لن يعطي اي اعتماد او قبول، «قائلا ولو اني اعلم من هو ملك اسبانيا، ومن هي ملكة انجلترا، ومملكتها، ولكوني لا أحبه ولا دينه، حالة كونه محكوما بالاعتراف بأنه لا يستطيع ان يفعل شيئا من ذات نفسه، ولهذا فاني حينما اسمح له بهذا القدوم فانه سيرى اي اهتمام ضئيل سيجري في حقه وحق اسبانيا، وأي رعاية سأشملك بها لاجل صاحبة الجلالة ملكة انجلترا، وانه لن يأتي الى حضرتي كما فعلت، وانه لن يستقبل في نفس اليوم كما استقبلتك متعمدا ان تكون في صحبتي كأنك فرد من بيتي، وسيقضي عشرين يوما قبل ان يسمح له بالمثول في حضرتي»

وقبل نهاية حديثه، سلمت اليه رسائل النائب طوماس كريشم Thomas Greshom حينما كان يأخذ بيدي، ويقودني الى بهو طويل تحت البلاط حيث كانت تفوز فوراة ماء، فجلسنا على مقعد، واشار الي بأن اجلس

32) قد سبق في رسالته انه كان بالرغم من فهمه جيدا للغة الاسبانية يستعمل من يترجم له بالعربية.

على آخر، وهناك أمر بان يحضر بعض الموسيقيين في بساطة ففعلوا.

ثم قدمت اليه قاعدة عود، فشكرني عليها وتقبلها مني، كما رغب في ان يسمع من الموسيقيين (الانجليز) فقلت له ان هذا سيكون من أعظم ما ينالون به العناية ويفخرون من اجله ووعدته بأنهم على عودتي سيحضرون في اول سفينة.

وهو يريد ان يمنحهم اعظم ضيافة، وان يزودهم بكل ما يلزمهم من زاد، وان يمكنهم من ان يعيشوا كما تقضي به شريعتهم ويتمتعون بالحماية التي لا يتمتع بها احد في بلاده.

وقد وجدته أحد أولئك الذين يقضون حياتهم في خشية شديدة من الله، له عقيدة راسخة بالكتاب المقدس، سواء في ذلك العهد القديم والعهد الجديد وهو يحمل اعظم ود لشعبنا، اكثر من الآخرين، بسبب ديننا، الذي يحرم عبادة الاصنام، ولهذا فان المغاربة يسمونه الملك المسيحي .

وفي نفس الليلة التي كانت الاولى من ينيه، استمررت معه حتى الثانية عشرة، وقد عبر لي عن رضاه العظيم عني، وذلك بأن تناول من منطقته خنجرا قصيرا كان مرصعا بمائتين من الاحجار الكريمة، من ياقوت ولولي وانعم بذلك علي، ومن ثم توجه بي الى مقري .

وفي اليوم التالي وقد أدرك أنه يوم الاحد، وهو يوم سبت، تركني استريح، ولكن في يوم الاثنين بعد الظهر، بعث يطلبني، فأجريت معه حديثا أيضا واستمعنا الى الموسيقى.

وكذلك يوم الثلاثاء على الساعة الثالثة، بعث في طلبي الى حديقته، فوجدته مستلقيا على سرير من حرير، مشتكيا من الم برجله، ومع هذا فانه بعد محادثة طويلة، تمشى معي الى حديقة أخرى، حيث له منزل جميل للضيافة وبه ماء غزير، يجرى به زورق جديد فركب في الزورق واستصحبني معه، وامضى عليه مدة ساعتين أو ثلاث، مظهرا أعظم خبرة له بالملاحة، من حيث (كما قال) مرن نفسه ثمان عشرة سنة في شبابه.

وبعد العشاء اراني جياده وبعض المتاع الذي كان بداره، ومنذ تلك الليلة لم اره، لانه انزوى من اجل الم رجله، ولكنه كان يتعهدني يوميا.

وفي اليوم الثالث من يونيه، على الساعة السادسة ليلا، كانت لي أيضا مقابلة مع الملك، واستمررت معه حتى منتصف الليل، متناولين مباحثة حول مأمورية الملكة، ومعاملة تجارها في حركة تجارتهم بهذه البلاد، قائلا انه سيفعل اكثر مما ترغب فيه صاحبة الجلالة الملكة ومملكتها، مانحا أن

يكون لكل السفن مع رعاياها الانجليز حسن السلامة والامان داخل موانيه وفى مملكته وكذلك بالنسبة الى السلع وما يحتاجون اليه من زاد وماء يكون ذلك فى وقت السلم كما يكون فى الوقت التى تكون الحرب قائمة بين انجلترا وبين اى عدو لها. فلهذه السفن أن تجلب السلع وأن تباشر عملية البيع والشراء كما تريد او تقلع بتجارتها، حسب مشيئة اصحابها.

وكذلك لجميع السفن الانجليزية، التى ستعبر شواطئه، ستمر على طول شواطئه المغربية، وخلال المضيق الى البحار، الشرقية، وكذلك الى الممالك التركية، وملك الجزائر، كأنها بلاده، وعليه فانه سيكتب إلى الاتراك والى ملك الجزائر، ويبعث رسائله بأن يعاملوا سفننا وتجارنا معاملة طيبة.

وكذلك منذ اليوم فصاعدا لا انجليزى يمكن ان يوخذ بأية وسيلة أسيرا، فيباع فى اى جهة من مملكته، بحيث أنى بينت أن صاحبة الجلالة الملكة، تتقبل هذه المنح، وتسر بأن تعقد معه معاهدة لتجارة تجارنا فى تلك السلع، وهو لم يطلب اكثر من ذلك ولا طلب ما يخل بشرفها ودينها أو ما يخل بأحلافها مع جيرانها الملوك المسيحيين .

وفى نفس الليلة قدمت الى الملك وعلى سبيل الاستدراج رغبت من جلالته ان يلاحظ ان بعض سفننا عليها ان تقلع عائدة، لهذا فانى وجدت قليلا من مدخر ملح البارود معدا فى ملك جون بمبتون، فأجاب بأنى يمكننى ان أحصل على بعض المدخر فى داره هناك، وكذلك فان اهل الجبال لهم كثير من ذلك على استعداد، فطلبت منه ان يرسل فى طلبه، فأجاب واعدا بأنه سيفعل

وفى اليوم الثامن عشر كنت معه ايضا، فاستمررنا نتحدث حتى الليل فأرانى بيته، وتسلينا بتغطيس سلوقيين له وتحريش كلابه الانجليزية على الثيران .

وفى هذه الاثناء حركته لان يبعث الى السوس، من يجلب الملح وتفضل بالفعل، فسار فى اليوم الرابع والعشرين القايد مامى (33) وبصحبة لينل ادجرتن Lionel Edgerton وروبلد جوى Rowland Guy الى السوس فحملوا معهم، لحاجاتنا ولشركته، رسائل الملك، الى أخيه مولاى احمد (المنصور فيما بعد) وللقايد شعبان، والوالى.

وفى اليوم الثالث والعشرين أرسلنى الملك من مراكش إلى روضه الذى يدعى سهريج المنارة مع حرسه، والقايد محمد (جوذر) وفى اليوم

33) القائد مامى كان احد المسيحيين الذين أسلموا، ثم انحاز الى المسلوخ فى معركة وادى المخازن

الرابع والعشرين ليلا، أتيت الى القصر لاشاهد الرقص المغربي، وبعض ألعاب علوجه، فوعدني بمقابلة في اليوم التالي، وكان يوم الثلاثاء، ولكنه أرجاها الى يوم الخميس وفي يوم الخميس ليلا، استدعيت من جانب الملك بعد طعام العشاء، وحينئذ أرسل القائد رضوان والقائد جورى (34) للتداول معي، ولكن بعد محادثة قصيرة، رغبت في المثول بحضرة الملك (لاودعه) راجلا، ولما احضرت اليه، اخترت شحنتين من شحنات جون بمبتون، مما كان قد عمله لتزويدي بملح البارود، كما اخترت شحنتين مما كان معدا لتجارنا الانجليز، وشحنة من السكر يعدها لى اليهود، وكذلك هيات قضية الدين السالف، ليكون منذ الآن في نظام جيد، وكذلك ذكرته بقضية ملح البارود وبعض المهمات الاخرى، مما أحاله على قائدين لانجازه، ولكن في يوم الجمعة وكان 20 لم يكن القائدان قد استطاعا ان ينفذا ذلك، وفي يوم السبت كان القائد رضوان قد سقط مريضا، ثم في يوم الاحد توسلنا لنحضر الى الملك، وبعد الظهر، كنت قد بعث بي لاتداول مع القائدين وآخرين، حول الصفقة، لكنى لم أقبل .

وفي يوم الثلاثاء بعثت برسالة الى الملك، من أجل سفري، وفيما بعد الظهر من نفس اليوم، دعيت أيضا للحضور بالقصر، وتداولت مع الملك حول جميع الاشياء، باستثناء ما منحه من ملح البارود.

وفي الليلة ايضا كان الملك يدعوني لادخل الى زورقه، وكانت السلاقي تقرص الكلب .

وفي يوم الخميس كنت قد أعد لى 300 قنطار من ملح البارود الغليظ لاحمله الى الخارج، وبعد الظهر كان الطبيب يزورني في مقري، ويخبرني بأن الملك قد استاء من جون بمبتون لعدة أسباب.

وفي يوم الاحد في الليلة الاخيرة، وكانت 7 يليه، ذهبت الى الملك لاستغفر له عن كل ما فعله جون بمبتون، فوعدني الملك بأنه سيتحدث معي يوم الاثنين .

وفي يوم الثلاثاء كتبت اليه ايضا، لاجل مقابلته لسفري، وحينئذ بعث فري لويس Fray Lewes (المترجم) الى اخبرني بأنه امر ان يكتب بذلك.

وفي يوم الاربعاء كتبت ايضا، فأرسل الي بان الاذن سيكون يوم الخميس علي ان آتي واسافر، وعليه فانى سأسافر يوم الجمعة، بلا شك وكان العشرين من يليه.

---

34) من الذين أسلموا من مسيحيي البرتغال

وبناء على ذلك فانى يوم الجمعة التالى حسب اذن الملك وتعيينه، ذهبت الى القصر حيث كان الالتماس والاستدعاء قد أجريا للتصديق على الاوامر التى قد تقدمت بها، فمنحت لى جميعها، وكذلك الحق المخول، الذى منح لتجارنا الانجليز فيما طلبوه، كان جميع ذلك ممنوحا بكل سخاء وقبول عظيم، من حيث ان اليهود القاطنين هناك كانوا لرجالنا مدينين فى بعض المبالغ، احاطت بهم وكانت مشيئة الامبراطور واوامره، انهم منذ الآن فصاعدا لن يعتذروا أو يتأخروا عن الاداء، وأن يفوا بذلك، وهكذا على طول الخط كنت قد حصلت فى اعظم تكريم وتبجيل على تاييد خاص، الشىء الذى لم يكن من المعتاد أن يرى يصنع للسفراء المسيحيين الآخرين.

وفيما يتصل ببعض القضايا الخاصة المتعلقة بين صاحبة الجلالة وبين الامبراطور، فقد كتبت له من هناك بما يرضى صاحبة الجلالة ويقع فيه الانجاز، ووفقا لهذا تلقيت ذلك التبجيل العظيم والتكريم من حضرة قصره، بما كان يرفع من جانبى لاول ما نزلت الى البر، ومعى رفقائى المذكورون، وعلى وصولنا الى انجلترا دون زمن طويل، تهيأت لزيارة قصر صاحبة الجلالة، فانهيت اليها سفارتى التى قمت بها لجلالتها على احسن ما يرام، مع مذكرة لما قمت به من خدمات انجزت (3) .

35) بهذا تنهى هذا الموضوع الذى لم يرد بعده الا رسالة للملكة اليزابث، تشكر عبد الملك على ما تفضل به وتعده بأنها ستكون عند رغائبه ملتزمة فى ذلك بعض الاحتياط والكتمان، حتى لا تثير عليها غضب العالم المسيحى خصوصا جيرانها كما تقول ...

جاك كيلي

السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا

كانت فرنسا ممثلة في المغرب بصفة دائمة ابتداء من سنة 1577 اذا استثنينا الفترة الواقعة بين 1718 ، 1767 وذلك من طرف القناصل او القائمين بالاعمال او الوزراء المفوضين (1). أما سلاطين المملكة الشريفة فلم يكن لهم ممثلون مقيمون لدى الحكومة الفرنسية. ولم يصبح لملك المغرب سفير مقيم بباريس الا ابتداء من سنة 1956 .

واستقر معظم مندوبي فرنسا في الرباط وسلا وفي طنجة منذ اواخر القرن التاسع عشر، وقد كانوا وحدهم الوسطاء المعتادين بين حكومتي القطرين. الا ان قناصل ملك فرنسا لم يكونوا خلال ما يزيد على قرن الا تجارا يباشرون تجارتهم في مرافىء المملكة المغربية. ثم ان بعضهم لم يكونوا يتوفرون على الكفايات الضرورية لتسوية القضايا الهامة. ولهذا طلب مولاي اسماعيل من الملك لويس الرابع عشر سنة 1684 ان يبعث اليه قنصلا «مزودا بالسلطات» مضيفا قوله «ويهمنا ان يكون شخصا قادرا على معالجة تلك القضايا» (2) وبعد بضعة اعوام اي في سنة 1691 كان اكثر صراحة اذ قال «ولم نر من المناسب ان نتحادث معه (اي مع القنصل الفرنسي) في تلك القضايا لانه رجل تاجر لا احد كبار سادة قصركم ولا أحد ضباطكم السامين. فليس من شأن التجار ان يحادثوا الملوك ولا ان يباشروا القضايا التي تعرض لارباب القوة والحول ... فاذا كانت جلالتكم تنوي حقا محادثتنا في القضايا محادثة صريحة عميقة فلتبعث الينا احد السادة الكبار بقصركم حتى تطمئن الى قوله وتعتمد عليه (3) . وكان من نتيجة ذلك ان عددا من السفراء والمبعوثين الخاصين قد انتقلوا الى قصر السلطان في عدة مناسبات (4) .

كما رأى سلاطين المغرب من الافيد في كثير من المناسبات ايفاد سفراء او مندوبين الى فرنسا لمدة قصيرة ومكلفين بتسوية قضايا خاصة او للاعراب فقط للحكومة الفرنسية عن مشاعر السلطان الودية نحوها وتأكيدها لها. وهذه السفارات والبعثات هي موضوع هذا البحث بالذات .

ويتعين تحرير سفر ضخم اذا ما اردنا وصف تلك السفارات والبعثات وصفا مفصلا، الا ان هذا التفصيل لم يكن غايتنا، وانما اردنا وضع قائمة بالسفراء وغيرهم من المنتدبين الذين قدموا الى فرنسا بطلب من ملوك المغرب .

ولقد اقتصرنا فيما يرجع الى كل واحد منهم على ذكر اسمه وشخصيته والغاية من مهمته والكيفية التي نهض بها والنتائج التي تلتها. غير اننا اعتبرنا من الانسب ان نضيف المصادر التي يمكن الرجوع اليها لمعرفة كل التفاصيل المتعلقة بتلك البعثات من جهة والدراسات الخاصة التي تعرضت لها او المؤلفات التي خصتها ببضع صفحات من جهة اخرى. وعلى كل حال فلم يكن في مستطاعنا وخاصة بالنسبة الى القرنين التاسع عشر والعشرين أن نذكر جميع الجرائد التي تحدثت عن المبعوثين المغاربة ولا ان نثبت اسماء الكتب والمنشورات التي تعرضت لهم، ذلك اننا لم نورد الا المصادر والابحاث التي اعتبرناها ذات قيمة كبرى .

فهل نحن يا ترى في حاجة الى اضافة القول بأننا لم نتطلع الى كتابة بحث جامع حول هذا الموضوع ؟ فرغما عن العناية التي بحثنا بها في محافظ وزارة الشؤون الخارجية فانه من الممكن ان تكون الوثائق المتعلقة ببعض البعثات قد أفلتت منا. ثم ان تلك المحافظ المسجلة لا تتناول الا الاحداث التي وقعت قبل سنة 1895. اما الوقائع التي جرت بعد هذا التاريخ فقد اضطررنا في امرها الى الاقتصار على المعلومات الموجودة في المجلات أو صحف العصر أو في بعض الدراسات والابحاث .

سفارة ادريسية الى قصر شارلمان سنة 801 (؟)

اذا اعتمدنا ما قاله بعض المؤلفين فان سلطان فاس الادريسي ربما بعث سنة 801 الى شارلمان سفارة اقامت بقصر امبراطور الغرب في نفس الوقت الذي وفد فيه مندوب الخليفة العباسي هارون الرشيد. ونذكر في تأييد هذا القول فقرة وردت في «التواريخ الملكية» وتتحدث عن رسول للامير ابراهيم. الا ان الذي كان يحكم في فاس على هذا العهد هو مولاي ادريس

الثانى تحت وصاية راشد. وفى هذه الاحوال يمكن الاعتقاد بأن الامر راجع الى امير افريقية ابراهيم من دولة الاغالبة التى كانت لشارلمان معها بعض العلاقات. غير انه يصعب فى هذه الحالة ان نجزم بأن مدينة «فوساطوم» التى ذكرها المؤلفون الذين سبق ذكرهم هى غير مدينة فاس.

الا ان المصادر المعروفة لدينا الآن لا تجعلنا قادرين على التأكيد بأنه قد أمكن ارسال سفير مغربى الى شارلمان فى مستهل القرن التاسع .

المصادر واسماء الكتب ـ «التواريخ الملكية» سنة 801 طبعة كورز، «التواريخ الملكية» هانوفر 1895 صفحة 116 ـ جيزيل شوفان. «نبذة حول علاقات فرنسا بالمغرب من بدايتها الى نهاية العصور الوسطى فى مجلة «هيسبيريس» سنة 1957 الصفحات 249 ـ 298. ويجد القارىء فى هذا البحث (الصفحات 263 ـ 264) موجزا واضحا دقيقا لهذه القضية مع ذكر الابحاث الرئيسية التى خصصت لها .

بعثة لويس كابريط سنة 1576

كان الفرنسى لويس كابريط رب سفينة وصاحب ميول الى المغامرة فتعرف بمدينة الجزائر سنة 1573 على الامير السعدى مولاى عبد الملك الذى كان يقيم بها آنذاك. وبعد ثلاث سنوات بويع الامير سلطانا على المغرب فسارع الى تكليف «كابريط» بحمل كتاب له الى الملك هنرى الثالث يحيطه علما بجلوسه على العرش. ووصل الفرنسى المذكور الى باريس فى اواخر شهر يونيه 1576 فقام بمهمته ثم ذهب الى اسبانيا بطلب من السلطان ايضا.

المصادر واسماء الكتب ـ رسالة هنرى الثالث الى مولاى عبد الملك فى شهر نوفمبر 1576 نشرها هنرى دى كاسترى بباريس سنة 1905 و 1911

بعثة «غيوم بيرارد» سنة 1577

كان «غيوم بيرارد» حلاقا جراحا واحد رعايا «دوق سافوا» فنجح سنة 1574 بمدينة القسطنطينية فى معالجة الامير السعدى مولاى عبد الملك من داء الطاعون. ولقد ظل الامير معترفا له بالجميل فلما بويع سلطانا على المغرب استقدمه وجعله طبيبا له. وفى سنة 1577 اوفده «الى الملك هنرى الثالث لابرام الحلف بينهما» كما كان يطلب منه فى الكتاب الذى كان يحمله

«بيرارد» أن يعتمد الحلاق الجراح قنصلا لدى حضرته. وقد صادق الملك هنرى الثالث على هذا الطلب. فبعد تخويل الجنسية الفرنسية تقبل «غيوم بيرارد» بتاريخ 10 يونيه 1577 رسالة اعتماده (قنصلا للامة الفرنسية» بالمغرب. وهكذا كان «بيرارد» اول المندوبين الذين مثلوا فرنسا فى المملكة الشريفة الى سنة 1912 من غير انقطاع تقريبا .

المصادر واسماء الكتب ـ رسائل اعتماد «غيوم بيرارد» قنصلا لفرنسا بالمغرب وهى بتاريخ 10 يونيه 1577. وقد نشرها هنرى دى كاسترى ـ الاسفار الشهيرة التى قام بها «فانسان لوبلان» من مرسيلية فيما بين سنته الثانية عشرة والستين الى جهات العالم الاربع...» وقد جمع الاسفار السيد «كولون» سنة 1648 بباريس .

سفارة لمولاى احمد المنصور الذهبى سنة 1583 (؟)

لم نعرف لهذه السفارة ذكرا الا فى رسالة كتبها «غيوم بيرارد» يوم 28 اغسطس 1583 حيث قال ان مولاى احمد المنصور كان يرغب فى ارسال سفير وحاشيته مع عدد من الخيول التى كان يريد تقديمها هدية الى ملك فرنسا على متن سفينتين من سفن «روان». الا ان قائدى السفينتين لم يريدا الانتظار حتى ينهى مندوب السلطان استعداداته. ثم انه لم يكن يروقهما تفريغ بضائعهما لاركاب الخيول.

ومن الراجح ان السلطان قد تخلى عن مشروعه نظرا لتلك المصاعب لاننا لم نعثر على ذكر لتلك السفارة فى جهة اخرى .

المصادر واسماء الكتب ـ رسالة «غيوم بيرارد» الى «فيلروا» بتاريخ 28 اغسطس 1583 نشرها هنرى دى كاسترى بباريس سنة 1909.

سفارة احمد الجزولى سنة 1612 ـ 1613

وقع حادث خطير بين فرنسا والمغرب سنة 1612. فقد طرد السلطان مولاى زيدان من مراكش على يد ابى المعالى فتوجه مع بعض انصاره المخلصين ونسائه الى آسفى يحمل انفس امتعته. وقد كان «جان فيليب كاسطيلان» قنصلا لفرنسا بآسفى وكانت له بها سفينة تسمى «نوطردام دو لا غارد» اكتراها السلطان بمبلغ 3.000 دوقية لينقل امتعته وخاصة مكتبته ذات القيمة البليغة الى اكادير. ولما وصلت السفينة الى مرفأ اكادير لم يرد صاحبها

تفريغها ما لم يتسلم المبلغ المتفق عليه سلفا. ولما تأخر الاداء وشرعت المواد الغذائية تشرف على النهاية توجهت السفينة الى مرسيلية حيث كان ينوى صاحبها تسليم امتعة السلطان الى «دوق جيز» عامل ولاية «بروفانص» الا ان السفينة لما كانت قبالة سلا اعتقلتها بعض السفن الاسبانية واعلنت محكمة قادس انها غنيمة خالصة .

وقد كان هذا الحادث المؤسف مما اغضب مولاى زيدان غضبا كبيرا. فبمجرد ما غادرت السفينة اكادير وقبل أن يسطو عليها الاسبانيون قرر السلطان ايفاد سفير الى ملك فرنسا لويس الثامن بعد ان كلفه بالحصول على استرجاع امتعته. وقد عين القائد احمد الجزولى لهذا الغرض. لهذا توجه احمد الجزولى مصحوبا بعدة اشخاص وخاصة ناصر الكارطة أحد الخصيان وعدد من الخدم الى هولندة ليتوجه منها الى باريس.

وفي نفس الوقت كتب السلطان الى «الولايات العامة للمقاطعات المتحدة» التى كان على علاقات طيبة معها وطلب منها تأييد مطلبه لدى لويس الثامن وعامل ولاية «بروفانص». وقد اجتهد مندوب هولندة بباريس للحصول على تاشيرة للسيد احمد الجزولى وصحبه فذهب مسعاه عبثا، لان قصر فرنسا لم يرد اقتبال مبعوث مولاى زيدان. وفى شهر اغسطس 1613 ركب السفير بامر من ملكه مركبا هولنديا عاد به الى مرفأ اكادير. وقد عاد السفير بعد اقامته بهولندة يحمل سلسلة ذهبية وقرطا اهدتهما الولايات العامة اليه وقيمتهما لا تتعدى ستمائة فلورين .

المصادر ـ رسالة مولاى زيدان الى «الولايات العامة» بتاريخ 27 يونيه 1612، قرار «الولايات العامة» بتاريخ 10 اغسطس 1612. رسالة «الولايات العامة» الى فرانسوا فان آرسين بتاريخ 10 اغسطس 1612. رسالة «الولايات المتحدة» الى لويس الثامن بتاريخ 10 غشت 1612. رسالة «الولايات المتحدة» الى فرانسوا فان آرسن بتاريخ 16 اغسطس و 19 نوفمبر 1612. رسالة مولاى زيدان الى «الولايات العامة» بتاريخ 31 ديسمبر 1612، قرار «الولايات العامة» بتاريخ 14 اغسطس 1613، رسالة مولاى زيدان الى «الولايات العامة» بتاريخ 31 اكتوبر 1615، رسالة فرانسوا فان آرسن الى «الولايات العامة» بتاريخ 4 سبتمبر 1612، رسالة مولاى زيدان الى س. بالاش بتاريخ 13 ديسمبر 1612 نشرها هنرى دى كاسترى بباريس .

سفارة سيدى فارس سنة 1619

كانت الغاية من هذه السفارة نفس الغاية المتوخاة من السفارة السالفة.

ففى شهر يناير 1619 وصل الفرنسى «كلود دى ماس» الى المغرب بغية الحصول من السلطان مولاى زيدان على تحرير الاسرى من مواطنيه. الا أن السلطان اراد قبل الدخول فى أية مفاوضة ان يحصل على ترضية مطلبه فى قضية سفينة «كاسطيلان».

وكانت نتيجة ذلك ان عاد «دى ماس» فى الحال الى فرنسا مصحوبا بسفير مغربى هو «سيدى فارس» المكلف «بأن يطلب تدخل صاحب الجلالة المسيحية لارجاع المكتبة التىانتزعها الاسبانيون من قبطان مرسيلى الذىانتزعها بدوره من ملك المغرب». كما كان مكلفا بأن يطلب ارسال «فرانسوا دو رازيلى الى مراكش وهو الضابط الشاب المعروف عند السلطان بعداوته للاسبانيين «للنظر فى ظروف الاتحاد وتمتينه».

ولم يكن نجاح سيدى فارس اكثر من نجاح احمد الجزولى. فهو لم يتمكن من الشخوص الى القصر بل حجز على الراجح فى المرسى الذى نزل فيه وظل طيلة اربعة شهور «سجينا بالدار... دون ان تكون له وسيلة للخروج البتة». ثم ان احتجاجاته لم تحل بين «كلود دى ماس» الذى عين مكان فرنسوا دو رازيلى وبين الذهاب للتفاوض مع مولاى زيدان

وقد توجه سفير السلطان ومبعوث ملك فرنسا معا الى المغرب قبل نهاية سنة 1619.

المصادر واسماء الكتب ـ تعليمات الى «لامول» سنة 1619، تاريخ ارسالية الآباء «كابيسان» الى المغرب (1623 ـ 1624) مذكرات رازيلى الى ريشيليو بتاريخ 26 نوفمبر 1626 ونهاية سنة 1626 نشرها هنرى دو كاسترى، تقرير جاكوب غول بتاريخ 24 يوليو سنة 1624 .

سفارة الحاج محمد تميم سنة 1681 ـ 1682

حل بالشواطىء المغربية سنتى 1680 و 1681 اسطول الملك المسيحى بقيادة «شاطو رونو» للقضاء على المراكب الجهادية المغربية. وقد بوشرت المفاوضات سنة 1681 فانتهت بسرعة. فقد امضى «لوفيبر دو لا بار» قائد احدى السفن الفرنسية والقائد عمر بن حدو اتفاق الهدنة يوم فاتح يوليو 1681

ثم معاهدة يوم الثالث عشر من نفس الشهر، ولقد كان السلطان مولاى اسمعيل قد اعرب فيما سبق عن نيته فى ايفاد سفير الى الملك لويس الرابع عشر. ولهذا نص احد فصول المعاهدة على ان هذا السفير سيكلف «بجعل ملك فرنسا العظيم يصادق عليها» .

وعين مولاى اسمعيل لتمثيله عامله السابق على سلا الحاج محمد تميم الذى ركب يوم 21 سبتمبر 1681 فى «تحدرت» سفينة القائد «دو لا بار» وكان يصحب السفير سبعة اشخاص او ثمانية منهم ولد اخيه والحاج عبد القادر قائد سلا والحاج على معنينو. وبعد سفرة شاقة توقفت السفينة خلالها بمرفا لشبونة ارست فى ميناء «بريست» فنزل منها سفير السلطان وصحبه يوم 17 اكتوبر .

ولما استدعى الحاج محمد تميم لابراز رسائل اعتماده قبل السماح له بمغادرة «بريست» امتنع مدعيا انه لا يستطيع أن يفعل ذلك «لغير صاحب الجلالة». غير انه انتهى مع ذلك الى اطلاع الضابط الملحق به وهو «ريونديس» على رسالتين كان يحملهما من مولاى اسمعيل الى لويس الرابع عشر. وقد تأخر سفر السفير بسبب ذلك النقاش الى يوم 4 دسمبر حيث مر هو وصحبه فى طريقهم الى باريس بمدن «فان» و «نانت» و «آنجرس» و «بلوا» ولم يصلوا الى العاصمة الا يوم 30 دسمبر 1681 .

وقدم الحاج محمد تميم اوراق اعتماده الى لويس الرابع عشر فى مشهد رسمى يوم 4 يناير 1682 فى «قاعة العرش» بقصر «سان جيرمان آن لى». وقد شكره الملك بكلمات ثم عين امينين للدولة هما الماركيز «كولبيرت دو كرواسى» و «الماركيز دو سونيولى» للتباحث حول معاهدة جديدة مع مبعوث السلطان. فلم يكن لويس الرابع عشر يريد التصديق على معاهدة 13 يوليو 1681 التى كانت تلزمه بارجاع مائتين وستة مغاربة اسرهم «جان بارث» او ضابط من ضباط اسطول «شاطو رونارد» أثناء المفاوضات خلال شهرى يونيه ويوليوز 1681 .

وقد اجتمع سفير مولاى اسماعيل ووزيرا لويس الرابع عشر عدة مرات بدار «كوربيرت دو كرواسى» حيث تم تقديم مشروع معاهدة ـ لم نجد له اثرا ـ الى السفير المغربى الذى أجاب عليه باقتراحات تمس ستة فصول من فصول المشروع المقدم اليه. ويظهر ان المفاوضات لم تصطدم بمصاعب خطيرة. فسرعان ما اتفق المفوضون الثلاثة ووقعوا معاهدة جديدة يوم 29 يناير 1682 فى «سان جيرمان آن لى». وقد كانت هذه المعاهدة تنص اولا

على اقرار السلم بين فرنسا والمغرب وتتضمن فصولا اخرى تتعلق بالملاحة وافتكاك أسرى الجانبين بمبلغ 300 ريال لكل اسير وتحدد وضعية قناصل الملك المسيحى العظيم فى المملكة الشريفة. وكانت المعاهدة تتكون من عشرين مادة أضيف اليها شكل الجواز و «الشهادات» التى أصبح من المتعين أن تتزود بها السفن التجارية الفرنسية والمراكب الجهادية المغربية ابتداء من ذلك التاريخ .

وقد كتب «شاطو رونو» الى «كولبيرت» يخبره بوصول مندوب مولاى اسمعيل قائلا «يستحسن جدا ان يعامل هذا السفير بكل رعاية لشخصه وبكل استعلاء فيما عدا ذلك». ولا يظهر ان الحاج محمد تميم قد تعرض لمعاملة الاستعلاء خلال المفاوضات. بل انه شخصيا كان موضوع المزيد من صنوف العناية .

فقد أنزلته الحكومة بصحبة حاشيته بفندق «السفراء» بشارع «طورنون» ووضعت تحت تصرفه اثناء اقامته بباريس عربة خاصة. كما نظمت له زيارة فرساى واللوفر و «تويللى» و «ليزانفاليد» والمرصد وكاتدرائية نوطر دام وغيرها... واقيمت عدة استقبالات ـ حفلات راقصة ومآدب عشاء ـ على شرفه وعلى الخصوص الحفلتين اللتين اقامهما «دوق أوليانس» وضباط الملك. كما أقيم له عرض عسكرى وحضر ثمانى تمثيليات فى المسرح. وقد أعجب بالاستقبال حتى قال : «انه قد عاد من فرنسا وقد قوى اعتقاده بالجنة» التى يعتقد المسلمون انهم يذهبون اليها بعد موتهم.

واقتبل لويس الرابع عشر الحاج محمد تميم وحاشيته يوم 10 فبراير 1682 فى زيارة الوداع فقدم اليهم هدايا نفيسة من اوانى زجاجية وبنادق ومسدسات وساعات ومنسوجات قيمة وغير ذلك. ويوم 20 فبراير غادر باريس فقضى ثلاثة ايام فى «ليون» وبضع ساعات بمدينة «أفينيون» ليصل يوم 16 مارس الى مرسيلية حيث ذهب لزيارة مستودع السلاح والميناء. الا انه لم يزر الا سفينة واحدة. فلقد كان «كولبيرت» قد أصدر أوامر صارمة حتى لا يتمكن رسول السلطان من الاتصال بالمغاربة المعتقلين فى القوارب الملكية. وفى يوم 22 مارس توجه السفير الى طولون حيث ركب سفينة ملكية هى «لوريبه» التى أنزلته بتطوان يوم 12 ابريل 1682.

وفى شهر ماى التالى كتب الحاج محمد تميم الى لويس الرابع عشر و «سينيولى» يخبرهما بانه قد اطلع مولاى اسمعيل على مهمته لديهما وبأن السلطان قد سر سرورا كبيرا .

المصادر واسماء الكتب - وثائق مختلفة لسنة 1680 و 1681 (رسائل وملخصات ومذكرات وتعليمات وهدنة فاتح يوليوز 1681 ومعاهدة 13 يوليوز 1681 وخاصة «المذكرات حول السفارة المغربية وقائمة سفارة الحاج محمد تميم) نشرها هنرى دو كاسترى - شارل بانز «الاسرى الفرنسيون بالمغرب خلال القرن السابع عشر 1577 - 1699» «اعجاب سفير لمولاى اسمعيل بما شاهد فى باريس»

بعثة الحاج محمد تميم سنة 1685

لم يتم التصديق على معاهدة 29 يناير 1682. فالبارون «سانت أمانس» سفير فرنسا الذى قدم الى المغرب اواخر سنة 1682 لم يتمكن من الاتفاق مع السلطان على كيفية تطبيقها. واستؤنفت عملية السطو بين الجانبين فادت عدة مرات الى تقديم الاحتجاجات والشكايات.

وفى سنة 1685 ارسل الحاج محمد تميم من جديد الى فرنسا فوصل مرسيلية يوم 20 مارس. الا انه لم يكن يحمل الا كتابا من قائد تطوان علي ابن عبد الله الى لويس الرابع عشر ولم يكن مفوضا من قبل السلطان. وفى هذه الاحوال أصدر ملك فرنسا أمره بمنع «سفير المغرب المزعوم» من القدوم الى باريس فقضى شهرين كاملين فى المدينة التى نزل بها.

ومن الصعب ان نذكر بدقة طبيعة المهمة التى جاء الحاج محمد تميم مكلفا بها. فقد افترض بعضهم أنه ربما جاء ليقترح تبادل الاسرى، الا ان هذ القول لم يكن الا افتراضا. ثم ان رسالة قائد تطوان الى لويس الرابع عشر كانت تنص فقط على ان الحاج محمد تميم مرسل لتأييد مطلب الرئيس «التاج» وللتأكيد بأن القضية الاخرى المعلقة - وهى ارجاع السفينة التى كان يملكها الفرنسى «كروازى» - هى فى طريق التسوية.

ولقد حدد رسول السلطان فى المقابلات التى اجراها مع ممون البحرية «فوفرى» ان الخلاف الواقع مع الرئيس «التاج» هو المقصود الوحيد من مهمته وانه ليست لديه تعليمات حول افتكاك الاسرى. ثم انه امتنع عن التعهد كتابة بارجاع مركب «كروازى»، ولقد اشعره «فوفرى» من جهة اخرى بانه من الافيد تطبيق المادة الواردة فى معاهدة 1682 والتى تنص على وجوب افتكاك الاسرى بمبلغ ثلاثمائة ريال. ولقد اجاب السفير المغربى بأن تلك المعاهدة تحرم على كل من الدولتين المتعاقدتين ان تشترى اسرى الدولة الاخرى، وان الملك المسيحى العظيم قد تجاوز ذلك واشترى فى لشبونة عددا

من الاسرى السلاويين. الا ان ممون البحرية اجاب بان فى ذلك ميزة للسلطان الذى تصبح لديه امكانية افتكاك رعاياه المعتقلين بفرنسا بعد ان كان من المستحيل عليه ان يفتكهم من البرتغال .

وغادر الحاج محمد تميم مرسيلية يوم 20 ماى 1685 على متن سفينة تجارية فرنسية هى «دوق بوغونى» التى قدم فيها فانزلته بسلا يوم 19 يونيه التالى .

المصادر واسماء الكتب ـ رسالة على بن عبد الله الى لويس الرابع عشر بتاريخ 11 فبراير 1685، رسالة سانت امانس الى سينيولى بتاريخ 17 مارس 1685، مذكرات لويس الرابع عشر الى فوفرى بتاريخ 6 و 13 ابريل 1685، رسالة فوفرى الى «سينيولى» بتاريخ 19 ابريل 1685، رسالة سينيولى الى فوفرى بتاريخ 29 ابريل 1685، رسالة فوفرى الى سينيولى بتاريخ 10 ماى 1685، رسالة الاسرى المغاربة الى محمد تميم وهى بتاريخ سابق ليوم 20 ماى 1685، رسالة الاب «بلادنديني» الى سينيولى بتاريخ 20 ماى 1685، رسالة فوفرى الى سينيولى بتاريخ 22 ماى 1685، مذكرات لويس الرابع عشر الى فوفرى بتاريخ 24 ماى و 9 يونيه 1685، الحالة الحقيقية للبحرية يوم 20 ماى و 27 يونيه 1685.

سفارة عبد الله بن عائشة سنة 1698 ـ 99

اذا كان ملك فرنسا قد اوفد رسولين الى مكناس هما «فارس ديزوبييه» سنة 1686 و «بيدو دو سانت اولون» سنة 1689 فانه لم يتم اى اتفاق حول التصديق على معاهدة 29 يناير 1682 والشروع فى تطبيقها. وقد نتج عن ذلك ان استفحل السباق الى السطو اكثر مما كان عليه من قبل .

ففى سنة 1698 جاء اسطول فرنسى الى المغرب بقيادة الفارس «غوتلوغان» ثم وضع تحت قيادة «كونت ديستريه»، وذلك بقصد طرد قراصنة سلا واختطافهم» ولقد بوشرت المفاوضات فى شهر يوليوز فانتهت الى التوقيع على هدنة تستمر ثمانية شهور على ان يذهب خلالها رسول للسلطان مولاى اسمعيل الى فرنسا للتفاوض حول شروط الصلح .

ولقد وقع الاختيار للقيام بهذه المهمة على عبد الله بن عائشة الذى كان اشهر القواد الجهاديين السلاويين. ففى 17 اكتوبر 1689 ركب فى سلا

سفينة للملك المسيحى العظيم وتسمى «فابورى» (المختار) فوصل يوم 11 نوفمبر التالى الى «بريست» وقد كان الرسول مصحوبا بحاشية عديدة تضم على الخصوص امين سره محمد سوسان ومحمد الطاهرى «قائد السفينة» وتاجرا فرنسيا هو «فابر» الذى كان يقوم بدور المترجم وخمسة عشر من الخدم .

وكان لويس الرابع عشر راغبا فى ان يحمل السفير فى مدينة «بريست» نفسها على توقيع معاهدة شبيهة تقريبا بمعاهدة 29 يناير 1682 الا ان عبد الله بن عائشة امتنع امتناعا كليا ولم يرد ابرام اى شىء ما لم يقدم شخصيا اوراق اعتماده الى الملك. وغادر مندوب السلطان وصحبه مدينة «بريست» نتيجة لذلك يوم 12 يناير 1699 متوجهين الى باريس يصحبهم الترجمان «بوتى دو لا كروا» القنصل بسلا و «جان بابتيست ايستيل» و «بيدو دو سانت اولون» الذى ذهب سفيرا الى مكناس سنة 1693 وقد مر الوفد بمدن «رين» و «نانت» و «آنجرس» و «طور» حيث اقتبل اقتبالا طيبا فى كل مكان ووصل باريس يوم 10 فبراير. وقد انزلت الحكومة عبد الله بن عائشة بفندق «السفراء» كما فعلت سنة 1693 مع الحاج محمد تميم. وقد قام على حراسته بالليل والنهار اربعة جنود من فوج «السويسريين المائة». .

ويوم 16 فبراير اقتبل مبعوث مولاى اسمعيل بقصر فرساى فى مشهد رسمى. وفى نفس اليوم عين الملك للتفاوض معه «كولبيرت دو كروازى» كاتب الدولة فى الشؤون الخارجية و «كونت موربا» ابن «بونشارطران» كاتب الدولة فى البحرية. وقد ابتدأت المفاوضات يوم 26 فبراير بفرساى واستمرت الى رابع ماى .

وعرض على السفير المغربى مشروع معاهدة شبيه بالمشروع المحرر سنة 1682 فانتقد كل فصوله على التقريب. فقد كان يرد باقتراحات مضادة على جميع الملاحظات التى أبديت له. وقدم اليه مشروع ثان يوم 3 ابريل فرفضه ايضا. وظهر ان المفاوضات قد انقطعت وان كان الملك قد اقتبل عبد الله بن عائشة فى مقابلة الوداع يوم 26 ابريل .

الا ان «بيدو دو سانت اولون» تدخل وظن انه قد حصل على موافقة عبد الله بن عائشة بينما الحقيقة هى انه اشتط فى الظن اذ تشبث السفير المغربى بموقفه. وقام مقدم السفراء «بارون دو بروتوى» بمحاولة اخيرة يوم 3 ماى فلم تصادف النجاح ايضا وان كان مبعوث السلطان قد تنازل عند بعض

المطالب الهامة. الا ان وزراء الملك رفضوا التعديلات التى طلبها مندوب السلطان فتمت القطيعة النهائية هذه المرة. وفى 5 ماى غادر عبد الله بن عائشة باريس وتوجه الى «بريست» التى غادرها يوم 25 ماى.

واذا كان السفير قد فشل فى مهمته فقد حصل على نجاح شخصى عظيم. فقد اثار هو ورفقاؤه حب الاستطلاع فى الجمهور الى درجة ان الحكومة اضطرت الى اتخاذ تدابير بوليسية قوية لحمايته، واقيمت على شرفه عدة حفلات للاستقبال ودارت الالسن فى القاعات بالاشارة بشهامته وكرمه وروحه و «رقته فى التودد». واخذ الناس يعيدون كلامه سواء فى القصر او فى المدينة. وتلقفتها الجرائد فكررتها مزهوة. ثم انه شهد زواج القنصل «ايسطيل» وذهب لزيارة «جاك الثانى» ملك انجلترا السابق المقيم فى «سان جيرمان آن لى».

وعاد عبد الله بن عائشة الى المغرب على متن البارجة الحربية الفرنسية «لا دوفين» فنزل بمدينة سلا يوم 10 يونيه 1699.

وقد كانت لسفارته نتيجة مشهورة لم تكن مترقبة وهى انه وجه يوم 14 نوفمبر 1699 الى «بورشارتران» طلبا باسم مولاى اسمعيل الذى رغب فى التزوج بالاميرة «كونطى» بنت لويس الرابع عشر، الا ان قصر فرساى لم ينظر ابدا فى طلب الخطبة بعين الاعتبار ابدا (1) .

كما كانت لبعثة عبد الله بن عائشة نتيجة اخرى هى تاسيس شركة تجارية اسمها «شركة سلا» التى كانت تستهدف القيام بالتجارة الكبرى مع المغرب وبلاد البربر. وقد جرى تاسيس هذه الشركة بتحرير محضر مؤرخ بيوم 27 يناير 1700 على يد «جان جوردان» احد تجار باريس والذى كانت له مصالح كبرى فى صناعة الزجاج بحى «سان انطوان». وكان السفير المغربى اثناء اقامته بفرنسا قد وثق علاقاته بجان جوردان الذى استغلها للحصول على امتيازات تجارية هامة لصالح شركته. ورغم ذلك كله فان «شركة سلا» لم تنجح وان كانت بدايتها طيبة، اذ لم تصل سنة 1703 حتى افلست .

المصادر واسماء الكتب ــ وثائق مختلفة (رسائل ومذكرات ومشاريع الهدنة ومشاريع المعاهدات ورسائل البراءة لصالح عبد الله بن عائشة

(1) هكذا تتردد هذه الحكاية فى عدة مصادر اجنبية، على حين ان المصادر العربية او المغربية لم تشر الى شيء من ذلك. فان صحت هذه الحكاية ــ ونحن نستبعدها ــ فانها تكون الاولى من نوعها فى تاريخ المغرب منذ فجره الاسلامى حتى الان (محمد بن تاويت)

خاصة مذكرات بروتوى وقائمة سفارة عبد الله بن عائشة) نشرها «بيير دو سينيفال» مصادر غير مطبوعة. — أوجين بلانطيط «مولاى اسمعيل امبراطور المغرب والاميرة كونطى» باريس 1893، كوسى بريساك «سفارة عبد الله بن عائشة (11 نوفمبر 1668 — 25 ماى 1699). — المصادر الغير مطبوعة تظهر مختلف مراحل المفاوضات بحيث تغنى عن قراءة الابحاث المنشورة من قبل — جان مارى سالمى «جان جوردان وشركة سلا» .

سفارة الحاج التهامي مدوت سنة 1759

كانت العلاقات الرسمية مقطوعة بين فرنسا والمملكة الشريفة منذ ان استدعى الوصى «فيليب أورليانس» سنة 1718 قنصل الملك المسيحى العظيم الذى كان يزاول مهامه بالمغرب.

الا ان شخصا يسمى الحاج التهامى مدوت قدم سنة 1759 واقام بضعة شهور بمرسيلية ووجه عدة رسائل الى «بربيه» كاتب الدولة فى البحرية يطلب فيها ارجاع امتعة يهودي مغربى. وقد كتب فى احدى رسائله يقول : «واذا انا حصلت على المراد فستكون مناسبة لى لاجعل سيدى السلطان ينهى القضايا التى قد تحدث للفرنسيين فى ولاياته».

وكان لا يزال بمرسيلية يوم 5 سبتمبر 1759، ولا شك فى انه اقام بها مدة بعد ذلك. الا أننا لا نعلم شيئا آخر عن بعثته التى لم نجد فى شأنها الا الرسالة المذكورة آنفا .

غير اننا رأينا من الواجب الاشارة الى «سفارة» الحاج التهامى مدوت لان امضاءه فى تلك الرسالة ممهور بعبارة «سفير سلطان المغرب». ويمكن الاعتقاد مع ذلك بان مهمته لن تكن تستهدف غاية هامة. فهو لم «يخبر» قصر فرساى بوصوله الى فرنسا لانه لم يكن ينوى الاقامة مدة طويلة هناك على ما قال. ومن الراجح جدا فى هذه الظروف ان لا يكون متوفرا بصفة رسمية على لقب سفير .

المصادر واسماء الكتب — الارشيف الوطنى للبحرية ب 403.7، رسالة الحاج التهامى مدوت بتاريخ 5 سبتمبر 1759 — بول ماسون «تاريخ التجارة والمراكز التجارية الفرنسية فى افريقيا البربرية (1560 — 1793) المنشور بباريس سنة 1903 .

بعثة جوزيف ايتيين ريي سنة 1762 ـ 1764

لم تكن العلاقات الرسمية قد استؤنفت بعد بين فرنسا والمغرب عند ما تدخل «جوزيف ايتيين ريي» احد التجار البروفانسماليين. فقد كان هذا التاجر يتمتع بثقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله (6) اذ اقام مدة عشرين سنة اما في سلا او في آسفي. وفي سنة 1756 اقترح على وزراء الملك لويس الخامس عشر ان يتدخل لدى السلطان لابرام معاهدة الصلح، الا ان عرضه هذا لم يقبل .

وبعد ست سنوات كتب «ريي» من مدينة أفينيون بتاريخ 25 اغسطس 1762 رسالة الى «دوق براسلان» احد امناء الدولة لدى الملك قال فيها «ان سلطان المغرب قد شرفني برسائل مكتوبة باللغة العربية يعينني فيها سفيرا مفوضا لدى قصر فرنسا لاطلب تحرير معاهدة الصلح والتجارة ولابرمها». الا أن مرضا خطيرا الم به والزمه المكوث بمرسيلية الى آخر شهر سبتمبر 1763. وفي هذه الاثناء ارسل اليه السلطان اوراق اعتماد جديدة مؤرخة بيوم 24 ابريل 1763 .

الا ان «دوق براسلان» توجس خيفة من مواطنه. غير انه استدعاه مع ذلك للقدوم الى القصر لتقديم أوراقه، بعد ما امره بعدم الاعلان عن شخصه وقد اجتهد التاجر لاقناعه بأن سيدي محمد بن عبد الله «يريد الصلح حقا وانه لا يبحث فقط عن الحصول على هدايا عظيمة وانه يريد التفاوض مع الاتراك حول اساس الامتيازات». غير أن «براسلان» لم يقتنع بل كلف «ريي» على غير رضى منه بأن يحمل الى المغرب مشروع معاهدة يتضمن شروطا لا يمكن قبولها. لان وزير لويس الخامس عشر لم يكن يريد افتكاك الاسرى الا بثمن بخس جدا. ثم انه طلب من السلطان ان يتنازل لفرنسا عن ميناء حصين كميناء «القل» الذي كانت فرنسا تملكه في الجزائر. وقد رفض السلطان تلك الشروط «بامتعاض» عند ما حملها اليه بالمغرب صهر التاجر المذكور .

وفي هذه الظروف ودع امين الدولة مندوب السلطان في شهر يونيه 1764، ثم ان قصر فرساي قد حكم عليه حكما قاسيا اذ اعتبره «مغامرا غامضا لا موارد له ولا يمكن الاتكال عليه بحال». بل ان القصر قد ذهب الى اعتباره مسؤولا عن فشل المفاوضات واتهمه بأنه «خدع سلطان المغرب باظهاره على شروط مكذوبة. الا ان ما سبق كان اجحافا على ما يظهر. فالحقيقة هي ان «ريي» لم يعد ان كان وسيطا غير محظوظ.

الا ان بعثته قد أفهمت وزراء لويس الخامس عشر بأنه من الافيد أن لا يسرفوا في التشدد. ففي نهاية سنة 1764 استأنف قصر فرنسا المفاوضات بواسطة «جان جاك سالفا» . احد تجار مدينة آسفي، وقد ادت هذه المفاوضات الى ابرام معاهدة الصلح بمدينة مراكش يوم 28 ماى سنة 1767.

المصادر واسماء الكتب ـ الارشيف الوطني للبحرية ب 418.7 «وزارة الشؤون الخارجية» المراسلات القنصلية مع المغرب ب 1 831 وخاصة «مذكرات اخبارية» بتاريخ 25 اغسطس 1762. رسائل «ريبي» او اشخاص مختلفين بتاريخ 12 يناير و 23 سبتمبر 1763 و 21 مارس و 15 يونيه و 20 اكتوبر 1764 ـ بول ماسون «تاريخ التجارة والمراكز التجارية الفرنسية في المملكة البربرية» (1560 ـ 1793) (الجزائر وتونس وطرابلس والمغرب) المنشور بباريس سنة 1903. ويرد في الصفحات 613 ـ 622 وصف مفصل لبعثة جوزيف ايتيين ريبي مع الاشارة الى المصادر ـ شارل بانز «شخصيات وأسر فرنسية بافريقية الشمالية والمغرب (1533 ـ 1814) المنشور بباريس سنة 1948 .

بعثة علي بيريس سنة 1772 ـ 1773

كتب السلطان سيدى محمد بن عبد الله سنة 1772 الى ملك فرنسا لويس الخامس عشر فكان ذلك مناسبة لبعثة جديدة .

لقد كان الرئيس «علي بيريس» من أهل تطوان و «مسلما نزيها وديعا» فكلف بحمل رسالة السلطان الى قصر فرساى. غير انه سبق الاتفاق بين احمد الغزال امين الولاية عند السلطان و «لويس دو شونييه» قنصل الملك المسيحي العظيم بالمغرب على «ان الرئيس موفد باعتباره رسولا بريديا لا بوصفه سفيرا». ولهذا لم يستقبل بمراسيم الاجلال التي استقبل بها مندوبو مولاى اسمعيل في القرن السالف .

وغادر الرسول المغربي سلا يوم 10 سبتمبر 1772 راكبا سفينة مغربية فوصل «بريست» يوم 13 اكتوبر التالي، غير انه كان مريضا اذ اصابته حمى شديدة فاضطر الى قضاء عدة اسابيع بتلك المدينة ولم يغادرها الى باريس الا في اواخر شهر نوفمبر. ولم يكن له الا متاع يسير ولا يصحبه الا شخصان. اما صاحباه فقد ظلا بمرفأ بريست حيث جرى اصلاح السفينة اصلاحا سدد ملك فرنسا تكاليفه.

وبعد ان استراح بضعة ايام استقبل يوم 13 دسمبر 1772 فى الجناح الاكبر من قصر فرساى من طرف الملك وقدم اليه كتاب سيدى محمد بن عبد الله المؤرخ بفاتح اغسطس 1772. وقد اكد السلطان «لملك الفرنصيص استمرار صداقته» وهناه على حسن التفاهم الموجود بينه وبين الباب العالى وقد اقتبل لويس الخامس عشر على بيريس «بكل لطف مؤكدا انه يتقبل بمزيد الارتياح براهين الود التى اعرب عنها سلطان المغرب».

وقد امضى عدة ايام بفرساى «ليشاهد القصر وجمال البناية» قبل ان يعود الى باريس. غير انه مرض مرة اخرى ولم يغادر العاصمة متوجها الى بريست الا فى شهر فبراير سنة 1773.

وعاد على بيريس الى المغرب فى سفينته فنزل بالعرائش يوم خامس ابريل. ولقد حمد عند وصوله آيات اللطف التى قوبل بها فى فرنسا كما شكر الالتفاتات العديدة التى خص بها هو وصاحباه و «بحارته».

المصادر واسماء الكتب ـ الارشيف الوطنى للشؤون الخارجية «المراسلات القنصلية مع المغرب» ب 1 834 وخاصة رسائل «شونييه واحمد الغزال المؤرخة بخامس و 17 اغسطس و 12 و 30 سبتمبر 1772 و 23 فبراير و 4 و 25 مارس و 8 و 24 أبريل 1773 ـ حالة سفينة ملك المغرب... بتاريخ 31 يناير 1773 ـ مذكرة بالمصارف الناتجة عن اقامة على بيريس بفرنسا... فى شهر ابريل 1773 الارشيف الوطنى للبحرية ب 1 79 ـ حالة سفينة ملك المغرب بتاريخ 18 يناير 1773 ـ قرار فى شان سفينة ملك المغرب بتاريخ 18 يناير 1773 ـ ارشيف الشؤون الخارجية «المراسلة السياسية مع المغرب «المجلد الاول رسالة سيدى محمد بن عبد الله بتاريخ فاتح أغسطس 1772 ـ مذكرات ووثائق عن المغرب ـ قنصلية لويس دو شانييه فى المغرب لصاحب البحث.

بعثة عبد الله سكالانطى فى 1774 ـ 1775

فى شهر يوليوز 1774 حمل «بارتولومى بوطونييه» ضابط الاختام بقنصلية فرنسا بالمغرب كتابا من الملك لويس السادس عشر الى السلطان سيدى محمد بن عبد الله يخبره فيه بارتقائه العرش. ولم يرد السلطان ان يكون اقل من الملك المسيحى العظيم فقرر ايفاد رسول خاص الى قصر فرساى حاملا جوابه على ذلك الكتاب.

وقد عين للقيام بهـذه المهمة خليفة عامل سلا عبد الله سكالانطى (7) الذى غادر مصب ابى رقراق يـوم 12 سبتمبر 1774 مصحوبا ـ تلبية لمطلب السلطان ـ بضابط الاختام السالف الذكر. وقد توقف الرجلان اولا بتطوان ثم بجبل طارق ولم يصلا مرسيلية الا يوم سادس نوفمبـر فاقاما بها بعض الوقت قبل ان يتابعا سفرهما الى باريس .

وفـى يوم 23 يناير 1775 جرى بفرساى تقديم عبد الله سكالانطى الى الملك على يد «كونـت سـارطين» كاتب الدولة فى البحرية فقدم اليه كتاب سيدى محمد بن عبد الله فى تعزيتـه فى وفاة لويس الخامس عشر وتهنئته بمناسبة ارتقائه العرش .

وقد امضى رسول السلطـان بباريس اكثر من ثمانية اسابيع اذ لم يغادرها متجها الى «بريسـت» الا فـى اواخر شهر مارس فوصلها يوم ثانى ابريل حيث التحق به بعد اربعة ايـام «شونييه» الـذى كان عائدا الى مقر عمله بالرباط. ولقد غادرا «بريست» يوم 17 ابريـل 1775 على متن البارجة الملكية «ليغريت» التى أرست بميناء سلا يوم 22 من نفس الشهر.

وان خاصية بعثة عبد الله سكالانطى لا تسمح باعتبـاره سفيرا. فقد قام بدور «الرسول البريدى» فقط كما فعـل من قبله على بيريس فيما بين سنة 1772 وسنة 1773 .

المصـادر واسمـاء الكتـب ـ الارشيف الوطنى للشؤون الخارجية «المراسلة القنصلية مع المغرب ب 1 835 وخاصة رسائل «بوطوتييه» بتاريـخ 20 يوليـوز و 14 اغسطس وفاتـح ورابع سبتمبر وسابع نوفمبر وخـامس و 24 دسمبـر 1774 ـ ب 1 836 وخاصة رسائل «شينييه» المؤرخـة بسابع و 11 ابريل و 4 ماى 1775 ـ مذكرات ووثائق حول المغرب، المجلد الاول ـ المراسلة السياسية حول المغرب. ـ رسالـة سيـدى محمـد بـن عبـد الله بتـاريخ 23 يناير 1775 والارشيف التاريخى للغرفـة التجارية بمرسيليا ورسائل مختلفة وخاصة رسالة 21 نوفمبر 1774 .

سفـارة الـطـاهـر فنيـش سنتـى 1777 ـ 1778

حدث خلال الليلة المتراوحة بين 26 و 27 دسمبر 1775 ان غرقت الباخرة التجارية «لا لويز» بالقـرب من رأس «بوجدور» فاستطاع قبطانها وعشرون

من بحارتها الوصول الى الشاطئ»، الا ان السكان اعتقلوهم فباعوهم كالعبيد مرتين او ثلاث مرات. وفي شهر ابريل 1776 علم مسيو «شونييه» القائم بأعمال فرنسا بنبأ غرق الباخرة ووجود الناجين من بحارتها بالقرب من واد نون في حالة سيئة للغاية. وفي الحال توجه الى السلطان سيدي محمد بن عبد الله طالبا منه ان يتدخل لصالح مواطنيه. ولقد ارسل السلطان في الحال رجال ثقته الى تلك الجهات حيث تسلموا الناجين العشرين ـ وكان احدهم ميتا ـ مقابل مبلغ من المال لان سلطة المخزن على تلك الاماكن لم تكن الا اسمية. غير ان سيدي محمد بن عبد الله امتنع عن استلام القدر المدفوع لانه كان يريد ان يقوم ملك فرنسا بتسليم الاسرى المسلمين الذين اعتقلوا فوق سفن مالطة. ولقد طالت المفاوضات بين مندوبي السلطان والقائم بأعمال فرنسا دون ان تنتهي الى نتيجة .

ولهذا السبب قرر السلطان ارسال سفير الى قصر فرساي مكلفا بتسليم الناجين من بحارة «لا لويز» الى الملك.

ولقد اختير القائد الطاهر فنيش للنهوض بهذه المهمة فركب يوم 11 اكتوبر 1777 بطنجة مركبا متوجها الى روان اسمه «الخريف». وقد حمل معه البحارة الفرنسيين وستة فرسان بقصد تقديمهم هدية الى ملك فرنسا. ووصلت الباخرة الى مرسيلية يوم فاتح نوفمبر بعد ان توقفت بجبل طارق وسارع القائد الى اخبار «كونت سارطين» كاتب الدولة في البحرية بحقيقة مهمته. وتباحث ديوان الملك في الامر فقرر تفاديا لكثرة المصاريف اعتبار المغربي «رسولا» وان كان قد اعترف له «شخصيا بصفة السفير»

وحوالي اليوم العاشر من شهر يناير 1778 وصل السيد الطاهر فنيش الى باريس مصحوبا بحاشيته وبالترجمان «روفان» فنزل بفندق «طور» وذهب في اليوم الرابع عشر من يناير لتحية كاتب الدولة في البحرية وبعد ستة ايام سافر الى فرساي حيث قضى قرابة اسبوع. وفي اليوم الثاني والعشرين اقتبله الملك لويس السادس عشر فسلمه كتاب سيدي محمد بن عبد الله المؤرخ برابع سبتمبر من سنة 1777 ثم جرى تقديمه فيما بعد الى الملكة والى الامراء ثم زار الوزراء جميعا .

ولما عاد السفير الى باريس اجرى عددا من المذاكرات مع «سان ديديه» الموظف بمكتب القنصليات حيث كان كاتبه يساعده بينما كان الترجمان «روفان» يعين المفاوض الفرنسي .

وكان كتاب سيدى محمد بن عبد الله المؤرخ برابع سبتمبر 1777 يتضمن عتابا للقائم باعمال فرنسا «شونييه» لكونه لم يسلك «سبيل النزاهة» اثناء المفاوضات الرامية الى تحرير البحارة الناجين من غرق الباخرة «لا لويز». وورد فى رسالة السلطان من جهة اخرى اقتراحه على ملك فرنسا بتبادل الاسرى الاوربيين الذين يقعون بين يديه مقابل المسلمين الاسرى فى الاقطار المسيحية بصفة دائمة. ولا يظهر ان هذه المسالة كانت موضوعا لمناقشات طويلة، بل انه لم تكن لها نهاية على كل حال .

الا ان صيغة الكتاب السلطانى قد استلفت انتباه الوزراء الفرنسيين فقد وردت فى ذلك الكتاب تسمية سيدى محمد بن عبد الله للويس السادس عشر «برئيس الفرنسيين» لا غير مع ان ملوك فرنسا كانوا يريدون تشريفهم بلقب «امبراطور فرنسا». ولقد كان الخلاف حول هذا الموضوع منذ ما يزيد على القرن مثارا لبعض المناقشات التى اراد «كونت سارطين» ان يضع نهاية لها. فلقد اصدر امره الى «سان ديدييه» و «روفان» بالتفاوض مع الطاهر فنيش فى هذا الموضوع فحصلا على موافقته. ونتيجة لذلك امضى السفير وكاتب الدولة فى البحرية يوم 18 فبراير 1778 «تسوية بروتوكولية» تقضى من جهة بالتزام سيدى محمد بن عبد الله بتسمية الملك لويس السادس عشر «بعظيم النصارى وامبراطور فرنسا» على ان يتعهد هذا من جهته باعطاء السلطان «مراسيم ومزايا عظيم المسلمين وامبراطور الغرب والمغرب» .

ولقد كان مندوب السلطان محط العناية والتشريف اثناء اقامته بباريس وفرساى، فقد اقيمت على شرفه عدة حفلات للاستقبال وحضر داخل الشرفة الملكية جميع الحفلات المقامة بالمسارح فى العاصمة.

وغادر السفير باريس قبل نهاية شهر فبراير 1778 حيث ركب يوم 16 مارس الباخرة الملكية «لا غراسيوز» بميناء طولون ووصل طنجة بعد عشرة ايام .

ويقول «شونييه» ان سيدى محمد بن عبد الله ربما بعث الطاهر فنيش الى فرساى وله رغبة مكتومة هى رغبة الحظوة بهدايا نفيسة اعترافا له بما أسداه من حسن الصنيع للناجين من بحارة الباخرة الغارقة. واذا كانت هذه رغبته بالفعل فان امله لم يخيب، فقد بلغت قيمة الهدايا التى قدمها ملك فرنسا للسلطان وللسفير وحاشيته مائة وواحدا وسبعين الف جنيه اى ما يعادل ثمانية وستين مليونا من الفرنكات الفرنسية بقيمتها سنة 1959 .

مهمة علي بيريس سنة 1781

عاد السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1781 الى ارسال الرئيس علي بيريس من جديد الى فرنسا. فقد ارسله مكلفا بتسليم خطاب الى الملك لويس السادس عشر يطلب منه استدعاء «شونيبه القائم باعماله حيث يقول «ان قنصلكم لا يميل الى العمل لفائدة السلم ولا يتحلى بالاستقامة» ولذلك يرجو السلطان من ملك فرنسا ان يوفد اليه عونا جديدا «يكون نزيها ذكيا راضيا رشيدا وتكون له قوة الشباب وسذاجته الى جانب جميع المزايا المطلوبة وان لا يكون قد جاب اقطارا اخرى» .

ووصل علي بيريس الى مرسيلية يوم 14 او 15 ابريل 1781 على متن باخرة كان هو ربانها. وخف المارشال «دي كاستري» كاتب الدولة فى البحرية الذى اشعره «شونييه» بصفة شبيهة بالرسمية بوصوله فاستدعى اعضاء الغرفة التجارية المرسيلية «لاتخاذ جميع التدابير المناسبة لاستقباله وأفراده بالمعاملة الطيبة التى أقرتها العادة والاعراف ازاء الرجال الرسميين القادمين من شمال افريقيا». غير انه طلب منهم فى نفس الوقت ان ينبهوا الرئيس الى انه اذا كان يريد زيارة باريس او فرساى فان تكاليف السفر ستقع عليه لان السفر لن يكون مفيدا. فلم تكن مهمته «تدخل فى الاطار الذى يعترف به القصر «لان القائم بأعمال الملك لدى السلطان لم يشعر بذلك رسميا .

وخضع مندوب السلطان لذلك فسلم الكتاب الذى كان يحمله الى سلطات مرسيلية، وخلافا للاتفاق المبرم يوم 18 فبراير 1778 فقد امسك سيدى محمد بن عبد الله عن تلقيب لويس السادس عشر بلقب «امبراطور فرنسا» اذ اقتصر على تسميته «بعظيم الفرنسيين». وكان نتيجة لذلك ان قام كاتب الدولة فى البحرية باجابة السلطان وشرح الاسباب التى حالت بين مبعوثه وبين النهوض بالمهمة المسندة اليه.

الا ان «علي بيريس» قد حظى «بجميع مظاهر التشريف الشخصية» التى كان يمكنه ان يتطلع اليها، فقد استقبل استقبالا وديا وقدمت له سبحة من الصدف المتاز مع هدية اخرى تبلغ قيمتها 3.000 جنيه اى ما يعادل حوالى 1.200.000 من الفرنكات الفرنسية بقيمتها لسنة 1959. ثم ان الحكومة قد نهضت بتكاليف اقامته واقامة حاشيته بفرنسا كما سددت رسوم الاصلاح الذى اقتضته حاجة السفينة المغربية كما فعلت سنة 1772. ولقد غادر

الرئيس على بيريس مرسيلية على متن سفينته حوالى اليوم الخامس عشر من شهر يونيه سنة 1781.

وقد كانت لهمة على بيريس نتائج غير منتظرة. فعند ما علم سيدى محمد بن عبد الله بأن قصر فرساى لم يرد استقبال مبعوثه استدعى «شونييه» للقدوم الى مراكش حيث استقبله استقبالا عموميا يوم 21 سبتمبر 1781 وجه اليه خلاله اشد العتاب وعلق بعنقه رسالة «دى كاسترى» دون ان يفتحها ثم ارسله للاقامة بضعة ايام بالصويرة ثم الى طنجة التى عاد منها القائم بالاعمال نهائيا الى فرنسا فى شهر سبتمبر سنة 1782. وقد عقبت ذلك فترة من التوتر الخطير بين الحكومتين بحيث ان الملك لويس السادس عشر لم يكن ممثلا بالمغرب الى سنة 1786 الا بواسطة خليفة القنصل.

مهمة الحاج العربى مورينو سنة 1786

وعزم السلطان سيدى محمد بن عبد الله سنة 1785 على ارسال سفير الى «الخليفة العثمانى» ليقدم اليه بعض الهدايا القيمة فوقع اختياره على الحاج العربى مورينو رئيس احدى الاسر العريقة بمدينة سلا الذى صدر اليه الامر بالتوجه الى تركيا مصحوبا بسفينتين. كما كلف فى هذه المناسبة ايضا بالقيام بمهمة فى فرنسا .

وحدث يوم 17 يناير 1784 ان غرقت الباخرة الفرنسية «الاصدقاء الثلاثة» بالساحل المغربى على مقربة من واد نون فاعتقل سكان الناحية بحارتها التسعة الناجين وباعوهم كما يباع العبيد. فافتداهم سيدى محمد بن عبد الله كما فعل مع بحارة الباخرة «لا لويز» التى غرقت سنة 1775. وقد كلف السلطان سفيره بالذهاب بالبحارة الفرنسيين الى وطنهم وبحمل رسالة مؤرخة بسادس وعشرى نوفمبر 1785 الى الملك لويس السادس عشر. وقد أخبر السلطان ملك فرساى بعودة البحارة الناجين وطلب منه اصلاح سفينته وترميمها .

غير انه كان قد سبق الاتفاق بين المخزن ومسيو «مير» خليفة قنصل فرنسا بسلا على ان مبعوث السلطان مكلف بابلاغ رعايا الملك المسيحى الى طولون حيث يترك السفينتين بقصد الاصلاح ويسلم كتاب سيدى محمد بن عبد الله. فلم تكن نية السلطان ان يتوجه مبعوثه الى باريس، واذا كان قد أنعم عليه بلقب السفير «فان ذلك لم يكن الا تشريفا شخصيا له».

وقد غادر المغرب في نهاية شهر دسمبر 1785 ووصل في اليوم الخامس والعشرين من يناير سنة 1786 الى طولون بعد ان توقف بضعة ايام بمرسيلية واستقبله مدير الميناء «كونت البيــرت دريون» الذى انزله بالمدينة مع بحارته وقام بتسديد مــا كانــوا يحتاجــون اليه اثناء الايام التى قضوها هناك فى انتظار اصلاح السفينتيــن .

وقام مبعــوث لسلطان اولا بانزال البحارة الفرنسيين، غير انه امتنع كــل الامتناع من تسليم كتاب السلطان. فقد «صرح بأن الامر قد صدر اليه بان ينهــض هو نفســه بتسليم الظرف المسند اليه وبانه لا يوجد اى اعتبار يستطيع ان يحــول بينــه وبيــن مقابلــة الملــك ليســر اليه بما كلفه سيده بابلاغه اليــه» .

وكان المارشال «دى كاستــرى» قد اشعر سلطات طولون وهو كاتب الدولة فى البحرية بنوايا سيدى محمد بن عبد الله فكانــت حيرتها عظيمة. فقد قضت شهرين تناقش سفير السطان الذى أصر على التوجه الى باريس وكتب فى عدة مناسبات الى الملك والى المارشال كاتــب الدولة فى البحرية ولم يقبل السفير تسليــم الكتــاب الشريــف للكونت البيرت دريون الا فى اليوم السادس عشر من مارس 1786 اى بعــد مــرور بضعة أيام على التزامه بمغادرة فرنسا بمجرد اتمام ترميم السفينتين وقدرتهما على الابحار .

وكان مسيو «ميره» فى هــذه الاثناء على علم بالحالة فبعث الى فرنسا رسالة مخزنية تؤكد «ان السلطان لم يامر الحاج العربى مورينو ابدا بالتوجه الى باريس». وفعــلا غــادر السفير السلاوى وسفينتاه ميناء طولون يوم 27 ابريل 1786 متوجها الى القسطنطينية .

سفــارة الحــاج ادريس الراجــى سنــة 1807

وبمجــرد المناداة بالامبراطورية فى فــرنسا حدث سنة 1804 ان اقترح مندوب العلاقات التجارية لفرنسا بالمغرب على شقيق السلطان مولاى سليمان أن يبادر السلطان بمكاتبة نابليون‌غير ان‌الامير رد قائلا «ان‌السلطان امير المؤمنين لا يمكنه مطلقا ان يبدأ بمكاتبة سلطان النصارى. فلا تخاطبنى فى هذا الامر مرة أخرى». غير انه حدث سنــة 1807 وبعــد القيام بعدة مساع ان انتهى قنصل الامبراطور «دورتانو» الى اقناع السلطان بارسال سفير الى باريس .

ولقد وقع اختيار السلطان للقيام بهذه المهمة على الحاج ادريس الرامى الابن الاكبر لرئيس الشرفاء الادريسيين بفاس. وفى سادس يوليوز 1807 وصل السفير الى مرسيلية مصحوبا بعدد من مواطنيه وبتاجر فرنسى مقيم بالعرائش هو «جان لاربر كليرمون» الذى كان يتكلم العربية ونهض بدور الترجمة، غير ان السفير وصحبه قضوا سبعة عشر يوما بمرسيلية خضوعا للمراقبة الصحية. وفي شهر اغسطس وصل السفير وحاشيته الى باريس بعد أن توقف بضعة أيام بمدينة «ليون».

واقتبل نابليون السفير اقتبالا فخما بديوان الامبراطور بقصر سان كلود، يوم الاحد سادس سبتمبر. وقد قال السفير «ان سيدنا ومولانا سليمان قد ارسلنا الى جلالتكم لتهنئتها بارتقائها عرش السيادة»، ثم سلمه خطاب السلطان المؤرخ بيوم 23 ماى 1807. ووردت فى الكتاب تهنئة السلطان لملك الفرنسيين على انتصاراته مؤكدا له «بأنه سيحتفظ بالتفاهم الطيب والصداقة على نحو ما كان بين المملكتين فيما سبق».

وعاد الحاج ادريس الرامى فى نهاية شهر اكتوبر الى المغرب مارا باسبانيا التى اقام بها عدة شهور قبل ان يصل الى العرائش فى شهر مارس سنة 1808.

ولم تكن لسفارته الا صبغة بروتوكولية صرف، اذ لم تكن لها نتيجة سياسية. فعبثا سافر القبطان «بيريل» رسول امبراطور الفرنسيين الى مكناس فى شهر اغسطس سنة 1808 وحاول اقناع مولاى سليمان وحمله على تأييد نابليون فى حربه مع انجلترا. والنتيجة الوحيدة التى كانت لتلك السفارة هى تعيين مسيو «لاربر كلرمون» نائبا لقنصل فرنسا بالعرائش استجابة للرغبة التى أبداها الحاج ادريس الرامى نفسه.

مهمة لمبارك بن الباى سنة 1828 (؟)

وعند ما كان الاسطول الفرنسى يحاصر مدينة الجزائر فى نهاية شهر ابريل سنة 1828 عقب «لطمة المروحة»، قدم من لندن مغربى يسمى مبارك بن الباى وحل بباريس.

وقد كان مبارك بن الباى يقيم بالعاصمة البريطانية منذ عدة سنوات باعتباره «عونا خاصا لامبراطور المغرب دون ان تكون له اية صبغة رسمية معترف بها من لدن الحكومة الانجليزية». وقد جاء مبارك بن الباى مزودا

بكتاب توصية حرره مسيو «سوردو» قنصل فرنسا بطنجة الى «ميرار» احد المصارفة المعروفين بباريس فطلب مقابلة وزير الشؤون الخارجية «الكونت دو لا فيرونايس» الذي كلف احد التراجمة باقتباله .

وصرح مبارك بن الباي انه تلقى من باشا طنجة امرا باسم السلطان مولاي عبد الرحمن ليتوجه في الحال الى باريس بقصد تسليم خطاب القنصل الفرنسي بطنجة الى صاحبه. ولم يكن هذا الرسول مكلفا بأية مهمة أخرى الا انه لما كان يريد المساهمة في اقرار السلم بين فرنسا والجزائر فقد طلب مقابلة الوزير. اذ كان يريد بالفعل ان يقترح عليه «ان يحمل شروط الحكومة الى باي الجزائر ويتلقى منه شروطه لمناقشتها جميعا لصالح الطرفين». غير أنه ألح في اعتبار الخاصية الشخصية لمسعاه مضيفا أنه لم يتلق أي امر من السلطان في هذا الشأن.

وبعد مرور بضعة ايام اقتبل وزير الشؤون الخارجية الرسول المغربي فقال له انه لا يتوفر على اى شيء يقوله له «لان طلبه لم يكن مصادقا عليه من لدن حكومته ».

وقد اكد «سوردو» انه لم يسلم لمبارك بن الباي بطلب من باشا طنجة «الا كتاب توصية حتى يتمكن من التعرف على مدينة باريس ومشاهدة ما قد يسترعي اهتمام المسافر اليها» ثم ان قنصل ملك فرنسا قد طلب الايضاحات من حكومة المخزن فأجابه كاتب مولاي عبد الرحمن قائلا «ان صاحب الجلالة لم يسمع ابدا بالشخص الذي تقولون انه قد سافر الى باريس بأمر من جلالته، فما هو الا كاذب».

وعاد مبارك بن الباي الى لندن حيث كتب بعد بضعة شهور كتابا الى وزير الشؤون الخاجية «لا فيرونايس» ـ بتاريخ 24 اكتوبر 1828 ـ يضع نفسه فيه تحت تصرف الوزير لانهاء الخلاف القائم مع الجزائر، ثم انه عبر في كتابه عن اندهاشه لعدم تسلم أي جواب على المساعي السابقة التي بذلها وصرح بأنه في انتظار أوامر الوزير، الا ان هذا الكتاب لم يلق جوابا .

ولقد افترض ان ذلك كان «دسيسة من بريطانيا التي دفعت موظف السلطان «الى محاولة التدخل بيننا وبين الجزائر». وعلى كل حال فلا يظهر لنا انه في الامكان ان نقول ان مولاي عبد الرحمن قد كلف مبارك بن الباي بمهمة من المهمات» .

سفارة الحاج عبد القادر بن محمد اشعاش سنتى 1845 ـ 46

والى الجنرال «دو لا روى» و «ليون روش» الترجمان الرئيسى بجيش افريقيا المفاوضات مع السيد «بوسلهام بن على» باشا العرائش للتصديق على معاهدة «للا مغنية» يوم 18 مارس 1845. واقترح هذا الجنرال على الباشا ان يرسل السلطان مولاى عبد الرحمن سفيرا له الى باريس. ولقد اهتم الباشا غاية الاهتمام بهذا الاقتراح حتى انه لم تمض الا بضعة اسابيع حتى وعد الجنرال «دو لاروى» بأن ممثل السلطان سيرسل الى باريس فى وقت قريب. وقد كانت الغاية من هذه السفارة اظهار التفاهم الطيب المستعاد بعد المعارك التى دارت فى شهر اغسطس من السنة الماضية .

ووقع اختيار السلطان على الحاج عبد القادر بن محمد اشعاش باشا تطوان للقيام بهذه المهمة. وفى الايام الاولى من شهر دسمبر 1845 ركب السيد اشعاش باخرة من الاسطول الحربى الفرنسى «لا ميطيور» مصحوبا بحاشية قوامها اربعة عشر فردا من بينهم قائد ومدير للجمارك وكذلك بعدد من الضباط والموظفين الفرنسين وخاصة «ليون روش» و «اوغست بومييه» كاتب قنصل فرنسا العام بطنجة .

ونزل مبعوث السلطان وحاشيته بمرسيلية يوم 14 دسمبر ثم توجهوا الى «اورليانس» ومنها بالقطار الى باريس التى وصلوها يوم 28 دسمبر. ولا شك فى ان اشعاش كان اول مغربى سافر بالقطار.

وغداة وصوله خف السفير لزيارة «غيزو» وزير الشؤون الخارجية واقتبل فى اليوم التالى من لدن الملك «لويس فيليب» الذى تأثر غاية التأثر لما قرأ خطاب السفير الذى أكد رغبة مولاى عبد الرحمن فى اقامة احسن العلاقات بفرنسا .

وبعد ذلك اجرى اشعاش و «غيزو» عدة مقابلات كانت مصحوبة بتبادل المذكرات حول السياسة التى يجب اتباعها ازاء الامير عبد القادر الذى كان عمله لا يزال مهددا بالجزائر. غير ان الوزير الفرنسى قال «ان باشا تطوان قد أرسل الى باريس لاظهار العلاقات الطيبة القائمة بين فرنسا والمغرب ولاضفاء حلة السلم على الاتفاق المبرم بتاريخ 10 سبتمبر 1844 قبل ان يكون مكلفا بابرام اى اتفاق خاص فعال» ولقد كان «ليون روش» قد قام بمهمة بالرباط فيما بين 18 و 22 من نوفمبر المنصرم حيث سوى مع المخزن ولو بصورة مؤقتة على الاقل جميع القضايا العارضة والمتعلقة بمحاربة الامير عبد القادر فى التخوم الجزائرية المغربية .

ولقد احيط مندوب السلطان طيلة مقامه بباريس بجميع مظاهر الاهتمام والعناية والمجاملة. فقد استدعى لعدة حفلات وخاصة بقصر «التويلرى» بمحضر عدد من الوزراء وحضر عرضا عسكريا وذهب الى المسرح عدة مرات وزار المآثر الهامة بالعاصمة. كما ان الملك لويس فيليب اقتبله اقتبالا وديا فى عدة مناسبات .

وفى اليوم السادس عشر من فبراير 1846 ابتدأ اشعاش سفره عائدا فتوقف اولا فى ليون ثم فى طولون ثم بمرسيلية فى النهاية. ولقد استقبلته السلطات المحلية وحيته فى مختلف الاماكن. وفى ثانى مارس امتطى الباخرة «ميطيور» التى انزلته الى البر بتطوان بعد سبعة ايام .

وعاد سفير مولاى عبد الرحمن يحمل ذكرى طيبة جدا للاسابيع السبعة التى قضاها بباريس. فبعد بضعة ايام من رجوعه صرح لمسيو «ايدم دو شاسطو» القنصل العام بطنجة قائلا : «لو انى شرحت لحمى لتغذية ممثل فرنسا وأرقت دمى لينهل منه فان ذلك سيكون ضئيلا جدا اذا ما رأيت أن أبرهن للجميع على مدى ما يعمر قلبى من الاعتراف بعطف سلطان الفرنسيين الاعظم» .

ولقد كانت مهمة السيد اشعاش تمثيلية اكثر مما كانت سياسية، وساعدت مساعدة كبرى على اقرار العلاقات الطيبة بين فرنسا والمغرب والمحافظة عليها .

سفارة الحاج ادريس بن ادريس سنة 1860

أخبر باشا طنجة فى شهر ابريل سنة 1860 مسيو «كاسطيون» القائم باعمال فرنسا بأن السطان مولاى محمد بن عبد الرحمن ينوى ايفاد سفير فى القريب الى باريس ليخبر الامبراطور نابليون الثالث بوفاة والده ــ الذى توفى سنة 1859 ــ وبولايته العرش .

وفى رابع عشر يونيه 1860 ركب مندوب السلطان بطنجة الباخرة الفرنسية (فورد) مصحوبا بأربعة موظفين من رجال المخزن وبخمسة جنود سود وخادمين. وكان السفير هو الحاج ادريس بن ادريس «الكاتب المقرب عند السلطان وأمين سره». وقد التحق به عضوان من المفوضية بطنجة هما القنصل المتدرب «بليسييه» و «الصويرى» السمسار الترجمان .

ولما وصل السفير الى مرسيلية يوم 17 يونيه توجه بصحبة رفقائه الى باريس فى الحـال. الا ان الامبراطـور لم يقتبله بقصر «سان كلود» الا يوم عاشر يوليوز فكانت مقابلة فخمة شهدتها الامبراطورة والامير ولى العهد وقدم الحاج ادريس خلالها اوراق اعتماده الى الملك الفرنسي ودفع اليه كتابا لسيدى محمد بن عبد الرحمن. وقد عبر السفير فى خطابه «عن نية سيده الثابتة فى الاحتفاظ بعلاقات حسن الجوار مع الممتلكات الفرنسية بالجزائر» ورد نابليون قائـلا انه قـد سر بما سمع، غير انه يأمل من السلطان ان يعمل على نشر السلام بالمغرب الشرقى .

وبعد ذلك تقابل السفير مع مسيو «توفنيل» وزير الشؤون الخارجية عدة مرات فطلب منه عملا بتعليمات حكومته تأييد فرنسا لقضيتها لدى حكومة مدريد ؛ فقد كان المخزن يرغب اشد الرغبة فى رؤية الاسبانيين ينسحبون عن مدينة تطوان التى احتلوها يوم 5 فبراير 1860 عقب القتال الذى دار خلال السنة المنصرمـة. ثم تناقش فيما بعد فى مسالة الحدود المغربية الجزائرية واشتكى من الشطـط فـى بسـط الحماية. اذ قال فى النهاية ان الموظفين الفرنسيين فى المغرب كانوا يباشرون «سياسة التخويف» وانه قد اصبح من المناسب ايقافهم نظرا لما يظهره السلطان من مشاعر التصالح والمودة .

اما بالنسبة لفرنســا فقد كانت قضيــة الحدود ظاهرة على غيرها من القضايا. ولهـذا السبب سلم الوزير للسفير «مذكرة شفوية» الح فيها بعد الاعراب عن امله فى انتهاء الحوادث على القول بأن الحل متوقف على موقف الحكومة المغربية قبل كل شيء وانه يجب على هذه الحكومة ان تباشر سلطتها وتفرضها على تلـك الناحية. واكد الوزير من جهة اخرى للسفير انه سيأمر بالقيام بمسعــى لـدى حكومـة مدريد وانه سيسهر على عدم الاستمرار فى الشطط لدى بسط الحماية. الا انه دافع عن سلوك اعوان الدولة الفرنسية بالمغرب كما دافع عن مواقفهم .

وغادر السفيــر وصحبــه بـاريس يوم ثانـى اغـسطس متوجهين الى مرسيلية فامتطـوا فيهـا الباخـرة «فـورد» التـى حملتهم يـوم 8 من نفس الشهر الـى طنجـة. وبمجـرد الوصول خف الحـاج ادريس بن ادريس الى «كاسطيون» وشكره شكرا حارا «على الاستقبال الجميل الرقيق الذى خصته به حكومة الامبراطورية» .

سفارة محمد بن عبد الكريم الشرقي سنتي 1865 ـ 1866

كان نائب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن بطنجة قد تقابل في الايام الاولى من شهر يوليوز 1865 مع «البارون ايمي داكان» وزير الامبراطور نابليون الثالث بالمغرب. فأسر السفير الى الوزير المفوض بعزم السلطان على ارسال سفير في القريب العاجل الى باريس. اما الديبلوماسي الفرنسي فقد أجاب بأنه لا يرى فائدة من تلك السفارة، غير انه اشعر حكومته بذلك فقررت هذه انه ليس من واجبها معارضة الرغبة التي ابداها السلطان.

وعين سيدي محمد بن عبد الرحمن خاله القائد محمد بن عبد الكريم الشرقي للقيام بهذه المهمة. الا ان سفر مندوبه هذا قد تأخر لعدة اسباب اهمها : وباء الطاعون الذي كان يجتاح بعض نواحي فرنسا آنذاك. وركب السفير المغربي الجوالة «كاتينا» بميناء طنجة يوم 14 دسمبر 1865، وكان مصحوبا بباشا مدينة سلا الحاج محمد بن سعيد وستة قواد واثني عشر خادما كان بعضهم مكلفا بالعناية بالحيوانات التي ارسلها السلطان هدية الى نابليون الثالث وهي ستة افراس وفهد وتيتل وبعض الغزال.

وحضر السفير يوم 3 يناير 1866 الى قصر «التويلري» فقدم اوراق اعتماده الى الامبراطور الذي كان محاطا بالامبراطورة وبالامير الامبراطوري ايضا. وقد عبر السفير في خطابه «عن مشاعر الصداقة الخالصة لسيده ازاء ملك الفرنصيص الذي شكره ببضع جمل مليئة بالامتنان والعواطف »

وقابل مندوب السلطان خلال الاسابيع التالية وزير الشؤون الخارجية عدة مرات فسلمه مذكرة تتضمن مطالبه. وقد قال السفير للوزير «دورين دو لويس» انه من المناسب تطبيق الانظمة المتعلقة بالحماية من غير هوادة وطبقا للاتفاقيات المبرمة وفرض بعض التقنينات على استقرار وتجول الفرنسيين بالمغرب واستدعائهم لتقديم شكاياتهم الى السلطات المحلية بواسطة قناصلهم والزام هؤلاء الذين كانوا «مزارعين بالمغرب...» باداء العشور كما يؤديه أهل البلاد. ثم ان السفير أعلن من جهة أخرى عزم السلطان على اعتماد قائم بالاعمال بباريس واظهر رغبته في رؤية الاعوان الفرنسيين الذين يزاولون وظائفهم بالمغرب يسلكون «سبيل التسامح والتعقل والرزانة».

واستجاب الوزير على العموم لهذه المطالب، الا انه صرح باستحالة قبوله للقيود المفروضة على حق مواطنيه في الاستقرار بالمغرب والتجول به. وقد اقتصر على الوعد بأن ينصحهم بعدم الذهاب «الى الاماكن التي يكون فيها نفوذ السلطان مجهولا في تلك الاثناء » .

وغادر السفير وحاشيته باريس حوالى اليوم الخامس والعشرين من يناير 1866 فركبوا بميناء مرسيلية الباخرة «ايلدورادو» التى انزلتهم بطنجة يوم ثالث فبراير. ولما عاد السيد محمد الشرقى شكر «الاستقبال الحار الذى خص به شكرا جزيلا».

سفارة الحاج محمد الزبدى سنة 1876

وفى شهر اغسطس 1875 اشعر السلطان مولاى الحسن القائم بأعمال فرنسا فى طنجة بنيته فى ارسال سفارة فى القريب الى باريس. الا ان بعض الحوادث قد اخرت تطبيق المشروع اذ لم يغادر مندوب السلطان مدينة طنجة الا فى السنة التالية حيث ركب الجوالة الحربية الفرنسية «لو كاسارد» بميناء هذه المدينة .

ولقد كان السفير احد خدام المخزن القدماء وهو الحاج محمد الزبدى الذى تمتع بحظوة كبيرة عند والد السلطان مولاى الحسن وجده ايضا. وقد صحب السفير كاتبان وقائد واربعة موظفين آخرين وعدد من الخدم. ثم ان وزير فرنسا لم يستصحب الاعضاء الثلاثة بمفوضيته ـ وهم المترجم الاول «مونج» ومترجمان مساعدان ـ فقط، بل استصحب ايضا رئيس الجالية الريفية بطنجة الذى كان قد قدم للوزير بعض الخدمات .

وكان السفير المغربى مكلفا بأن يسلم الى المارشال «ماكماهون» رئيس الجمهورية رسالة مولاى الحسن التى عبر فيها «عن رغبته فى تجديد قواعد الصداقة التى لم تفتأ تقوى بين القطرين مع مرور الزمن». كما كان السفير مكلفا ايضا بأن يسلم للرئيس وباسم سيده عشرة افراس وعدة منتوجات من الصناعة المغربية .

ونزل الحاج محمد الزبدى يوم رابع يونيه فاستقبل استقبالا رسميا من لدن السلطات المحلية. وبعد مرور اربعة ايام وصل السفير الى باريس حيث اقتبل اقتبالا مشهودا فى اليوم الحادى عشر وسلم للمارشال ماكماهون اوراق اعتماده وكتاب السلطان وهداياه .

الا ان السفير كان مكلفا بمهمة سياسية ايضا فاجرى لهذه الغاية عدة مقابلات مع «دوق ديكاز» وزير الشؤون الخارجية وقدم اليه مطلبين يتعلق احدهما ببعض الشرفاء المغاربة المقيمين بالجزائر والذين اجبروا على اداء بعض الضرائب التى كانوا معفيين منها من قبل، وكان مولاى الحسن يرغب رغبة اكيدة فى الاحتفاظ له بهذه الميزة. اما المطلب الثانى فكان يتعلق برغبة

السلطان فى تقنين الحماية التى كان يرى انها تخول بسخاء لرعاياه. ولقد قبل وزير الشؤون الخارجية ان يحتفظ للشرفاء بامتيازهم القديم على شرط ان يمسكوا عن القيام بأى نشاط سياسى. اما فيما يتعلق بالحماية فقد لاحظ الوزير على مخاطبه ان فرنسا لم تكن تمنحها الا باعتدال وصرح باستعداده لاسناد كل المطالب التى تتقدم بها الحكومة المغربية لدى الدول الاوربية الاخرى لتقنين تلك الحماية .

وغادر الحاج محمد الزبدى وحاشيته باريس حوالى اليوم الخامس والعشرين من يونيه بعد ان سلم لوزير الشؤون الخارجية مبلغ عشرة آلاف فرنك (الذى يعادل مليونين من الفرنكات الفرنسية بقيمتها سنة 1959) تبرعا على «منشآت الاحسان» بالعاصمة .

وتوجه المغاربة الى روما وغادروا الى طنجة يوم 16 سبتمبر 1876 على متن الباخرة الايطالية «كونت كافور»

سفارة على المسفيوى سنتى 1879 ـ 1880

ذهب مسيو «هيكوار» الترجمان الاول بمفوضية فرنسا بالمغرب الى الرباط فى شهر يوليوز 1879 لتحية السلطان مولاى الحسن. وقد اخبره السلطان برغبته فى ارسال سفارة الى باريس فى مستقبل قريب «لتهنئة رئيس الجمهورية الجديد ـ جيل غريفى ـ وتأكيد العطف الشخصى له» . وما ان علم مسيو «فيرنوبليه» وزير فرنسا بطنجة بتلك الرغبة حتى اشعر حكومته بها وعبر عن اغتباطه بالقرار الذى اتخذه السلطان الذى يبدى بذلك رغبته «فى المحافظة على العلاقات الطيبة بين القطرين وتقويتها ايضا» الا ان بعث السفارة قد تأخر بسبب وقوع حادث بالحدود الجزائرية المغربية .

ووقع اختيار السلطان لتمثيله على مربيه السابق السيد على المسفيوى الذى كان ثقة عنده كما كان ايضا من العلماء المبرزين. وغادر السفير طنجة مصحوبا بترجمان المفوضية الاول حيث ركبا الجوالة الفرنسية «لا كورون». كما كان مصحوبا بحاشية تتكون من كاتب ومدير لاملاك السلطان واربعة قواد وعدد من الخدم المكلفين برعاية الافراس العشرة والصناديق الستة عشر المتضمنة لبعض الاسلحة والهدايا التى قدمها مولاى الحسن الى رئيس الجمهورية.

ووصل السيد على المسفيوى الى مرسيلية يوم عاشر دسمبر والى باريس بعد ثلاثة ايام فتوجه فى الحال لزيارة مسيو «وادينغتون» وزير

الشؤون الخارجية. وفي اليوم الرابع والعشرين اقتبل اقتبالا فخما من لدن «جيل غريفي» رئيس الجمهورية وسلمه أوراق اعتماده. وخطب السفير فهناه بانتخابه واكد له مدى حرص السلطان على الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع فرنسا. وفي مساء ذلك اليوم توجه السفير الى مسرح «الاوبرا» حيث احتل شرفة الرئاسة .

وقام السفير فيما بعد بتسليم مذكرة الى مسيو «فريسينيه» وزير الشؤون الخارجية الجديد، وكانت تتضمن رغبة مولاى الحسن فى استرجاع اقليم «سانطا كروز دى مار بيكينيا» المسلم لاسبانيا سنة 1860 وتطلب وساطة الحكومة الفرنسية ومساعيها الحميدة لتأييد ذلك المطلب. وقد اجاب الوزير جوابا رقيقا، الا انه لم يلتزم بشيء . غير انه اشعر قصر مدريد بأن فرنسا ترغب فى الوصول الى اتفاق بين اسبانيا والمغرب. ومن المعلوم أن رغبة الحكومة الشريفية لم تتحقق .

وغادر على المسفيوى ومواطنوه باريس فى مستهل شهر فبراير 1880 فمروا بمدينة ليون وركبوا الباخرة «لا كورون» بمرسيلة ووصلوا طنجة فى اليوم الثانى عشر من نفس الشهر .

سفارة عبد المالك بن على سنة 1885

كان «لويس شارل فيرو» حديث العهد بتعيينه وزيرا لفرنسا بالمغرب عند ما ذهب فى شهر مايو 1885 الى فاس ليقدم اوراق اعتماده الى السلطان مولاى الحسن. ولقد اخبره السلطان بنيته فى ارسال سفارة الى باريس فى وقت قريب، وسرعان ما عين لها السيد عبد المالك بن على عامل وجدة.

وكان السفير مصحوبا بوزير فرنسا عند ما ركب بطنجة الباخرة «لا ريتيز» من الاسطول الحربى الفرنسى. اما حاشيته فكانت تتكون من اثنى عشر فردا من بينهم قاضى فاس وخمسة قواد وكاتب. كما ركب نفس الباخرة اثنا عشر شابا مغربيا بقصد قضاء فترة التدريب «بمدرسة الهندسة بمدينة «مونبلير». وفى اليوم السابع والعشرين من نفس الشهر وصلت البارجة الى ميناء طولون، وبعد مرور يومين وصل السفير وحاشيته والوزير الفرنسى المعتمد بالمغرب الى باريس .

وقام عامل وجدة بعدة زيارات وخاصة لمسيو «فريسينيه» وزير الشؤون الخارجية. واقتبل «جيل غريفي» رئيس الجمهورية السيد عبد المالك بن على يوم ثالث يوليوز. وحضر احدى الحفلات بمسرح «الاوبرا»

حيث جلس بالشرفة المخصصة للرئيس وشهد العرض التقليدي بنهج «الشانزيليزيه» يوم رابع عشر يوليوز .

وصرح مولاي الحسن في اوراق الاعتماد التي سلمها لسفيره «بمدى الحرص العظيم» على نجاح مهمة عامل وجدة الذي جاء مكلفا من قبله بتأكيد عبارات الارادة الحسنة والصداقة الخالصة «للسلطان ازاء الحكومة الفرنسية. كما انه قدم مكلفا بتسوية بعض الخلافات المتعلقة بالحدود الجزائرية المغربية وبالاحتجاج على «رسوم الحماية وبطاقات التجنيس» التي تسرف الحكومة الفرنسية في تخويلها منتهكة بذلك اتفاق مدريد المبرم بشأنها سنة 1880. وصرح الوزير الذي قابل السفير عدة مرات بأن فرنسا تطبق ذلك الاتفاق بمنتهى الاخلاص وانه ينبغي للحكومة المخزنية ان تفرض سلطتها على المغرب الشرقي لتضع بذلك حدا للمصاعب التي تحدث بشأن الحدود.

وفي اليوم التاسع عشر من يوليوز غادر السيد عبد المالك بن علي باريس مصحوبا بحاشيته وبوزير فرنسا متوجها الى «مونبلييه» التي قضى بها يومين ونصفا على مقربة من مواطنيه الطلبة بمدرسة الهندسة. ولقد باشر مقابلات طويلة مع الطلبة المتدربين وتباحث مع المسؤولين المكلفين بتعليمهم. كما حضر السفير بعض التمارين التي قام بها رجال الانقاذ في ميدان الحامية العسكرية .

وفي اليوم الرابع والعشرين من نفس الشهر ركب السفير بمرسيلية نفس الباخرة التي قدم بها فنزل بطنجة بعد ثلاثة ايام.

سفارة الحاج المعطي سنة 1889

كان مسيو «جيل باطنوطر» حديث العهد بتعيينه وزيرا للجمهورية بطنجة عند ما توجه في ربيع سنة 1889 الى فاس لتقديم اوراق اعتماده الى السلطان مولاي الحسن. ولقد طلب منه السلطان معرفة ما اذا كان من المناسب ارسال سفارة الى باريس بمناسبة المعرض العالمي الذي كان من المقرر ان يفتتح في ذلك العام لقطع دابر الشائعات الرائجة آنذاك حول الفتور الطارىء على العلاقات بين فرنسا والمغرب. ولقد ايد الوزير ذلك المشروع الذي من شأنه ان يشهد بحسن نوايا السلطان فاقترح عليه ارسال بعثة فائقة للعادة تكون مهمتها تهنئة مسيو «سادي كارنو» بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية .

وقد تم الاتفاق بين الحكومة الشريفة ومندوب فرنسا على أن يمر مندوب السلطان بالجزائر فيتوقف بوهران والجزائر العاصمة وعلى ان يتوجه الى مدريد بعد اقامته بباريس .

ولقد اسندت المهمة الى عامل الشاوية الحاج المعطى بن عبد الكريم المزامزى وهو من اقرباء السلطان فركب الجوالة «لو رودوطابل» بطنجة يوم ثالث سبتمبر 1889 وفى صحبته موظفان مخزنيان ساميان وهما احمد الكردودى امين سر السلطان والحاج محمد بنيس ثم حاشية عديدة تتكون من امام ومؤذن وترجمان وحاسب وكاتبين واربعة من قواد المائة وحلاق وثلاثة طهاة وما يزيد على عشرة من الخدم كان احدهم مكلفا بالعناية بالخيول الاثنى عشر التى بعثها السلطان الى رئيس الجمهورية والى الوالى العام بالجزائر. وسافر بصحبة البعثة المغربية مسيو «بياط» الترجمان الاول بمفوضية فرنسا بطنجة .

وبعد بضعة ايام قدم الحاج المعطى اوراق اعتماده الى الرئيس «كارنو» اثناء حفلة استقبال تبودلت فيها الخطب للاشادة بحسن التفاهم الموجود بين فرنسا والمغرب كما استقبل السفير من لدن مسيو «سبوليز» وزير الشؤون الخارجية. غير انه يظهر ان المذاكرات قد اقتصرت على تبادل العبارات الرقيقة وعلى ابداء الرغبة فى توقف الحوادث بالحدود الجزائرية المغربية. الا ان أحد رفقاء السفير قد أسر للوزير فى غيبته بأن السلطان سيضطر الى عزل عامل وجدة لكونه يعتبر صديقا لفرنسا. وبمجرد ما علمت المفوضية الفرنسية فى طنجة بذلك اعتبرت انه لن تكون لذلك الاجراء نتيجة يؤسف لعدم وجودها .

وقام المغاربة من جهة اخرى بزيارة المعرض العالمى يوم 24 سبتمبر فاقتبلهم المشرفون عليه واحد مواطنيهم وهو الحاج العربى بريشة الذى كان أول مندوب للحكومة الشريفة .

وغادر افراد البعثة باريس يوم 10 اكتوبر متوجهين الى مدريد. ولما عاد سفير السلطان الى طنجة لم يعتبر من واجبه ان يزور مسيو «بوطيرون» القائم باعمال فرنسا نظرا لتغيب وزيرها. ولما اخبر وزير الشؤون الخارجية المغربية بذلك أجاب بأنه اذا كان الحاج المعطى قد ارتكب غلطا فلا يمكن لسلوكه هذا «ان يضر بالصداقة الموجودة بين حكومتينا» .

سفارة السيد محمد بن موسى سنة 1897

قرر الصدر الاعظم السيد احمد بن موسى الذى كان صاحب السلطة الفعلية نظرا لحداثة سن السلطان مولاى عبد العزيز واستجابة لطلب الحكومة البريطانية ايفاد سفير الى لندن سنة 1897 لحضور الحفلات المقامة بمناسبة العيد الذهبى للملكة فيكتوريا. واقترح الصدر الاعظم فى نفس الوقت على الحكومة الفرنسية أن يتوقف مندوب السلطان بباريس قبل أن يتوجه الى لندن فقبل وزير الشؤون الخارجية «هانوطو» اقتراح الحكومة المخزنية.

واختار الصدر الاعظم اخاه محمدا للقيام بهذه المهمة المزدوجة. وغادر السفير مدينة الجديدة على متن الجوالة «ايسلى» التى توقفت بطنجة، وكان مصحوبا بعدد من مواطنيه من بينهم المستشار محمد بن سليمان وامين الجمارك وترجمان كما كان مصحوبا ايضا بالدكتور «ليناويس» طبيب السلطان وبالترجمان الاول بالمفوضية الفرنسية بطنجة.

ووصل شقيق الصدر الاعظم الى مرسيلية يوم 22 مايو، ثم توجه فى الحال الى باريس. وبعد استقبال السفير من لدن وزير الشؤون الخارجية استقبل يوم 29 مايو من جانب المسيو «فيليكس فور» رئيس الجمهورية. ولقد صرح السيد محمد بن موسى فى خطابه بأن مهمته هى تمتين وتقوية اواصر الصداقة الموجودة بين فرنسا والمغرب». ثم قال ان لمولاى عبد العزيز «العزم الاكيد على السير طبق الخطة التى رسمها له والده واجداده وعلى العمل لتقوية العلاقات الطيبة بين القطرين. ولقد اجاب الرئيس «فور» بأنه مستعد لاسناد مجهودات السلطان الرامية «الى المحافظة وتقوية التفاهم المفيد جدا لمصالح الايالة الشريفة».

ولم يكن مندوب السلطان مكلفا باجراء اى تفاوض خاص بل بالقيام «بمسعى المجاملة السامية» فقابل عدة وزراء فرنسيين وزار مختلف المآثر. ثم ان اعضاء حاشيته قد ذهبوا لزيارة «المطبعة الوطنية» حيث طبع بمحضرهم «خطاب تحية بالعربية لسلطان المغرب ولوزيره الاول ايضا».

الا ان السيد محمد بن موسى كان عليلا فلم يستطع تحمل مشاق المهمة واتعابها. فلما كان يوم رابع يونيه عائدا من مشاهدة حفلة استعراضية اصيب بانهيار عصبى لم ينفع فيه علاج الدكتور «ليناريس» فاستدعى عميد كلية الطب بباريس للاستشارة. ولقد تحقق يوم 12 يونيه ان المريض بحاجة ماسة الى هدوء شامل وراحة طويلة الامد. كما نصح بامساكه «عن القيام بأية

زيارة او شهود حفلة رسمية. وطلب مستشار السفير في هذه الظروف نقل المريض الى مرسيلية التي ابحر منها يوم 26 يونيه على متن الجوالة «مدينة الجزائر» التي وصلت الجديدة بعد بضعة ايام .

سفارة السيد عبد الكريم بن سليمان سنة 1901

كان الدكتور «ليناريس» موظفا شبيها بالموظف الرسمي للحكومة الفرنسية لدى القصر المغربي، ولقد اخبره السيد المنبهي وهو الوزير المقرب لدى مولاى عبد العزيز بأن السلطان ينوى ايفاد سفير الى باريس يذهب منها لزيارة روسيا. ولقد اندهش حقا من عزم السلطان على بعث ذلك السفير نظرا لما كان يعتور العلاقات بين المخزن وفرنسا من توتر. فقد كانت فرنسا قد احتلت واحات «توات» سنة 1900 من جهة، ثم انها طلبت بعض التعويضات عن اغتيال معمر من عمالة وهران بقبيلة كبدانة في اليوم الثالث من شهر ابريل المنصرم. ولم تصادق فرنسا على اقتراح السلطان الا بعد حصولها على تلك التعويضات .

واختار مولاى عبد العزيز السيد عبد الكريم بن سليمان وزيره في الشؤون الخارجية للقيام بهذه المهمة فركب الجوالة «لو بوطو» من ميناء طنجة يوم 11 يونيه 1901 مصحوبا بعدد من مواطنيه منهم موظفان ساميان بالحكومة المخزنية هما السيد بناصر غنام والفقيه محمد الجباص الكاتب الاول لوزير الحربية، ورافقهم ايضا وزير فرنسا بطنجة «بول روفوال» الذى عين منذ مدة قصيرة واليا عاما على الجزائر واحد تراجمة المفوضية وهو الجزائرى قدور ابن غبريط. وابحرت الباخرة بركابها الى طولون ووصلوا باريس يوم ثامن عشر يونيه .

وقام السيد عبد الكريم بن سليمان يوم 20 يونيه بزيارة اولى لوزير الشؤون الخارجية «ديلكاسي» فصرح له «بانه قدم للقيام بمهمة صداقة» وبعد يومين اقتبله مسيو «لوبى» رئيس الجمهورية الذى كان محاطا بعدة وزراء وبالمستشار الاكبر لجوقة الشرف. وبعد ذلك تناول السفير ومرافقوه طعام العشاء بقصر «الايليزى» مع اعضاء الحكومة وكبار القواد العسكريين ثم شهدوا العرض العسكرى يوم 14 يوليوز وزاروا المآثر الرئيسية بباريس .

وكانت غاية السفارة المغربية هي تسوية الحالة في القسم الجنوبي من التخوم الجزائرية المغربية بتمديد الحدود التي شرع اتفاق 18 مارس 1845 في تخطيطها. واشرف على المفاوضات من الجانب الفرنسي «روفوال»

فانتهت بسرعة، اذ ابرم بن سليمان وديلكاسي يوم 20 يوليوز 1901 «ديباجة... تقضي بتطبيق وتنفيذ اتفاق 1845 في ناحية الجنوب الغربي الجزائري» .

ويقضي هذا الاتفاق في توطئته «بتمتين اواصر الصداقة الموجودة بين الحكومتين وتعزيز علاقاتهما الطيبة» . وكان اهم شروطه ذلك الشرط الذي جعل العشيرتين الكبيرتين عشيرة «اولاد جرير» وعشيرة «دوي مينية» خاضعتين للسيادة الفرنسية. كما نص هذا الاتفاق على انشاء لجنتين مغربية وفرنسية وتعيين مندوبين مكلفين بتسوية المصاعب التي يمكن ان تحدث بشأن الحدود .

وقد ادى تطبيق الاتفاق المبرم على هذا النحو الى ابرام «اتفاق» آخر يوم 20 ابريل 1902 و «المواد الاضافية» المبرمة يوم 7 مايو 1902 بعاصمة الجزائر بين الجنرال «كوشميز» ومحمد الجباص «باعتبارهما رئيسي الوفدين اللذين تتالف منهما اللجنة الفرنسية المغربية المكلفة بالسهر على ضمان النتائج المتوخاة من البروتوكول المبرم يوم 20 يوليوز 1901» وقد ادخلت هذه التعديلات بعض التنقيحات على شروط 1901 وقضت بتنظيم تعاون الحكومتين بناحية الحدود فيما يرجع الى الشرطة والتجارة والجمارك. وقضت تلك التنقيحات بأسبقية سياسة الاشتراك بينما كان بروتوكول 1901 مستوحى من سياسة مناطق النفوذ.

ولما انهى السيد عبد الكريم بن سليمان مهمته غادر باريس يوم 31 يوليوز متوجها الى «سان بطرسبورغ» مصحوبا بمواطنيه وبالسيد قدور بن غبريط بطلب من السفير. وعاد الى فرنسا حيث ركب بميناء طولون الجوالة «لو كاسارد» التي نقلته الى طنجة في اوائل شهر سبتمبر 1901. وكان السفير يعتبر ان نتيجة سفارته بباريس كانت مرضية. فقد كان يقول ان العلاقات الفرنسية المغربية قد دخلت في مرحلة جديدة جدا «وان النهار قد تكور على الليل».

سفارة الحاج محمد المقري سنتي 1909 ـ 1910

كان مسيو «اوجين رينيول» وزيرا لفرنسا بطنجة في شهر يناير 1909 فانتقل الى فاس ليتحادث مع المخزن حول عدة قضايا وخاصة حول الحالة المادية للمغرب. ولقد اشعره السلطان مولاي عبد الحفيظ آنذاك

برغبتـه فـي ارسال وزير ماليته الحاج محـمد المقرى سفيرا الى باريس ليتباحث في هذه القضيـة وليتفاوض مستصدرا قرضا.

وغادر السفير طنجة يوم 19 ماى 1909 مصحوبا بالسيد قدور بن غبريط ترجمان المفوضيـة الفرنسية وبعدد من مواطنيه وخاصة بأحد ابنائه وبكاتب بالاضافة الى السيد عبد الله الفاسى نائب وزير الشؤون الخارجية .

ووصـل المغاربـة الى باريس يوم 23 مايو فاقتبلهم «اوجين رينيول» وفى اليوم السابـع والعشريـن منه اقتبلهم مسيو «فاليير» رئيس الجمهورية بقصر «الايليزى» يحيط به اربعـة مـن اعضـاء الحكومة وبالمستشار الاكبر لجوقة الشرف. وبعد ان قـدم الحـاج محمد المقرى اوراق اعتماده اكد حسن استعـداد السلطـان ازاء الـدول الاوربيـة وخاصة فرنسا التى يعترف لها بسياستها المخلصة وبالحقـوق الخاصة التـى توليهـا اياها مجاورة الجزائر للمـغـرب .

وابتدأت المفاوضات بعد ذلك ببضعة ايام، الا انها كانت طويلة وصعبة فبعد ان استمر تبادل المذكـرات مـدة لم تقل عن سبعة شهور انتهى الوزير الفرنسى مسيو «ستيفان بيشون» والوزير المغربى الى اتفاق مبدئى يوم 25 دسمبر 1909، ثم امضيا «تعديلا» يوم 14 يناير 1910 على شرط ان يصادق السلطان عليه. ولم يصل التصديق يوم 21 فبراير الا بعد مشقة .

وكانت نتيجة ذلك ان ابرم الحاج محمد المقرى وعبد الله الفاسى يوم 4 مارس 1910 مع المسيو «ستيفن بيشون» الاوفاق المغربية الفرنسية المتعلقة بالشاوية وبمنطقة الحدود وبالقضية المالية فقد التزمت الحكومة الفرنسية بالجلاء عن الشاوية بمجرد ما يقيم المخزن بالناحيـة قـوة مغربية قادرة على صيانة النظام والامن. ثم انها التزمت مع ذلك بسحب قواتها من الدار البيضاء عند ما تـرى تطبيـق التنظيـم المتوقع لناحية الشاوية، وعند ما تقدم لها الحكومة المغربية الترضيـات الكافيـة حول دفع التكاليف العسكرية. اما فيما يرجع الى الحدود فقد التزمت الحكومة المغربية بتعيين مندوب سام على ان تسحب القوات الفرنسية الى الجزائر عند ما يصبح المخزن قادرا على صيانة الامن. ثم ان فرنسا قـد صرحـت باستعدادها فيمـا يرجع للقضية المالية لتقديم الاعتمادات التى يحتـاج المغـرب اليها على ان يكـون القرض محاطا ببعض الضمانات. وفى يوم 13 مايو 1910 ابرم الحاج محمد المقرى عقدا بقرض مع «البنك المخزنى المغربى» .

واقام سفير مولاى عبد الحفيظ بباريس الى ما بعد دخول السنة التالية. فقد كانت مهمته اهم المهمات المسندة الى جميع السفارات المغربية التى قدمت الى فرنسا منذ القرن السابع عشر .

ولم تكن لهذه السفارات والبعثات المختلفة نفس الاهمية. فلم تكن للسفارات المرسلة فيما بين القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر الا غاية محدودة. الا ان السفارة الموفدة سنة 1577 قد ادت الى تعيين أول قنصل لفرنسا بالمغرب وكانت بذلك بداية مرحلة فى تاريخ العلاقات بين القطرين .

وتستحق سفارات مولاى اسمعيل عناية خاصة. فقد ادت سفارة الحاج محمد تميم سنتى 1681 ـ 1682 الى ابرام «اتفاق للصلح» كان الاتفاق الوحيد المبرم من نوعه بفرنسا. واذا كانت المفاوضات التى باشرها السيد عبد الله ابن عائشة سنة 1699 لم تنته الى نتيجة فان موضوعها كان هاما جدا وهو تحرير الاسرى.

اما فى القرن الثامن عشر فقد انفرد السلطان سيدى محمد بن عبد الله بالاجتهاد فى تقوية صلاته بجميع الامم المسيحية وفى المبادرة ببعث سفاراته الى فرنسا، الا ان سفاراته كانت ذات آفاق محدودة بالقياس الى السفارات التى اوفدها المولى اسمعيل. غير انه كان فى مستطاع احداها ان تكون لها نتائج هامة وخاصة فى الميدان الاجتماعى والانسانى وهى سفارة السيد الطاهر فنيش الذى كلف سنتى 1777 ـ 1778 بأن يقترح على لويس السادس عشر مشروع التبادل الدائم للاسرى النصارى والمسلمين، الا انه ظهر ان مندوب السلطان لم يسند طلب سيده اسنادا كبيرا فابعد الطلب دون ان يناقش تقريبا.

ويقول القنصل «شونييه» ان سيدى محمد بن عبد الله كان يبحث لدى ايفاده الطاهر فنيش الى قصر فرساى عن الحظوة بالهدايا النفيسة. ثم انه كتب ما معناه : وليس من المشكوك فيه ان بعثة على بيريس (1781) لم يكن الغرض منها الا الامل فى تسلم بعض الهدايا الثمينة. ولقد اخذ بعض المؤرخين المعاصرين برأى «شونييه» فيما يرجع لاسباب البعثات التى أوفدها سيدى محمد بن عبد الله. وقد يلاحظ مع ذلك ان السلطان قد امر مبعوثه الحاج العربى مورينو سنة 1786 بالتوقف فى مدينة «طولون» وبعدم زيارة باريس او فرساى. وليس من الممكن فى هذه الظروف ان يكون السفير قد ذهب بحثا عن الاستفادة من الكرم الملكى .

ومن المحقق ان الموظفين المغاربة الذين كانوا يفدون على قصر «الملك المسيحي الاعظم» كانوا يتسلمون هدايا مقدمة الى سلطانهم وان هذه الهدايا كانت اكثر قيمة من الهدايا التي كان يقدمها السلطان. فلقد اشرنا الى الهدايا المسلمة للسيد الطاهر فنيش وذكرنا قيمتها. ولم يكن المبعوثون الآخرون يعودون فارغي الايدي من الهدايا ولو تفاوتت قيمها. اما الهدايا التي كان يحملها السفراء المغاربة فكانت تقتصر في الغالب على الافراس او الحيوانات المتوحشة، وكانت تشتمل في بعض المناسبات على الخناجر المصنوعة في المغرب او على بعض السروج والاقمشة .

اما سفراء السلاطين الذين زاروا باريس خلال القرن التاسع عشر فكانوا مكلفين في غالب الاحوال بمهام شرفية او بروتوكولية لا غير .

ومن الحق أن سفراء آخرين قد قدموا مطالب كانت لها بعض القيمة والاهمية السياسية. ومن السهل اليسير ان تدرك ان الحكومة المخزنية قد رغبت في تأييد فرنسا لها في مفاوضاتها مع اسبانيا. ثم ان سيدي محمد ابن عبد الرحمن ومولاي الحسن كانا على حق في سعيهما للقضاء على الشطط الملحوظ في تخويل الحماية. وكان من الطبعي ان يتوق المغرب كما كانت تتوق فرنسا الى زوال الحوادث التي كانت تقع بكثرة على الحدود الجزائرية المغربية. الا ان ايفاد سفير الى باريس لم يكن ضروريا لتحقيق هذه الغايات وخاصة الاخيرة منها. ثم ان الاتفاقات المتعلقة بالحماية الشخصية ـ سنة 1863 وسنة 1880 ـ قد أبرمت بطنجة ومدريد. كما ان المصاعب الناشئة في الحدود كان في المستطاع تسويتها بالمغرب ايضا ـ اذا لم يكن احسن ـ بدلا من ايفاد سفارة الى باريس .

ثم ان الهدايا التي قدمها مبعوثو السلطان كانت شبيهة بالهدايا المقدمة خلال القرن المنصرم. غير ان الهدايا التي تسلموها لم تكن لها على العموم قيمة الهدايا السابقة. فعادة «التبرعات» التي كانت متبعة منذ مدة طويلة قد أخذت تسير نحو الزوال .

اما السفارتان الموفدتان سنة 1901 وسنتي 1909 و 1910 فقد كانت لهما مقاصد معلومة ونتائج ملموسة على خلاف غيرهما من السفارات المبعوثة في القرن المنصرم .

ومع ذلك فيمكن القول على العموم بأن السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا لم تكن لها الا اهمية نسبية اذا استثنينا السفارات التي اوفدها مولاي اسمعيل الى لويس الرابع عشر والسفارتين الاخيرتين السابقتين

لسنة 1912. فقد جرت تسوية المشكلات الهامة الرئيسية بين القطرين فى المغرب فى مستهل القرن السابع عشر وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولنضرب لذلك مثلا بالمفاوضات التى جرت بالايالة الشريفة حوالى سنة 1630 لافتكاك الاسرى وللمعاهدة الفرنسية المغربية الاولى التى ابرمت بمراكش فى السنة التالية. وفى مراكش ايضا ابرم «كونت برونيون» سنة 1767 اهم اتفاق ابرم بين القطرين الى سنة 1912. اما فى القرن التالى فقد تم بمدينة طنجة ابرام اتفاق 10 سبتمبر 1844 لانهاء الاعمال العسكرية التى دارت خلال الشهر المنصرم والاتفاق التجاى المبرم يوم 4 اكتوبر 1892 .

وهكذا نرى ان مبعوثى سلاطين المغرب الى فرنسا لم ينهضوا فى غالب الاحوال الا بدور سياسى متواضع جدا. الا أن سفاراتهم وبعثاتهم قد ساعدت مع ذلك على الاحتفاظ بحسن التفاهم بين الدولتين .

ليكسوس

تاليف ميكيل طراديل وتلخيص عبد اللطيف الخطيب

تعتبر مدينة ليكسوس من الآثار التاريخية الهامة بالمغرب الاقصى. وقد رأينا تيسيرا لمهمة الاحاطة بمختلف المعلومات عنها في شتى الاطوار التى مرت بها ان نقدم هذا البحث في أبواب متلاحقة تتناول موقعها فذكرها فى النصوص القديمة والحفريات المنجزة بها الى الفترات الاربع التى انقسم اليها تاريخها ثم دليل الاطلال وما نقل منها الى متحف «اللوفر» الباريسى والمتحفين الاثريين بمدريد وتطوان .

ولم يكن اكتشاف الاهمية التى اكتستها مدينة ليكسوس فى العهود الاولى من تاريخ المغرب بالشيء الجديد. فقد اهتم المؤرخون منذ اربعة قرون بما كتبه اليونانيون والرومانيون الذين اعتبروا ليكسوس احدى المدن القديمة بغرب الكرة الارضية. واذا كنا لا نتوفر على المعلومات الوفيرة حول هذه المدينة وما تقلبت فيه من ازدهار واضمحلال فانها اقترنت اكثر من أية مدينة اخرى بجميع الاطوار التى تعاقبت على المغرب منذ دخوله فى التاريخ الى الفتح الاسلامي.

واذا كانت أعمال الحفر قد تواصلت منذ سنة 1948 تحت اشراف صاحب هذا البحث فان ما اكتشف لحد الساعة انما هو جزء هين يسير من المدينة القديمة العظيمة. فأطلال مدينة ليكسوس توجد على مقربة من مصب نهر «لكوس» وعلى بعد اربعة كيلومترات عن العرائش التى هى المدينة التي قامت مقام لكسوس منذ العصور الوسطى .

وقد أصاب المؤسسون فى اختيار الموقع. فمصب نهر «لكوس» احسن المرافىء الطبيعية على القطاع الشمالى من الساحل المغربى عند بحر الظلمات بالنسبة الى القوارب القديمة. وقد ظل مصب النهر المذكور حتى بناء الموانىء الحديثة احد الابواب البحرية الهامة للقطر كله. وليس لنا أن نستغرب هذا التوفيق فى اختيار ذلك الموقع متى علمنا أن تاسيس ليكسوس كان من صنع الفينيقيين وتذكرنا ما كان لهؤلاء من معرفة بفنون البحر وقدرة عليه.

قامت المدينة فوق هضاب محاذية للنهر ويبلغ ارتفاعها الاقصى ثمانين مترا على بعد اربعة كيلومترات عن الشاطىء . وهذه الهضاب التى تعرف اليوم باسم «الشميس» تيسر مهمة الحماية والدفاع للقادمين من البحر بصورة نسبية . وهى تبلغ من الارتفاع درجة تجعل نسيم البحر يلطف مناخها ويبعد عنها البعوض الذى ينقل الحمى من الاراضى الضحلة التى كانت تحيط بها. واذا كان ماء الآبار رديئا فهو مع ذلك صالح للشرب. ولهذه الناحية امكانيات تساعد على ازدهار الفلاحة وتربية الماشية وقد كان نهر «لكوس» طريقا للتوغل فى داخل القطر ووسيلة للمبادلات التجارية .

اما المدينة السابقة للعهد الرومانى فقد قامت فوق الهضبة العليا المعروفة باسم «الهرى» وفوق الجناح الجنوبى تحيط بها من الشرق والغرب مقبرتان كبيرتان. وكان الحى الصناعى والميناء فى القسم المنخفض من المدينة. وهو القسم الذى تخترقه الطريق الرئيسية في الوقت الحاضر والتى تربط طنجة بالرباط .

واذا كنا قد حددنا الموقع الجغرافى لهذه المدينة الفينيقية وأردنا الانتقال لتتبع ذكرها فى النصوص التاريخية العتيقة ففى مستطاعنا ان نقول إنه يكاد لا يوجد ذكر للمغرب فيما انتهى الينا من كتب اليونانيين والروم. وعلينا ان نلاحظ فى هذه القلة ان ذكر ليكسوس قد تكرر. وهو ما يشهد بأهميتها بالقياس الى بقية مراكز القطر ومدنه. الا ان ما ورد ذكره فى تلك النصوص قلما يساعد على معرفة ما كانت عليه مدينة ليكسوس. فأقدم النصوص هو كتاب «الجولة» الذى ينسبه بعض العلماء الى «حانون» وحتى اذا افترضنا صحة النص وجدارة الرواية المثبتة فيه بالثقة فان الاشارة غامضة كما أن التأويل صعب بحيث لا يساعد على وضع تاريخ المدينة. اما الاثر القيم الثابت فهو المنسوب للمؤرخ «سيلاكس» الذى عاش فيما يظن أواسط القرن الرابع قبل ميلاد المسيح والذى ذكر ليكسوس بوصفها «مدينة فينيقية» .

ويكثر ذكر ليكسوس فى النصوص التى يرجع عهدها الى العهد الرومانى. فقد ذكر «بلينيو» ان «كلاوديوس» قد جعل مدينة ليكسوس مستعمرة رومانية وانها كانت فيما يقول القدماء «موطن الاساطير العجيبة» فقد قام بمدينة ليكسوس قصر «أنتيو» وجرى فيها صراعه مع هرقل كما كانت بها حدائق «الهيسبيريد» أو رياض التفاح المذهب. وهو يذكر ان ضريح هرقل أبعد فى القدم من قادس. ويرد ذكر ليكسوس فى كتاب

«بتولوميـو» وفـى كتـاب «الجولـة» لصاحبه «انطونينـو» لدى ذكر المدن الساحلية. أما اقرب الاخبار الينا فهي ما وردت فى كتاب Notitia Dignitatum الذى يصف حالة الحاميات العسكرية خلال القرن الرابع. ونظرا لندرة هذه الاخبار المنقولة فعلينا ان نبحث عنها فى الحفريات ودراسة الآثار.

أما معرفة اطلال ليكسوس فيرجع عهدها الى اواسط القرن المنصرم. ويرجع الفضل فى الوقوف عليها والتعرف اليها الى السائح الالمانى «بارث» الذى وقف عليهـا سنة خمس واربعين وثمانمائـة والف ولكن الدراسة الاولى المستفيضة فقد انجزهـا الدبلومـاسى الفرنسى مسيو «شارل تيسو» الذى وضع كتابا هاما مشهورا حول الاطـلال الرومانية بالمغرب ونشره سنة 1877 بعنوان «ابحـاث حـول الجغرافيـة المقارنة لموريطانيا الطنجية». وبعد بضع سنـوات قامت بعثة فرنسية يرأسها مسيو «دو لا مارطينيير» باجراء الحملة الاولى للحفر فكانت نتيجتها العثور على بعض القطـع والادوات التى توجد الآن محفوظة فى متحف «اللوفر» بباريس.

ومرت بعـد ذلك عـدة سنوات دون ان تواصل الابحاث. غير انه كان من نتائج بناء مينـاء العرائش وتزويده بالصخور أن حطم جانب من المقبرة الغربية. وشرعت «مصلحة الآثار» بتطوان سنة 1925 بمباشرة اعمال الحفر على نطاق اوسع، فاستمرت الاعمال برئاسة السنيور «دى مونطالبان» عشرة اعوام كاملة جرى خلالها تنظيف الجانب الاسفل واكتشاف قسم من الميدان وبعض المناطق المحيطة بالاسوار علاوة على الحى الرومانى الاول. وما يوجد بمتحف تطوان من آثار ليكسوس هو ما عثر عليه فى هذه الحملة الاكتشافية الاولـى.

غير أنه عرضت فترة من الركود استمرت ثلاثة عشرة سنة وانتهت عام ثمانية واربعين وتسعمائة وألف عند ما اضطلع صاحب هذا البحث بمصلحة الآثار وركز النصيب الاوفر من نشاطه على ليكسوس باعتبارها مصدرا ذا اهمية رئيسية. وقـد توالـت اعمـال الحفر منذ ذلـك الوقت بدون انقطاع تقريبا. وكانت تستهدف الوقوف على مجموعة من الخرائب والاطلال بقدر ما تستهدف دراسة التطور التاريخى للمدينـة. وقد تم فى هذه الفترة اختبار طبقـات الارض فـى مجمـوع المساحة التى تكسوها الاطلال لمعرفة مختلف المراحـل التـى مرت بها المدينة والمراحل الاولى بصفة خاصة. وجرى على هذه الصفة كشف دارين رومانيتين كشفتا تاما الى جانب كشف قسم من دار رومانية ثالثة. وكان من نتائج هذا الكشف العثور على تشكيلة من الفسيفساء

والنحوت. كما تم كشف الاقسام الهامة من الاسوار فأمكننت بذلك معرفة انواع الدور في العهد الموريطاني الى جانب معرفة المقابر ودراستها دراسة نهائية. وقد اصبح الوصول سهلا الآن الى ليكسوس بعد تنظيف الهضبة المنخفضة وبناء طريق تصل الى القسم الاعلى من الاطلال.

اما تاريخ مدينة ليكسوس فيمكن تقسيمه الى اربع فترات تاريخية عامة.

1 — فالفترة الاولى تمتد من العهود الاولى للمدينة التي نشأت نتيجة للتوسع الفنيقي والقرطجني في السواحل الغربية بجنوب البحر الابيض المتوسط وابواب بحر الظلمات حوالي القرن السادس قبل ميلاد المسيح الى تدهور ذلك التوسع نتيجة للانتصارات الرومانية وتحطيم قرطجنة سنة 143 قبل الميلاد. وكانت مدينة ليكسوس خلال ذلك العهد احدى المدن العظمى بغرب المعمورة.

2 — والفترة الثانية هي التي تختص ببقاء النفوذ القرطجني والفنيقي القديم وبتكاثر نفوذ روما وسيطرتها على السواحل الافريقية بحوض البحر الابيض المتوسط. كما تختص في المغرب بوجود بيت موريطاني مالك. وقد ظلت ليكسوس في هذا العهد مدينة ذات حكم ذاتي وازدهار عظيم وتحتل مساحة مشيدة عظيمة تحيط بها الاسوار الفخمة. كما كانت لها عملة خاصة بها وتجارة رائجة. ولا يمكن لنا ان نحدد بداية هذا العهد بالتدقيق لان الفترة كانت في الواقع فترة انتقال. غير انه في مستطاعنا ان نقول ان بدايتها كانت حوالي بداية القرن الثالث السابق لميلاد المسيح. اما نهاية الفترة فمعلومة بدقة كاملة اذ انتهت في السنة الثانية والاربعين بعد الميلاد وهي السنة التي اصبح فيها المغرب مقاطعة رومانية ويسمى بموريطانيا الطنجية.

3 — اما الفترة الثالثة التي ابتدأت بهذا الحدث الهام فقد صحبها انقلاب كبير وامتدت قرنين كاملين واقترنت بمدة الازدهار الروماني في المغرب. فقد ازدهرت المدن الرومانية الكبرى الواقعة في السواحل الاطلسية من البلاد. واذا كانت ليكسوس قد اصبحت مستعمرة رومانية وحافظت مع ذلك على حيويتها التجارية فلم تعد في هذه الفترة الثالثة أكبر مدينة في المغرب. أما نسبة تأثرها بالرومان فقد كانت جلية واضحة فيما عثرنا عليه لدى حفر الدور الكبيرة بالمدينة. الا ان مدينة ليكسوس قد دمرت اواسط القرن الثالث.

4 — تبتدىء الفترة الرابعة والاخيرة بهذه الكارثة التي ذهبت بعهد الاقبال لمدينة ليكسوس وقد اقدمت المدينة على تغيير كيانها ببناء اسوار

جديدة وبنايات عمومية وواصلت صناعتها على خلاف المدن الاخرى. ثم انها انضمت الى العالم المسيحي كما تشهد بذلك كنيستها الكبرى وتحولت فيما بعد فاصبحت قلعة عسكرية على نحو لم يسبق في تاريخها المديد. وبزوال الكيان الروماني لليكسوس بدت نهايتها وتدل البناءات الهزيلة التي شيدت فيها فيما بعد على أن عددا ضئيلا من السكان قد اقاموا بها في القرون الاولى التي اعقبت الفتح الاسلامي. الا ان الحياة اخذت تخبو فيها شيئا فشيئا الى ان انعدمت بصورة تامة.

اما فيما يرجع الى علاقة تاريخ ليكسوس بالمعلومات العامة عن المغرب القديم فعلينا ان نقول انها ذات اهمية اساسية بالنسبة الى ثلاث من المراحل الاربع السابقة الذكر. فنحن اذا استثنينا الفترة الثالثة التي كانت في الواقع فترة الازدهار الروماني بالمغرب والتي وجدت خلالها مدن هامة كمدينة «فولوبيليس» ومدينة «باناسا» لا نجد في الفترات الثلاث الباقية مدينة تعادل ليكسوس في ميدان الازدهار والعظمة. اما فيما يتعلق بالفترة القرطجنية الموريطانية فليست هناك مدينة اخرى وقع اكتشافها وبوشرت دراستها التاريخية الا مدينة «تمودة». وفيما يتصل بمعرفة ما كانت عليه المستعمرة من قبل الفنيقيين والمدن على العموم في العصور الاخيرة من العهد القديم فلا توجد في المغرب كله مدينة وافتنا بالمعلومات والمكتشفات المساعدة على تعرف تاريخ البلاد المغربية كمدينة ليكسوس.

والآن وقد ذكرنا هذه الفترات الاربع على عجل فسنفرغ فيما يلي للحديث باطناب عن كل فترة حتى تثبت خصائصها ومميزاتها واهمية كل منها وعلاقتها بمعرفة تاريخ المغرب العام .

الفترة الاولى

كان الفنيقيون اول من اقام العلاقات المباشرة بين شرق البحر الابيض المتوسط وغربه. وهذا القول هو ما اكدته الكتب اليونانية والرومانية التي انتهت الينا واكده البحث الحديث عن الآثار. ويغلب على الظن ان تلك العلاقات قد قامت منذ بداية العصر الحجري الجديد وخاصة في الالف الثانية السابقة للميلاد. الا انه لم يصل الينا اى شيء مكتوب يؤكد هذا الافتراض الراجح. ولعل التوسع الفنيقي في البحر الابيض المتوسط قد تركز في المنطقة الجنوبية من البحر المتوسط وابواب المحيط الاطلسي فكان ذلك سببا في شموله للمغرب الاقصى.

وان الفنيقيين المنحدرين من اصل سامي والذين استقروا منذ بداية الالف الثانية السابقة للميلاد في سواحل سوريا ولبنان كانوا في موقع جغرافي هائل لتلقي مختلف التيارات الثقافية بالعالم الشرقي القديم لوقوعهم بين منطقة الدجلة والفرات والجزر اليونانية وشعوب مصر وآسيا الصغرى. انهم كانوا بحق في ملتقى هذه الشعوب وكانت ارضهم الضيقة تدفعهم الى البحث عن متسع لهم عبر البحر. وقد كانوا ذوي ولع شديد بالتجارة فاتخذوا البحر طريقا لتبادل المنتوجات المصنوعة من جهة والحصول على المواد الاولية من جهة اخرى لما كان يقع عليها من اقبال في اسواق الشرق .

وكان الحرص على التجارة هو ما دفعهم الى غرب البحر الابيض المتوسط. فقد اقاموا مواقع في مالطة وصقلية وسردينية ويابسة من جزر الباليار وأسسوا علاقات معها. كما اقاموا مواقع أخرى فيما بعد بجنوب شبه الجزيرة الايبيرية وشمال افريقيا فامتدت المواقع الجنوبية من ليبيا الحالية الى السواحل المغربية على بحر الظلمات. وقد أسسوا مدينة قرطجنة خلال القرن التاسع بالقرب من عاصمة تونس الحالية فكانت انشط المراكز الفنيقية في الغرب وتتابع تطورها حتى اصبحت امبراطورية بالمعنى الصحيح في القرن السادس.

والشيء الذي يهمنا في هذه المواقع الغربية الفنيقية هو ما له علاقة مباشرة بمدينة ليكسوس وهي المنطقة المحيطة ببوغاز جبل طارق. فقد أسس الفنيقيون مواقع شمال البوغاز وجنوبه وكان مركزها في مدينة «غادير» او قادس الحالية بجنوب الاندلس. اما التوسع الفنيقي في هذه البلاد الغربية القصوى فقد جرى في مرحلتين : اولاهما مرحلة الاستكشاف والمبادلات التجارية دون تأسيس اي موقع من تلك المواقع وكانت المرحلة الثانية هي مرحلة التعمير واقامة القواعد لاجراء المبادلات التجارية بصورة دائمة مستمرة. وكانت المواقع شاطئية يقيم بها المعمرون ويسهل رسو السفن والقوارب بها. وكان من شأن هذه المواقع ان تطورت مع الزمن فاصبحت مدنا كبرى دون ان يهتم اهلها ببسط نفوذهم السياسي على سكان الاراضي الداخلية. وهذا هو ما جعل الفنيقيين يختارون المواقع المناسبة لاعمال التفريغ من البحر ولسهولة الدفاع ضد المغيرين عليها من داخل القطر. وما موقع مدينة ليكسوس الا مثال حي لذلك الاختيار بوقوعها عند مصب نهر وعلى هضبة تيسر مهمة الدفاع. وتقول بعض الكتب القديمة ان المواقع

الفنيقية الهامة ثلاث هي «اوتيكا» في تونس و «قادس» في الاندلس و «ليكسوس» في المغرب. ويغلب على الظن ان تأسيس هذه المدن الثلاث قد جرى حوالي القرن الثاني عشر اى قبل السنة الالف. اما تاريخ تأسيس مدينة ليكسوس فيمكن تحديده بدقة استنادا الى الحفريات لان المواد الاثرية التي تظهرنا عليها عنصر لا يقبل التأويل الفردى البحت كما هو الشان فى تواريخ التأسيس .

ولا شك فى ان الاهمية التى اكتسبتها مدينة ليكسوس ترجع الى موقعها الفريد عند مصب النهر بشكل ساعدها الى حد بعيد على تحقيق الازدهار الذى انفردت به في عالم الاقتصاد والتجارة بصورة خاصة. ولا يمكن تعرف احوال هذه المدينة والوقوف عليها الا بمباشرة الحفر فى مختلف طبقات البناء حتى نصل الى سطح الارض. ذلك لان هذه الطبقات الاثرية تظهرنا على اطوار متلاحقة من تاريخ المدينة. وقد تم لحد اليوم اجراء ما لا يقل عن عشرين من الحفريات بحيث لم يبق متسع هام قام عليه حى من احياء المدينة دون ان نباشر فيه العمل ونصل من خلاله الى نتائج محمودة تتفاوت اهميتها بالطبع. وقد ابتدأنا هذه الحفريات من القسم الاسفل المحادى للطريق الرئيسية بين طنجة والرباط وجعلنا نصعد مع الهضبة. وليس يعنى هذا القول ان مهمة الحفر قد انتهت لاننا على يقين بأن ليكسوس كانت تشمل متسعا اكثر من الذي جرى فيه الكشف لحد الآن. غير انه ليس من المنتظر ان نصل الى نتائج جديدة لان وحدة البناء باعتبار العصور المتعاقبة كانت خاصية هذه المدينة .

وعلينا ان نذكر بان اهم المكتشفات والادوات والنقوش والفسيفساء توجد بمتحف الآثار بتطوان وان بعضها يوجد بمتحف «اللوفر» الباريسى وبالمتحف الاثرى بمدريد. الا ان ما يوجد بهذين المتحفين يرجع الى الحملتين الاوليين من حملات الحفر والاستكشاف فى ليكسوس اواسط القرن المنصرم وبداية القرن العشرين. وهى تكتسى مع ذلك اهمية خاصة لمعرفة تلك الفترات التاريخية الاولى من حياة المدينة وخاصة فى العهد الفنيقى الاول اما الفترات الاخرى فسنفصل فيها الحديث حتى تقف على مختلف الحياة بها والخاصيات التى اقترنت بها كل فترة لنخرج من ذلك كله بنظرة عامة شاملة حول تاريخ ليكسوس باعتبارها اهم أثر تاريخى فى شمال المغرب واحد الآثار التاريخية العتيقة فى البلاد كلها.

الفترة الثانية

وقع حادثان هامان اواخر القرن الثالث السابق للميلاد نتيجة للحرب الثانية بين قرطجنة وروما فكان لهما تأثير كبير فى حياة المدينة. وكان من نتائج هذه الحرب كسوف نفوذ قرطجنة وتفكك القوة القرطجنية والفنيقية بغرب البحر الابيض المتوسط. فقد قضى الرومانيون على ما سميناه بدائرة البوغاز واصبحت المدن الواقعة بشبه الجزيرة الايبيرية تابعة لروما.

واذا نحن اعتبرنا الرابطة الوثيقة التى كانت موجودة بين ليكسوس والدائرة التى سبق ذكرها وما نتج عن عمل الفنيقيين والقرطجنيين بها سهل علينا ان ندرك ان معالم المدينة قد تغيرت تغيرا محتوما.

ان مدينة ليكسوس كانت انعكاسا للمغرب الساحلى فى ذلك العصر واحد الامثلة التى يمكن لنا ان ندرسها على ما فيها من غموض لاهميتها بنسبة لتاريخ البلاد عامة. واذا كان الطابع الفنيقى قد ظل موجودا فى المدن الشاطئية فان تلك المدن قد أخذت تكتسى طابعا محليا بارزا مع مرور الزمن واذا كنا لا نعلم نسب الملوك الموريطانيين الا فى القرن التالى فقد اخضعوا تلك المدن لسيطرتهم. والراجح على الظن ان ليكسوس قد احتفظت بوجودها كمدينة حرة كما يبرهن على ذلك وجود عملة خاصة بها ولا يوجد فيها رسم للملوك الاهالى وان كانت للمدينة روابط لا تنكر مع العالم الموريطانى .

وان المصاعب الناتجة عن حفر الطبقات السابقة للعهد الرومانى تجعلنا لا نتوفر كما اشرنا الى ذلك عدة مرات على الاخبار المستفيضة حول مختلف مظاهر حياة المدينة فى هذه الفترة. وقد حصلنا على المعلومات الاولى بفضل كشف الاسوار ودراسة الحفريات دراسة تظهرنا على هيكل بناء الدور والمتاع الذى كانت تتوفر عليه. وعلينا ان نشير قبل كل شىء الى ان المعلومات التى عثرنا عليها فيما يتعلق بهذه الفترة لا تدل على انها كانت فترة انحطاط وتدهور بل كانت فترة ازدهار وتطور. فقد تبين ان كسوف السيطرة القرطجنية لم يؤثر فى حياة ليكسوس من الوجهة الاقتصادية. وهذه ظاهرة تؤكد لنا ان تأسيس ليكسوس ونموها ووجودها كان ذا علاقة بالشرق الفنيقى اكثر مما كان نتيجة للتوسع القرطجنى.

وترجع الاسوار الجميلة للمدينة الى هذا العهد او معظم تلك الاسوار على الاقل. ولم تكن الغاية من بنائها غاية دفاعية خالصة بل كانت معمارية ايضا. وهذا هو ما يظهر بصورة خاصة فى الاسوار المواجهة للبحر. وقد تمكنا

ايضا من معرفة كيفية الدور في ذلك العهد الذي خلف لنا دورا يرجع عصرها الى القرنين الثاني والاول قبل الميلاد والتي لا تزال في حالة حسنة جدا ولا تزال جدرانها التي ترتفع ثلاثة امتار قائمة متينة. واذا ما استطعنا متابعة الحفريات على النحو الذي باشرناه في الاعوام الاخيرة فاننا سنقف في القريب على حي كامل هو الحي الواقع بين الميدان وبين السور الغربي. وسيكون لهذا الاكتشاف اثر هام في معرفة نوع البناء في هذا العهد بصورة قارة في مجموع شمال القارة الافريقية كله. وفي المستطاع مباشرة حفريات اخرى من شأنها أن تعطينا فكرة واضحة عن الصورة التي كانت عليها مدينة ليكسوس في القرون الثلاثة السابقة للميلاد .

ويظهر من دراسة المكتشفات ان الصبغة الرومانية لم تمس الا الحياة الخارجية للمدينة. ونجد برهان هذا القول في استعمال الكتابة الفنيقية في نقود ليكسوس. ونحن لا نعرف الوقت الذي ضربت فيه السكة الليكسوسية وبقية المدن الافريقية. ويظهر ان اقدم النقود يرجع عهدها الى القرن الثاني قبل المسيح. اما النقود التي عثرنا عليها في كشف طبقات البناء بليكسوس فيمكن ان نؤكد ان عهدها يرجع الى بداية القرن الاول قبل الميلاد ايضا. وعلينا ان نلاحظ في نفس الوقت اننا لم نعثر على نقود مرقومة قبل القرن الثاني السابق للمسيح سواء كانت تلك النقود رومانية أو قرطجنية. ولنقود ليكسوس طابع بلدي خاص. ومع ذلك فلا تزال هناك مصاعب في اثبات نسبة بعض النقود المكتشفة الى مدينة ليكسوس اثباتا صحيحا. وهذا يجعلنا لا نجزم بان النقود التي نقشت عليها احرف (س م س) يمكن نسبها الى مدينة ليكسوس.

الفترة الثالثة

كان دخول المغرب باعتباره مقاطعة من المقاطعات في الامبراطورية الرومانية بداية العمل الروماني القوي وتاريخا فاصلا في حياة المدينة ولو ان علاقاتها مع العالم الروماني لم تنقطع خلال القرنين السابقين في ميدان التجارة .

اما الطور الاول فكان سلبيا بسبب الهدم الخطير الذي اصاب المدينة من جراء الحرب وان كنا لا نعرف موقف سكانها هل كانوا يؤيدون الرومانيين او يعادونهم. وليس من المستبعد ان تكون الحالة الاولى هي الراجحة. فقد انعم الامبراطور «كلاوديوس» بوضعية المستعمرة على ليكسوس

مع العلم بأنها وضعية لم تنلها الا مدن قليلة. ولما كان ذلك الانعام قد صدر عقب الحرب فمعنى هذا أن المدينة قد اتخذت موقف التأييد للرومانيين.

وسرعان ما عملت المدينة علـى ترميـم خرابها. وبعد مرور نصف قرن شرعت ليكســوس تشيد المباني الكبرى على الطريقة الرومانية. وقد عثرنا لحد الآن على ثلاثـة مبـان. غير أنه مـن الراجح أن نعثر على مبان أخرى إذا واصلنا الحفر والاستكشاف. وقد ظهرت من الحفريات في القسم الاعلى من المدينة وهو الحي الذي كان يسكنه الاغنياء انه كان للمدينة طابع معماري خـاص اذ كانت تـزرع الاشجار بين الدور الكبرى التي كانت تتوفر على اثاث وثير ونقوش جميلة. وتوجد بعض هذه النقـوش محفوظة في المتحف الاثرى بتطوان. أما الفسيفساء فهي أجود الانوع التي تم العثور عليها في المغـرب كله. كما ان النحـوت جميلة ايضا. ومعنى هذا انه كانت توجد في ليكســوس طبقـة اجتماعيــة مترفة وان كان عدد افرادها قليلا. وربما كان هؤلاء المترفون اصحاب الفلاحة ومن مستوردي السمك ومصدريه باعتبار ان السمك كان من أسس الثروة في ليكسوس كما هو الآن في مدينة العرائش وقد كان «الغاروم» أكبر المراكز لصيد السمك وبيعه في العالم القديم المعروف

ورغم هذا الازدهار الاقتصادي فان مدينة ليكسوس لم تلعب دورا هاما في الحياة الادارية لموريطانيا الطنجية. فقد كانـت «طينجيس» في الشمال و «فولوبيليس» في الجنوب اكبر المراكز السياسية في البلاد. ولعل السبب في ابتعاد ليكسوس عن تلك الحياة الادارية يرجع الى فقرها في المباني العمومية. ورغم اننا لا نزال في طور مواصلة الحفريات فنحن جازمون بعدم العثـور على المباني الكبرى كالمباني الموجودة في «فولوبيليس» والتي كان يقصد التأثيـر بعظمتها في السكان الاهالي. كما اختصت ليكسوس بالفقر في النقوش المكتوبـة فقـرا كـان سببـا فـي جهلنـا بأسماء الشخصيات وبالخصائص التـي تميزت بهـا حياتها البلدية والاسر الكبرى التي كانت تسيطر عليهـا .

أما مرسى ليكسوس فقد ظل مفتوحا امام مختلف أنواع البضائع. إلا أنه قد كانت لهذا العصر الروماني الاول نهاية محزنة حقا. فقد تعرضت ليكسوس لهدم فظيع كان له ابعد الاثـر فـي كيانهـا المعمـاري. ويمكننا ان نقول ان هذا الهدم قد حدث اواسط القـرن الثالـث بعـد المسيـح حسب المعلومات المستنتجة من الحفريات التي اجريناها لحد الآن. فالقصور الثلاثـة التي نعرفها قد استهدفت لحريق هائل اصاب المدينة كلها ولم يبق مقصورا على

الميناء . اما اسباب هذا الحريق والهدم الناتج عنه فلم تكن اسبابا محلية فقد ظهر من دراسة الخرائب والانقاض الرومانية فى شمال المغرب ان الحدث كان عاما وشاملا فى ذلك الوقت. وقد حاولنا عن طريق الدرس والاستنتاج ان نجد اثر ذلك وسببه فى الغزوات التى قام بها الفرنك والالمانيون بغرب القارة الاوربية والتى امتدت مصائبها مما وراء نهر الرين الى بوغاز جبل طارق. وقد علمنا من خلال بعض النصوص التى وقفنا عليها مؤخرا ان بعض العصابات قد اجتازت البوغاز. واذا كان هذا الهدم لا يرجع الى تلك الاغارات فربما كان ناتجا عن الفتن والاضطرابات التى قام بها الاهالى القاطنون بالداخل الذين لم يتأثروا بالرومانيين. ومن العجيب أن نشير الى ان هذه الازمة قد اصابت ليكسوس وغيرها من مراكز الشمال دون ان تنال المواقع الاخرى الكائنة بجنوب المقاطعة. ان هذه الازمة كانت نهاية عصر فى حياة مدينة ليكسوس. اما المدينة التى اعقبت هذا الحدث الهام فقد كانت تختلف فى كيانها تمام الاختلاف عن المدينة السابقة .

الفترة الرابعة

أصبحت المدينة فى هذا العصر تختلف فى كيانها المعمارى عن المدينة السابقة، فقد كان وسط ليكسوس منذ اللحظة الاولى يقع فى السفح الاعلى من الهضاب. كما رأينا ان المدينة قد توسعت تحيط بها الاسوار القوية المتينة

غير انه ابتداء من أواخر القرن الثالث هجر السكان هذا القسم الاعلى وانتقل مركز المدينة الى الاحياء الجنوبية المشرفة على النهر. وكان هذا التحول سببا فى بناء سور يختلف عن الاسوار السابقة تعلوها ابراج مربعة الشكل ولما كنا نجهل مدى اتساع المدينة ابان الامبراطورية الاولى فانه يصعب علينا ان نعرف ما اذا كانت المدينة قد اتسعت فى هذا العهد. والشىء الواضح القار هو ان وسط المدينة قد تحول تحولا كبيرا عن المكان الذى كان فيه آنذاك. ولا ندرى اسباب هذا التحول الا ان تكون راجعة الى حرص السلطة على الدفاع عن الاحياء الصناعية التى كانت مصدر ثروة السكان والتى تضررت كثيرا من جراء الغزو والفتن الناجمة عنه وقد جاء البحث عن ليكسوس شاهدا على صحة القول الراجح الآن بأن الحياة الرومانية قد تركزت ابتداء من اواخر القرن الثالث بعد الميلاد بشمال المغرب بخلاف ما كان يجرى جنوب نهر لكوس. وقد ضعف امر «فولوبيليس» و «باناسا» ابان الامبراطورية الاولى بينما استمرت ليكسوس وغيرها من مدن شمال القطر

تحت السلطة الرومانية المباشرة. وقد ذهب الامر الى احداث حامية عسكرية تقيم بصفة دائمة فى مدينة ليكسوس وورد ذكرها فى قائمة الحاميات العسكرية الرومانية لذلك العصر. ولعل تكاثر الحامية بعد الازمة التى حدثت خلال القرن الثالث يرجع الى التراجع الحاصل فى الحدود الجنوبية للبلاد والى ضرورة تركيز القوات لحماية المواصلات ويمكن لنا من خلال النقوش والمواد الاثرية التى هى المصدر الوحيد لمعلوماتنا أن نتاكد من التاريخ الحقيقى المدقق لبداية التدهور التام لمدينة ليكسوس. فالراجح على الظن أن الحياة قد استمرت فى المدينة على قوتها خلال القرن الرابع والعقود الاولى من القرن الذى يليه ومن هذا يحق لنا ان نربط نهاية ليكسوس بنهاية الامبراطورية وتفكك كيان العالم الرومانى .

ان هذه الفترة فترة غامضة بالنسبة للمغرب. فنحن نجهل ما حدث فى ليكسوس مع الوندال الذين لم يصلوا اليها على غالب الظن ولا مع المحاولات التى قام بها القوط الجنوبيون من اسبانيا. ومن الراجح ايضا ان هذه المحاولات لم تنل من المدينة ايضا. كما اننا لا نعلم اى شىء عن المحاولات التى قام بها البيزنطيون لاسترجاع منطقة البوغاز وعلاقة تلك المحاولات بمدينة ليكسوس .

ان كل القرائن تظهرنا على سير التدهور بسرعة ابتداء من اوائل القرن الخامس. ولم يات الفتح الاسلامى بانعاش المدينة ولا باشاعة الحياة من جديد فيها. ورغم وجود بعض القرائن على أن جانبا من الاحياء الليكسوسية كان مسكونا فى العهد الاسلامى لعثورنا على دور ذات هندسة عربية من العصور الوسطى فليس هناك ما يثبت حقا وجود حياة مدنية قارة. ان الحياة انتقلت فى هذا العصر الى مصب النهر فبنيت مدينة العرائش الحالية .

دليل الاطلال

ان كثرة الاطلال تتطلب سنوات من الكشف والحفر واعتمادات مالية كبرى. إلا أن الحفريات المنجزة لحد الآن كان يقصد منها الوقوف على الخطوط العامة لتاريخ المدينة على النحو الذى سبق شرحه. ويمكننا أن نقسم المدينة الى ثلاث قطاعات.

أدب المغاربة والاندلسيين فى اصوله المصرية ونصوصه العربية

هذا عنوان مجموعة محاضرات ألقاها الاستاذ محمد رضا الشبيبى على قسم الدراسات الادبية واللغوية ونشرت سنة 1960، وهو عنوان لا يدل على مراده لاول الامر، ولكننا اذا قرأنا المقدمة، فاننا نجد الاستاذ يقول انه بذلك يريد اغراضا ثلاثة، التعريـف بمخطوط نادر... هو الجزء المجرد فى شعراء الاقطار المذكـورة ـ الانـدلس والمغـرب وصقلية ـ من كتاب الخريدة للعماد الكاتب، ثم التعريف بأصول البحث التى عول عليها العماد، ثم ايرد طبقة من شعراء المغرب والاندلس ـ ممـن ذكروا فى المخطوط. فكان هذه المحاضرات منصبة على دراسة المخطوط والاستفادة من بعض تراجمه.. وهى فى الواقع كذلك والشكر للاستاذ الذى أشركنا فى هذه الاستفادة العظيمة، ثم الشكر له ثانيا على مساهمته فى هذه الدراسة التى تنال الآن من اخواننا الشرقيين عناية خاصـة، لم تكـن تحلم بها فيما قبل بعشر سنوات فقط، حينما كنا نشكر لكل شرقى ان يذكـر المغـرب، نعم ان يذكره ولو كان فى ذكره له بلسانه غافلا عنه بعقله وقلبه... أما الآن، وقد نال المغرب حظه من عناية اخواننا، وهى عناية تتجدد وتقوى مع الايـام القلائـل، فاننا ـ وقد بطرنا ـ صرنا لا نقنع منهم بالذكر، بـل لا نقنع منهم حتـى باعمال عقولهم وتوجيه قلوبهم، اذا هم لم يكونوا فى كل ذلك، مصيبين تمام الاصابة، مدركين تمام الادراك، وبهذا نأخذ أستاذنا فيما وقع فيه من اخطاء وأغلاط طفيفة، فيما يأتى :

انه بالرغم من كونه يذكر المغرب بأقسامه الثلاثة، الا انه حينما يتكلم عن بعض رجاله او احداثه ربما يتبهم عليه الامر، مثلا يعزو اهتمام المصريين بأدب الاندلسييـن والمغاربة وتضاعفه فى القرنين السادس والسابع الى ما اصاب اهل الاندلس وصقليـة والمغـرب من غزو الفرنج لبلادهم، فاى مغرب من المغارب الثلاثة اصابه غزو الفرنـج علـى هذا العهـد ؟ لا نعلم شيئا من هذا حدث آنـذاك، الا ما كـان مـن غزو نصارى صقلية لمهدية تونس اوائل

القـرن السـادس، والـذى سرعـان ما تعرض عبد المومن له، فطرد هؤلاء النصارى طـردا كليا، واستمر المغرب بأقسامه وأندلسه قويا عزيزا الى أن كانت وقعة العقاب بالاندلس أوائل القرن السابع، فصار أمر المسلمين يضعف بالاندلس دون المغرب، ازاء الفرنج الاسبان ولم يقع فى هذه الاثناء الا هجوم الجنويين على سبتة ثم ارتدادهم عنها .

وفـى معـرض تقليد المغـرب والاندلس للشرق، يذكر ان اهل المغرب والاندلس استعاروا اسماء حواضر الشرق فاطلقوها على حواضرهم، والواقع ـ كما فى نفح الطيب وغيره ـ ان هؤلاء النازحين من الشرق هم الذين اطلقوا أسماء مدنهم على هذه التى كـان منهـا ما يشبه حمصا او دمشق او مصر او الاردن فى مناخه أو مناظره، كما حدث من هؤلاء الاسبان فى امريكا الجنوبية بعد هـذا بالـف سنـة...

ويستغـرب من كـون يـوسـف بـن تاشفين وغيره من المرابطين لم يعترضوا علـى مخاطبتـهم مـن ملـوك الشرق بلقب «امير المسلمين» وكون الموحدين وعلى رأسهم يعقوب أنف من ذلـك، وقـد خوطب به كما يقال من صلاح الدين .

والواقع انه لا محـل للاستغـراب، إذا ما علمنا أن المرابطين لم يدعوا الخلافة لانفسهم، وأنهم ظلوا ـ على قوتهم وضعف العباسيين ـ على ولائهم لهؤلاء، وذكر اسمهم فى الخطبة والعملة ـ كما هو ثابت ـ وتقليدهم حتى فى لبس السواد، وانهم اكتفوا بأن لقبوا أنفسهم بهذا اللقب أمير المسلمين، أما الموحدون فكانوا على العكس منهم تماما، فادعوا الخلافة لانفسهم ورأوا أنهم أحق بها من هؤلاء العباسيين، وكانوا فـى الواقع محقين فى هذا، وان كان لا يهمنا الآن وفى هذا الصدد ...

وفـى عدة مواضع يذكر ان المقرى اندلسى، كما يذكر الادريسى بأنه قرطبى، وقد ينص على ان ابن الخطيب أندلسى (الاصل) على حين يكتفى بأن يجعل المقرى أندلسيا، وربما ذكر ابن الخطيب بأنه أديب قرطبة ...

وغنـى عـن الذكر أن المقـرى منسوب الى مقرة قرية على مقربة من تلمسان التى ولد بها، ثم غادرهـا الـى فـاس، فهو ليس أندلسيا، كما ان الادريسى من سبتة وليس من قرطبة التى لم يكن ابن الخطيب أديبها، وقد سقطت فى يد النصارى من قبله بمائتى سنة، وانما كان اديب مملكة غرناطة بما فيها حتى لوشة مسقط رأسه ...

ويستنتج من قول معلق على احدى مدن الاندلس (اعادها الله) أنه أندلسي، ولا ارى وجها لهذا فكلنا معشر المسلمين دعونا وندعو وسندعو بذلك، سواء أكنا اندلسيين ام لم نكن ...

ويذكر في صفحة 75 وما بعدها ان يعقوب المنصور امر باحراق كتب الفلسفة، ولا نعلم الا انه امر باتلاف كتب الفروع في الفقه، ورجوع الناس الى الكتاب والسنة مجتهدين في قول، وظاهريين في قول آخر ...

ولا لزوم ان نجعل الاندلس والمغرب يتسمان بظاهرة اجرامية منكرة، كما يقول في صفحة 58، سواء كان ذلك منهما تجاه الافراد او تجاه المبادىء فلا اجرام منهما منكرا او غير منكر، بالنسبة لما حصل في غيرهما من بلاد الاسلام وغيرها... وفي صفحة 105 يعلق على الابيات - وهي لابن سارة في ابنته المتوفاة -

الا يا موت كنت بنا رؤوفا فجددت الحياة لنا بزورة
حمدت لفعلك المأثور لما كفيت مؤونة وسترت عورة
فانكحنا الضريح بغير مهر وجهزنا الفتاة بغير شورة

بانه احتقار للمرأة، ويجعل ذلك سقطة أو كبوة من هذا الجواد الشاعر الى آخر ما يعلق به ...

والواقع أن هذا ليس فيه احتقار للمرأة، ويمكن ان يفسر بأي شيء آخر، ما عدا احتقار المرأة، ومن قبل قال الشاعر :

سألت الله ان تكسى بلحد (ولو كانت اعز الخلق عندي)

واخيرا، فقد وقع لاستاذنا تكرار ما بين صفحتي 98 و 100 حيث ذكر مرتين أن ابن سارة ترجم له صاحب القلائد ترجمة وافية واتى له بنماذج من شعره :

ونختم كلمتنا بوقفة نقفها بين العماد والاستاذ الشبيبي، أمام بيتي ابن الزقاق، في رقة الخصر، ومقابلتها بآخرين لصردر البغدادي.

قال ابن الزقاق :

اسائلها أين الوشاح وقد سرت معطلة منه معطرة النشر
فقالت وأومت للسوار نقلته الى معصمي لما تقلل في خصري

فعلق العماد بقوله المعنى جيد ولكن الالفاظ ليست كذلك، واحسن منه قول صردر البغدادي

واستهدت الخصور من بناتها خواتما تجعلها مناطقا

وقوله من ابيات :

على عاتقي من ساعديها حمائل وفي خصرها من ساعدي وشاح

فقال الشبيبي معقبا، لم يوفق في النقد، فان الصورة التي رسمها ابن الزقاق من الصور الشعرية الحية، واما صردر فليس في شعره غير التلاعب بالالفاظ .

واقف بين الرجلين فاقول : ان العماد لم ينكر من هذه الصورة الا الفاظها، اما معناها وهو المقصود حقيقة في الصورة فهو يذعن الى أنه (جيد)، اما التلاعب بالالفاظ ان اعتبرناه كذلك اليس مثيله ما في الضرب الاول من المعطل والمعطر... ونلتفت الى العماد، فنقول له ما أبعد الفرق بين السوار الذي يبالغ في رقة الخصر المنطق به وبين الخواتم التي تستهديها خصور الهيفاء من بناتها نفسها، فهذا خيال مطرود من الذوق ومنبوذ من المبالغات مهما تسامحت مع غيره، وان كان التعبير واستهدت الخصور في حد ذاته جميلا. أما البيت الاخير، على عاتقي الى آخره، فليس فيه تصوير لرقة الخصر، خصوصا اذا ما قارناه بهذا المنطق بالخواتم، فالخصر يكون وشاحه ساعدان خصر معتاد، لا يسترعي برقته نظر الشعراء أو غير الشعراء ...

الاسلام في الغرب

تاليف : جان بول رو ـ وتعريف نجده هاجر وسعيد الغز

يريد المؤلف بالغرب، الغرب الجغرافي، مما يقابله الشرق، والكتاب له اهمية خاصة خصوصا من النظر الاوربي، وفيه معلومات بعضها تفيدنا من حيث هي، وبعضها نسر ان يكون غيرنا على علم بها.

الف الكتاب بالفرنسية، وقام بتعريبه الفاضلان المذكوران، ويظهر انهما كانا في هذا التعريب يحاولان لاول مرة مهمة التعريب، وهي مهمة شاقة لا يستطيعها الا الخواص، ولا يقدرها حق قدرها الا من اصطدم بها في غير ما مرة .

فاول ما يعوز المعربين هو «سياسة» ربط الجمل، في العربية وتطبيق ذلك على ما يعربانه، لا ان يسيرا في ذلك حسب ما هي محرومة منه الالسنة الاخرى، فيبقى الكلام في العربية ابتر مجذوما لا تربط جمله وفواصله رابطة، وبذلك تختل المعاني وتخرج الى العجمة، وناحية اخرى تعوز المعربين وهي الاطلاع على الثقافة الاسلامية أو العربية بوجه عام، فقد اتضح أنهما بعيدان بعض البعد عن الثقافة العربية، خصوصا ما يتصل منها بهذا الغرب الاسلامي، انهما ان نسبا مثلا الى قرطبة قالا القرطباوي، يكرران ذلك، وقد يذكر المؤلف قرطبة فيذكرانها ولا يتحاميان ان يفهماك أن هذا القرطباوي منسوب الى قرطبة تلك، ويأتيان باسماء غريبة، مثل كوتة اى سبتة لانهما وجداها مكتوبة هكذا Ceuta ومثل عوفة اى أنفى لانهما وجداها مكتوبة هكذا Anfa فاجتهدا ان يكون النطق العربي عوفة ومثل الارعش اى العرائش، لانهما وجداها مكتوبة هكذا Larache وهكذا نجد بعض الاسماء مثل سلمنك أي سلمنقة، ومن جهلهما بجغرافية هذه البلاد انهما يجعلان منطقة امزاب من المغرب الاقصى، مع انها ليست منه، وانما توهما ذلك من ترجمتهما غير الدقيقة.

أما كلمات أخرى من مثل أعاق يعني عاق، والراس المقطوعة، بالتانيث وسوف لن نعود، فشيء يطالعنا في كثير من الاحيان...

وبقي ان ننظر الى الكتاب وما عالجه من مسائل لها اهميتها كما قلنا، فمن تلك المسائل .

أنه يذكر ان بقايا المسجد المكتشفة في نربون قد تكون فاتحة لكشف ما تعذر من المعلومات حول انطلاق موسى في فتوحه بعد اجتياز جبال البرنيه

وان نربون هذه كانت أهم قاعدة للمسلمين فيما وراء البرنيه، وفى فرنسا .

كما انه فى القرن الحادى عشر كانت قد قامت قبالة افريقيا الاسلامية العربية دولة جديدة مسيحية نورماندية للتدخل فى قضايا افريقيا الاسلامية.

وان الحملة الصليبية على المغرب استمرت فى الشمال الافريقى بعد حملة القديس لويس 1270 الى القرن السادس عشر .

أما نشأة الحروب الصليبية فانها كانت يتمخض بها قرن من الزمن قبل أن أسرع البابا أوربانوس الثانى فى انضاج هذه الفكرة الخطيرة.

وكانت مهمة المغامرة الصليبية الفلسطينية ترمى الى تغيير المعتقدات الشرقية، فكان عليهم أن يخربوا الشرق الاسلامى، ومن أجل ذلك كان الكرسى الرسولى يخطب ود المغول فى بوادى آسيا، لتحويل انظارهم عن أوربا وتوجيهها ضد الاقطار الاسلامية، ومن حسن الحظ للعالم المسيحى أن حملة تيمورلنك مكنته فى معركة انقرة سنة 1302 من كسر شوكة العثمانيين فانقذت القسطنطينية الى وقت ما، ومن المهم ما نجده من اعتراف المؤلف بأن الاسلام كان المصدر الوحيد للعلوم جميعها، حتى ما نقله منها من الصين والهند وغيرهما مما لم تنله فتوحاته، ومما لاحظه وهو مهم أيضا ان التعريب لم يرافق الاسلام دائما وذلك كما فى البربر ولبنان فأولئك مسلمون غير معربين وهؤلاء فيهم معربون وليسوا مسلمين، على ان التعريب بدأ قبل الاسلام عن طريق الغساسنة والمناذرة

ويذكر أن جزيرة صقلية بدت بمظهر التسامح الدينى، على العكس من الاسبان الذين حملوا عداوتهم للاسلام حتى الى الفلبين مخالفين فى ذلك ما عرف فيما بعد عن سياسة أروبا التى كانت تقوم على التقرب من الاسلام، خصوصا فى الاقاليم التى أخضعتها فى القرن 19 كالهولنديين.

ويذكر أن تقليد الاوربيين ثم الامريكان اكتسح العالم الاسلامى لدرجة أن اصبحت كلمة عصرى تساوى اروبى من ثقافة واقتصاد.

ويعود فيذكر ان ما قدمه الاسلام للحضارة الاروبية كان عظيما بحق، سواء ذلك فن العمارة والبحرية والتنجيم والرياضيات والطب والزراعة والتجارة والصناعة والفلسفة والادارة والموسيقى والالعاب والفروسية وحياتها، مما تجد ذلك مفصلا فى فصل عقدة خصيصا، لما قدمه الاسلام للحضارة الاروبية .

ثم اعقب هذا الفصل بفصـــل آخـــر هام تكلم فيه عن وسائل التقرب من قبل المسيحية ولو انه في ذلك كان حسن الظن الى أبعد حد.

وينتقل منه الى فصل آخـــر يتنـــاول فيـــه ما قدمه الغرب للحضارة الاسلامية، ويعود فيذكـــر ان ذلـــك كانـــت له بوادره قبل الاسلام من قبل بـــزنـــطـــا .

هذه هي أهم الملاحظات الواردة في الكتاب، وهي ملاحظات تدل على دراسة عميقة وادراك قوي لما عالجه المؤلف بدراسته تلك.

كتاب (قيام دولة المرابطين)

لصاحبه الدكتور حسن أحمد محمود

أول كتاب من نوعه قدمه عن مرحلة مهمة من تاريخ المغرب، دارس شرقى استوعب دراسته عن صدق واخلاص وطول اناة وعناء، تلك المرحلة مرحلة قيام دولة المربطين، هذه الدولة التى حتى الآن لا يعرف عنها الا أقل من القليل، والتى جنى عليها التاريخ كما جنت عليها الاثرة النافسة عليها ممن خلفوها، والاهواء الطاغية عليها من الجاحدين لنعمتها والكافرين لعقائدها والحاقدين على ما أسدت الى الاسلام من أياد، وما كفت به عن الاسلام من أيدى اعاد ...

انه كتاب بكر صدر فى العربية عن هذه الدولة او قيامها، معتمدا على مصادر شتى بعضها ما زال فى غياهب المخطوط، وكثير منها لا يطلع عليه أو يعرف مظانه الا من رزق حاسة خاصة، والا من نفض عنه غبار الكسل المتراكم فتجرد للاطلاع والقراءة فى همة وجد لا يتوانى، ثم خلص من ذلك بآراء فى منتهى السداد، آراء عملت فيها النظرة الفاحصة، والفكرة المتجردة من كل هوى أو تقليد، واخيرا يعرض علينا الدكتور كل ذلك عرضا منهجيا، لم نره لغيره حتى الآن فيمن تناولوا هذا التاريخ من شرقيين وغير شرقيين .

وان كان لنا ان نلاحظ على الكتاب، فان ملاحظتنا لا تتعدى أشياء بسيطة فى نوعها، او خارجة عن صلب الموضوع وهو موضوع له خصوصيته..

هناك بعض المعالم الجغرافية، ربما لم يتمثلها مؤلفنا، من ذلك قوله فى صفحة 63 : «وراح موسى يترسم خطا عقبة بن نافع... أوغل فى اقليم الريف حتى أدرك طنجة، ثم انحدر الى سبتة، ثم انحدر الى إقليم السوس الادنى» الخ ونحن لا نفهم هذا السير ...

وفى صفحة 82 حصل بعض القلق فى العبارة أو بدت لنا غامضة، فهو يقول : «ويبدو ان المنصور... رأى ان الوقت قد حان... لان الخطر الصنهاجى على المغرب الاقصى بعد وفاة المنصور قد زال أو كاد»

وفى صفحة 94 يقول : «لان المالكية يفضلون الصحابة على على بن ابى طالب»... فما معنى هذا، وهل على غير صحابى ؟

وفى صفحة 177 يقول عن الدعوة الموحدية : «هى دعوة ظاهرها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وباطنها تعصب ذميم» الخ. وهذه دعوى لها

خطورتها وان كنا حتى الآن لا نطمئن الى أن هذه الدعوة كانت تقوم على «العصبية القبلية» ...

وفي صفحة 185 يقول : «اذا صح ما تسبه ابن تومرت الى المرابطين: فلم اتصل امام عظيم كالغزالي بيوسف بن تاشفين وبارك جهاده، وسعى له عند خلفاء بنى العباس،... ؟ فمتى اتصل الغزالي بيوسف ؟ وهل اتصاله غير المباشر مما يعد من حقائق التاريخ.

ويقول في صفحة 201 أن الاغـزاز كانوا في جيش المرابطين، وهذا شيء لم نعلمه الا منه، وان كان قد نقله عن ابى أبى زرع .

وفي صفحة 216 يذكر أن البرغواطيين انتزعوا سبتة وطنجة من بنى حمود، والواقع انهم لم ينتزعوها منهم انما كانوا لهم عمالا، فاستقلوا بها فيما بعد، حينما كانت دولة الحموديين تلفظ نفسها الاخير. وينبغى الا يفهم أن هؤلاء كانوا ما يزالون على عقيدتهم التى تصورها المؤلف، بل الغالب انهم كانوا فى عقيدتهم لا يختلفون عن عقيدة الدولة التابعين لها، وانما بقوا على انتسابهم القبلى كما بقى غيرهم فيما بعدهم بمائات السنين. فنحن نعلم أن المرابطين حاربوا البرغواطيين فى غير طنجة مهد علماء الاسلام .

ثم هناك بعض الركاكة فى جمل بعينها وربط بعضها ببعض، مثلا قد يستعمل انما بدل لكن أو بل، وقد يكرر لكن مرات عديدة الواحدة تلو معطوف الاخرى، مع ان العطف بها مشروط كما فى كتب النحو.

ومن الاخطاء النحوية أو الاملائية، تنوينه للموصوف بابن، فيكتب مثلا، محمد بن عبد الله، هكذا محمدا، وعليا، وهكذا يكرر هذا الصنيع فى كل ما ورد فيه هذا الوصف بابن، مع أنه من المعروف حذف التنوين قبله وهو صفة .

ويعتمد على بعض الكتب اعتمادا كليا فى اثبات بعض القضايا التاريخية، التى استقلت بها، مع ان هذه ربما لا يصح الاعتماد عليها وحدها، مثل روض القرطاس، والذخيرة لابن بسام.

وأخيرا وهو عيب كتبنا المطبوعة فى الشرق والغرب على السواء، أعنى الاخطاء الطباعية، التى لم تنج منها صفحة واحدة من هذا الكتاب القيم، فنرجو أن يعاد طبعه فى عناية واتقان لانه أهل لهذه العناية وهذا الاتقان.

فهرست

محمد الفاسي ـ الامثال المغربية باللغة العربية العامية 7
محمد المنوني ـ مظاهر يقظة المغرب الحديث 49
حسان عوض ـ الاشجار المثمرة في المغرب 85
محمد بن تاويت ـ من زوايا التاريخ المغربي 109
جاك كيلي ـ السفارات والبعثات المغربية الى فرنسا 155
ميكيل طراديل ـ ليكسوس 195
محمد بن تاويت ـ نقد الكتب 207